أول الكلام

مقوّمات النصر

رئيس التحرير

قليلةٌ هــي المؤسسات الفكرية والعسكرية، وكذلك قليلون هم الأفراد والمؤرخون الذيــن تــناولوا بالبحــث وإحياء الذكرى لقائد عربي بالغ الأهمية بين قادة العالم، بمناسبة مرور أربعة عشر قرناً هجرياً على وفاته. وهو خالد بن الوليد.

كنــتُ أتمــنى لو أن العرب لم يحتفلوا بوفاته، وإنما أطمح أن يحتفلوا بولادته، فولادته أجــدر بالاحــتفال؛ لأنها جاءت إلى الدنيا بعبقريٍ من عباقرة فنون الحرب، وإحكام الخطط الاستراتيجية، لم تخرّجه كلية عسكرية، ولم يتدرب في أكاديمية من أكاديميات الأركان، وإنما وُهــب القــيادة فطرةً، فكان النصر حليفه في كل المعارك التي خاضها بنجاح. فقضى على كــبريات الامبراطوريات في عالم القرون الوسطى: الامبراطورية الفارسية والامبراطورية البيزنطية، ولكنَّ المفكرين أعرضوا عن الاحتفال بولادته؛ لأنها حدثتْ سنة 586م أي قبل أن يكــون للعرب تأريخٌ هجريٌ تُنسب إليه ولادته، فعندما اصطلح الناس على بداية الهجرة كان عمره حوالي 36 سنة.

صــحيح أن هــذا القائد العبقري- كما أطلق عليه عباس محمود العقاد عندما أدرجه في سلسلــة العــبقريات التــي كتب عنها- هذا القائد خالد بن الوليد وُلِد بمكة، ولكنْ يشرّف هذا القطــر العربي السوري أنه احتوى جثمانه سنة 21 هجرية، فظفرتْ مدينة حمص باحتضان رُفاته، ولذلك لم يكن غريباً بل ظاهرة وفاء واعتزاز أن يتنادى مفكرو حمص وكُتّابها لإحياء ذكــرى هــذا القــائد الفــذ بأبحاثٍ من جوانب عبقريته، ومن الاعتراف بعظمة هذا القائد، والاعــتزاز بــالدور الذي قام به في خدمة العروبة والإسلام، وبالمكتسبات التي تركها لهذه الأمــة، أن أقامــت جامعة حلب بالتعاون مع جمعية العاديات في الفترة ما بين 29 و31 من

تشرين الأول سنة 2002 الندوة الدولية بعنوان (خالد بن الوليد- رؤية معاصرة) تهدف هذه الندوة إلى تحريض الروح الجهادية، وإرادة المقاومة والصمود في أجيالنا من خلال استعراض واستذكار هذه المعاني في شخصية خالد بن الوليد، صحيح أنه كتب الكثير عن شخصية هذا القائد العظيم من قِبَل مؤرّخين وعسكريين وسياسيين وأدباء وعلماء نفس وعلماء اجتماع ومُحلّلي نصوص من عرب ومستشرقين، ولكنْ ما زال الزمان والمصادر التاريخية تتكشف عن جوانب منه ما زالت غائبة عنا، أو مهمّشة غيّبها أناس من أعداء هذه الأمة، ساءهم أن يتحدّثوا بإنصاف عن الدور الذي حقّقه هذا الرجل فانتزع منهم هذه الأرض التي عاش عليها العرب وتعيش عليها الأجيال العربية منذ أربعة عشر قرناً ونيّف. ثم جاء الجهلة من أبناء الأمة العربية وتابعوهم على مقولاتهم المُغرضة، فكان هذا التاريخ المشوّه الذي نخشى أن يصبح حقائق مقرَّرة عند الأجيال العربية في قادمات الأيام. عندما أحببتُ ألا تفوتني هذه المناسبة من غير أن أشارك بكتابة بحث عن جانب من جوانب خالد بن الوليد في معركة اليرموك، وأحسب أن أحداً لم يتطرق إليه في حدود علمي، باستثناء كتابين لجنرالين عظيمين: أولهما الجنرال أكرم الباكستاني الجنسية وثانيهما العماد الأول مصطفى طلاس العربي الجنسية فجذبتني القراءة في كتب التاريخ، والمرء يسعد للاطلاع على المواقف المشرّفة في تاريخه، ويطرب لما حقّقه أبطال من أجداده، فيدفعه حب الاستطلاع والفضول العلمي أن يستكنه سر النصر في شخصية هذا القائد الذي لم يُهزَم في معركة قط، فوجدت سر نجاحه في العناصر الأربعة التالية:

آ-**الشجاعة، وهذه صفة فطرية**، وهبة من الله، تلعب الوراثة- كما يقول علماء النفس- دوراً كبيراً في نقلها من السلف إلى الخلف، وتعطيها لإنسان وتحرم منها آخر، يتّصف بها الرجل كما تتّصف بها المرأة، ولا فرق فيها بين سيِّد وعبد، كما لمحنا في تاريخنا الجاهلي والإسلامي، وقد تتجلى الشجاعة في الجسد عند أناس، أو تتجلى في الرأي والفكر عند أناس آخرين، ولما كانت هذه الشجاعة فطرية فإن الأحداث والأيام والمعارك تنمّيها وتصقلها. وممارسة الحرب، وخوض المعارك من شأنها أن تؤصل الشجاعة في الشجاع، وتؤكد فيه نزعة الإقدام، ومبارزة الخصوم، بقلب جسور، وعزيمة صادقة، وهذه الخصائص تمركزت في خالد كما تحدثنا نشأته الأولى، حتى وصفه الرسول (ﷺ) بأنه سيف الله المسلول.

ب-**الرأي المحرك للقدرة على التخطيط الحربي**، ووضع القرار الحكيم، وحسن إدارة المعارك، والحكمة البعيدة أو بُعد النظر في تعبئة الجيوش، وترتيب الصفوف وتوزيع المهمات القتالية، وحسن اختيار قادة الفيالق والسرايا والكتائب وإسناد المهمات لمن يستطيع النهوض بها حسب الرتب العسكرية والحشود القبائلية والعشائرية طبقاً لما هو متعارَف عليه

في مجتمع ذلك الزمان. وباختصار حسن رسم (التخطيط الاستراتيجي والتكتيكي) كما هو متعارَف عليه في المصطلح العسكري المعاصر، أو كما كانوا يُسندون لخالد إدارة (القُبّة والأعِنّة) في المصطلح العسكري القديم.

فإنّ الباحث ليتملّكه الإعجاب من رجلٍ قاد جموعاً غالبيتها من بدو الصحراء، من الأعراب المتمردين على النظام، ولا يعرفون من سنن الحرب إلا الغزو الفوضوي الذي ألفوه في جاهليتهم، والذين لم تمكنهم صحراؤهم من امتلاك الأسلحة إلا البسيطة منها، فنظمهم خالد ورتّبهم عسكرياً، وعبّأهم كراديس وخيالة ورجّالة وميمنة وميسرة وقلباً وساقة، وقابل بهم جيوشاً نظامية مدرّبة، فقهر بهم أكبر امبراطوريتين عُرفتا في ذلك العصر، هذا الرأي المدبِّر مع الخاصة الأولى الشجاعة كأنه هو الذي أفصح عن وصفه المتنبي بعد قرنين ونصف عندما قال في مطلع قصيدته المشهورة:

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أولٌ، وهي المحل الثاني

فإذا هما اجتمعا لنفس حرّةٍ ... بلغتْ من العلياء كل مكانِ

وكأن المتنبي عناه بهذه القصيدة الرائعة عندما قال فيها:

رفعتْ بك العربُ العمادَ وصيَّرتْ ... قِمم الملوك مواقد النيرانِ

أنساب فخرهم إليك، وإنما ... أنساب أصلهم إلى عدنانِ

إن السيوفَ مع الذين قلوبهم ... كقلوبهنَّ إذا التقى الجمعانِ

فإذا رأيتك حار دونك ناظري ... وإذا مدحتك حار فيك لساني

جـ- عقيدة الجهاد في الإسلام:

فمنذ أن دخل خالد في الإسلام سنة 8 هجرية لم يسلِم ويحسُن إسلامُه فحسب، بل تغلغلت العقيدة في صميم قلبه، وآمن أن الإسلام ليس للعرب فقط، وإنما للناس كافة، فآمن أكثر من غيره بوجوب نشر الإسلام في أقطار الأرض، ومن هنا انطلق خارج مكة والمدينة، فكانت فتوحات العراق والشام، فكانت بغرض نشر العقيدة التي تأصلت في وجدانه، والتي تؤججها الرغبة في الجهاد والاستشهاد، لا حباً في كسب الغنائم كما يفسر ذلك بعض محلّلي النصوص التاريخية، صحيح أن متاع الحياة الدنيا مرغوب، ولكن ثواب الآخرة هو المحرِّض الأكبر عند عامة المحاربين من المسلمين، وعلى رأسهم ابن الوليد.

د-مواتاة الظروف السياسية والاجتماعية

عندما برز العرب أمةً على مسرح الأحداث، وأخذ المسلمون في الإرهاص لتكوين أمة فتية، ودولة صاعدة، تأخذ مكانها تحت الشمس، كانت دولتا الفرس والروم قد هرمتا، وقد دوَّخت كل واحدة منهما الأخرى حتى لقد ذكر ذلك القرآن الكريم في سورة الروم. وكان المجتمع في كل من الدولتين الكبيرتين قد نخرته المفاسد الاجتماعية، وظلم الطبقة الحاكمة، وسوء استخدام السلطة، والفقر المستشري في الطبقة الدنيا، وتطلع الناس في هذين المجتمعين، بشغف شديد إلى العدل والمساواة والرحمة، وهذا ما يُبشر به الدين الجديد، دين الفاتحين؛ لذلك سعى الكثيرون من رعايا هاتين الدولتين العظيمتين إلى قبول دين الإسلام بطواعية، وفتحوا بلادهم للفاتحين الجدد، وإن كانت ضلوعهم تكنُّ غيرة على هؤلاء الفاتحين البدو بأنهم أقل من البلاد المفتوحة حضارة ومدنية، فصالحوا الجيوش التي اجتاحتهم، ودفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وقبلوا بالشروط العادلة التي اشترطها المسلمون، فكانت هذه الجماهير، معواناً للفاتحين وعلى رأسهم خالد بن الوليد، على فتح البلاد؛ للتخلص من الظلم الذي ران عليهم قروناً طويلة.

هذا القائد العظيم الذي يتمتع بكل هذه الخصائص، وما ذكرتُ إلا أبرزها يمضي الآن على وفاته أربعة عشر قرناً، حفزت هذه القرون مجلة التراث العربي أن تقدم ملفاً يذكّر بمآثر هذا القائد الباسل، الذي يشارك في إحياء ذكراه ثلة من الكتاب والأدباء العرب، فكتابنا الكريم يقول في القديم: ﴿وذكِّر، فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ وفي الحديث قال شوقي: "فالذكر للإنسان عمرٌ ثاني".

□□□

نبذة عن سيرة
خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله
أبي سليمان المخزومي القرشي
[39 ق.هـ- 21هـ] - [582-642م]

- أبوه *الوليد بن المغيرة سيد بني مخزوم، وأمه لبابة بنت الحارث الهلالية أخت ميمونة أم المؤمنين، فهو شرف بني المغيرة وسيد بني مخزوم.*

-عاش ستين سنة، وقتل جماعة من الأبطال، ومات على فراشه، فلا قرَّت أعين الجبناء.

-كان طويلاً عظيم الجسم والهامة، مهيب الطلعة، يميل إلى البياض.

-سيف الله تعالى، وفارس الإسلام، الصحابي الجليل، من أشراف قريش في الجاهلية، قائد المجاهدين، عاش بحمص في سورية زهاء أربع سنوات ومات فيها، وكان قائداً فذاً وخطيباً فصيحاً.

-أسلم قبل فتح مكة [8هـ] هو وعمرو بن العاص سنة [7هـ]، وهاجر من مكة إلى المدينة المنورة في صفر سنة ثمان للهجرة، وصحب النبي ﷺ ثلاث سنوات، وروى له البخاري ومسلم {18 حديثاً}.

-أسهم في العهد النبوي في تحطيم عبادة الأصنام والأوثان، حيث حطم اللات والعزى

-حارب أهل الردّة في زمن أبي بكر الصدّيق وقضى على بعض قادة المرتدين: طليحة بن خويلد، ومالك بن نويرة في عهد أبي بكر.

- شهد فتح حنيناً وتأمر في أيام النبي ﷺ.

–شـــهد فـــتوح الشام والعراق والقدس وأنطاكية وغيرها، لقبه النبي ﷺ يوم مُؤتة بأنه سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين، خالد سيف من سيوف الله ونعم فتى العشيرة.

–قال عنه أبو بكر الصديق: (عجزت النساء أن يلدن مثل خالد!!).

–كتـــب إلـــى مـــرازبة (قادة) الفرس قائلاً: «الحمد لله الذي فضّ ملككم وأذل عزكم، فإذا أتاكم كتابـــي هذا فابعثوا إلي الرهن، واعتقدوا منا الذمة (العهد) وأجيبوا إلى الجزية، وإلا والله الذي لا إله إلا هـــو، لأسيرنّ إليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا».

–قـــال عمر حينما بلغه بكاء بنات عمه عليه عند وفاته: «دعهن يبكين على أبي سليمان، ما لم يكـــن نقعـــاً (رفـــع الصوت أو تراب على الرؤوس) أو لقلقة (صراخ)، على مثل أبي سليمان تبكي البواكي».

–لم ينهزم قط ولم تنتكس له راية في جاهلية ولا إسلام، وقد حضر زهاء مئة زحف. وقال عند موته: «لقد طلبت القتل في مظانه، فلم يقدّر لي إلا أن أموت على فراشي.. ولقيت الزحوف وما في جســـدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي، كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء».

–توفي في حمص سنة [21هـ]، ومشهده على باب حمص عليه وقار وهيبة.

–لم يوجد في بيته عند موته غير فرسه وغلامه وسلاح وقفّة للجهاد في سبيل الله، فلما بلغ ذلك عمـــر قـــال: «رحـــم الله أبا سليمان كان على غير ما ظننّاه به». رضي الله ورحمه، وأسكنه جنان الخلد، فهو أشهر قائد حربي إسلامي في التاريخ.

□□□

المقومات الفكرية والشخصية لخالد بن الوليد (رضي الله عنه)

(39 ق. هـ –21هـ) – (582 –642م)

أ.د.وهبة الزحيلي (*)

– أبوه *الوليد بن المغيرة سيد بني مخزوم، وأمه لبابة بنت الحارث الهلالية أخت ميمونة أم المؤمنين، فهو شرف بني المغيرة وسيد بني مخزوم.*

مولده: ولد خالد بن الوليد سنة [39 ق هـ] في مكة المكرمة، وهو ابن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن كعب[1].

نشأته: لم يعرف التاريخ الإسلامي وغيره قائداً حربياً فذاً ذا عبقرية نادرة، وحُنكة بالغة، وجرأة وشجاعة فائقة مثل خالد بن الوليد ﷺ، فلم ينهزم في أي معركة خاضها مدى حياته، ومعاركه زهاء المئة، لتميزه بعقلية نيّرة، وخبرة ميدانية حربية واسعة، يضع الخطة الحربية المحكمة، ويلحظ كل مقومات الاستراتيجية المطلوبة، ويقدر موقفه وقدراته القتالية، ويحسن موازنة قوى خصومه، ويستطلع أجواء المعركة وأسلوب المباغتة، والكر والفرّ، والرجعة والإفلات، وتوجيه الضربات الشديدة القاتلة لقلب جيش العدو، فينشر الرعب، ويحدث الهزة العنيفة، ويفتّت القوى المواجهة، ويتابع تنفيذ خطته بمهارة فائقة، ويتحكم في إدارة المعركة وتوجيهها لصالحه في ساعات قليلة حتى يندحر وتتبدد قواه في أقرب فرصة.

وأسباب ذلك كثيرة أولها: نشأته العربية المتينة من أبوين شهيرين قويين، فأبوه الوليد بن المغيرة المخزومي الذي كان يحلم بتقدير العرب أن يكون نبي الأمة فهو أحد عملاقين زعيمين قديرين في الوسط العربي، فقال كفارهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ

(*) جامعة دمشق –كلية الشريعة

(1) –سير أعلام النبلاء 1/ 366

عَظِـيمٍ﴾ [الزخرف: 31] أي أحد سيدين عظيمين من سادات العرب: الوليد بن المغيرة من مكة، أو عروة بن مسعود الثقفي من الطائف.

وكــان الولــيد يلقب بالوحيد لاستقلاله بكسوة الكعبة المشرفة سنة، وقريش سنة أخرى، ولقب أيضـاً بريحانة قريش، فهو ذو مال كثير وجاه كبير ورياسة وزعامة [1]، ووالد عشرة أولاد رجال، وقــوي جَلْد شجاع، وأحد أجواد العرب، أعلن استعداده لمقاومة ثمانية عشر من خزنة النار، وقومه يكفونــه الأخير من تسعة عشر ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: 20] وكان يزعم بقوله: "لي قلبان أعقل فــي أحدهمــا مالا أعقل في الآخر"، فنزلت الآية في حقه: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: 4]. ووصفه القرآن بعشر صفات صادقاً في آيات: ﴿فلا تُطِعِ المُكَذِّبِينَ..﴾ [القلم: 8 –13] مــنها صفة العُتُل (الرجل الجاف الغليظ الشديد) حينما وصف محمداً ﷺ كاذباً بأنه مجنون أو ساحر، ثـم هدده الله بقوله حينما وصف القرآن بالسحر: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً• وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً • وَبَنِينَ شُهُوداً • وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً • ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ [المدثر: 11 –15].

وفي الجملة: لم ينزل في القرآن الكريم مثلما نزل في رؤساء قبيلة بني مخزوم، لتميزهم بالقوة والمنعة والصلابة، وكانت ردود القرآن عليهم قوية في سورة (ن~، والمدثر والكافرون).

وعمــه هشــام قائد بني مخزوم في حرب الفجار، وأرَّخت قريش تاريخها بوفاته، وعمه الآخر الفاكــه بن المغيرة من أكرم العرب في زمانه، له بيت ضيافة مفتوح دائماً، وعمه الثالث أبو حذيفة أحــد الأربعة الذين أخذوا بأطراف الرداء لوضع الحجر الأسود في موضعه من زاوية الكعبة، وكان عمه الرابع الملقَّب بزاد الراكب الذي أشار في تحكيم أول داخل من باب المسجد الحرام لرفع الحجر إلى مكانه.

وبنو مخزوم أقوى البطون القرشية العشرة في الثراء والعدة والبأس.

نشـأ خالد في رحال هذه الأسرة القوية والعريقة ذات المجد، فكان فتى بني مخزوم وسيدهم بعد أبــيه، وشرف بني المغيرة حيث تربى في أعرق البيوت وأشرفها وأغناها، بل وألصقها بالكعبة، فقد تميز بنو مخزوم ببناء الكعبة بين الركنين الأسود واليماني.

وأم خالد عصماء هي: لبابة الصغرى بنت الحارث الهلالية أخت ميمونة أم المؤمنين، فهو ابن أخــتها، وهــي أيضــاً أخت أم الفضل بنت الحارث أم بني العباس بن عبد المطلب وزوجة العباس، وأخت أسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب [2].

إن شــرف هــذا النسب لخالد جعله من أشراف قريش في الجاهلية، يلي أعنة الخيل، وشهد مع المشركين حروبهم إلى عمرة الحديبية.

---

[1]-سيرة ابن هشام 13/ 316

[2]-تاريخ دمشق لابن عساكر 8/ 6

عــاش خالد بحسب أرجح الروايات ستين سنة، حيث ولد عام (39 ق. هـ) وتوفي سنة (21هـ)، ودفن في حمص على الراجح من الروايات، ومشهده في باب حمص عليه جلالة [1].

ويجتمع نسب بني مخزوم مع نسب الرسول ﷺ في مُرّة بن لؤي [2].

تدربه على الفروسية:

أنشأ الوليد ابنه خالداً نشأة عربية كريمة وقوية، تميزت بالشجاعة والفروسية، والجود، والنخوة، والــنجدة، والشــهامة، وأثــرت البيئة العربية المفتوحة في تكوينه بلياقة بدنية عربية، وصحة قوية، ومهارة في الفروسية، وطعان الخصوم ومنازلتهم، والتفوق عليهم بذكاء وجرأة وخبرة عالية.

وتــدرب خالد على أساليب القتال المختلفة، حتى صار ذا دراية متفوقة في الصراع، ومن أمثلة درايــته: مصــارعته المشهورة لعمر بن الخطاب وهما غلامان، فتغلب على عمر وكسر ساقه، ولا تكــون المصــارعة إلا بين الأنداد أو المتقاربين، حتى في السن، فعمر ولد قبل الهجرة بأربعين سنة وخالد عام (39 ق. هـ).

وسبب ميله للفروسية: أنه كان لبني مخزوم أحد أشرف البطون القرشية العشرة [3]: القُبَّة وهي مجتمع الجيش والأعنة، يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش، وهي قيادة الفرسان [4].

ومــن الأسباب الواضحة أن شرف الرئاسة المخزومية انتهى على خالد بن الوليد، وقد جمعت هذه الرئاسة أصول الثقافة السياسية والعسكرية الموروثة عن العرب والعجم، وكان خالد يقود القبيلة ويدافع عن وجودها.

تلــك القبــيلة المخزومية بصفات شائعة هي حب السيطرة والنفوذ، والصرامة والشدة، والبأس والقوة، وجمع المال، والتفاخر بالثراء، والاعتزاز بالأمجاد.

قــال ابــن عبد البر: "وكان خالد أحد أشراف قريش في الجاهلية، وإليه كانت القبة والأعنة في الجاهلية" [5].

وهــذه الصفات تنتقل من الأجداد والآباء إلى الأولاد بالتلقين والممارسة، وتصيد أخبار الحكماء وأبطال التاريخ في علاج المشكلات، وتخطي الأزمات.

أي إن إعــداد خــالد الحربي مصدره أمران: التزود بالثقافة العلمية الخصبة، وتنمية المهارات العسكرية الموروثة.

---

(1)-سير أعلام النبلاء 1 /367، الاستيعاب 2 /427

(2)-جوامع السيرة لابن حزم (ص3)

(3)-البطن، دون القبيلة، والبطون القرشية العشرة هي: هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعديّ وجُمَح وسهم.

(4)-الاستيعاب 2 /427، تاريخ دمشق لابن عساكر 8 /17، عبقرية خالد للأستاذ عباس محمود العقاد (ص 22).

(5)-الاستيعاب 2 /427

هــذا بالإضافة إلى صلابته الشخصية وشدة عزيمته، فكان يشبه عمر في خَلْقه وصفته، بل كان قريباً له، من طريق أمه التي كانت قريبة لخالد، فهي قرابة أبناء العمات والأخوال.

عقليته النيِّرة:

علــى الــرغم من حدة الصراع الذي كان بين قبيلة بني مخزوم الوثنية وبين قيادة الدعوة إلى الديــن الجديد، والذي أدى إلى المصاولة المعلنة بين النبي محمد عليه الصلاة والسلام وبين خالد بن الولــيد رئــيس بنــي مخــزوم، فــإن خالداً عرف بالحكمة، والعقل الراجح، والتفكير في المستقبل، والموازنة بين وثنية الشرك، وعقيدة التوحيد والتمدن والحضارة.

فــبادر عن قناعة وموازنة بين عوامل النصر والهزيمة، ومواقف الإقدام والإحجام إلى الدخول فــي الإســلام، إعجابــاً مــنه بالمناقــب المتميزة للنبي ﷺ ومنها القيادة، والخلق، وقوة الشخصية، والشجاعة، والفروسية، والجود، والنخوة، والنجدة، والعدل. ومنها المناورة التي أجراها النبي ﷺ في غــزوة الحديبية [1] في السنة السادسة من الهجرة، حيث دعا المسلمين إلى جهاد قريش والشهادة في ســبيل الله، فــبايعوه تحت شجرة الرضوان على عدم الفرار، ثم عقد الصلح مع قريش على تأجيل العمرة، وعلى وضع الحرب بين الفريقين عشر سنين. وقد سمى الله تعالى غزوة الحديبية فتحاً مبيناً في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ [الفتح:1] وسمي الفتح الأعظم، وكان من ثمرات صلح الحديبية: فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة.

وجــد خــالد فــي انضمامه إلى النبي ﷺ آفاقاً واسعة لتحقيق النصر والمجد، ولم يجد أملاً في صف القرشيين.

وبعــد أداء النبي ﷺ العمرة في السنة القابلة بعد الحديبية بحسب الصلح [السنة السابعة] بزهاء شــهرين، بــدأ خالد في تقييم معتقداته الدينية، وكان عقله دائماً يقظاً متفتحاً؛ وشعر فجأة بأن الإسلام هو الدين الحق.

وترجح لديه الدخول في الإسلام، فقابل عكرمة بن أبي جهل وآخرين وقال لهم بما معناه:

"من الواضح للعقل النير أن محمداً ليس شاعراً ولا ساحراً، كما تزعم قريش، ورسالته من عند الله، وعلى كل ذي بصيرة أن يتبعه". فصعق عكرمة لكلمات خالد وقال: "هل ستتخلى عن دنينا!".

فقال خالد: "قررت أن أؤمن بالله الحقيقي". فأنكر عكرمة عليه ذلك، فأجابه خالد:

"إنها مسألة جهل".

وكذلــك غضــب أبو سفيان زعيم قريش لما سمع عن إسلام خالد، "أصحيح ما سمعت؟" فقال خــالد: "وما سمعت؟" قال أبو سفيان: "بأنك ترغب في الانضمام إلى محمد" فقال خالد: "نعم، ولم لا، فمحمد واحد منا وقريبنا".

[1]-موقع معروف قريب من مكة في الطريق إليها من جدة.

فهدد أبو سفيان خالداً بالعقاب، فهدّأه عكرمة قائلاً: "اهدأ يا أبا سفيان، فإن غضبك سيقودني أيضاً للانضمام إلى محمد، فخالد حر في أن يختار الدين الذي يرغبه" [1].

وفي الليلة ذاتها أخذ خالد درعه وسلاحه وفرسه، وانطلق إلى المدينة مهاجراً مسلماً في صفر سنة ثمان [2]، فقابل في الطريق عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة اللذين توجها إلى المدينة للغاية نفسها فوصل الثلاثة إلى المدينة في الأول من صفر عام 8هـ /31 أيار (مايو) عام (629م) في الهدنة بعد الحديبية بين النبي ﷺ وبين قريش، وذهبوا إلى منزل الرسول ﷺ، فأسلم خالد أولاً طوعاً، ثم تبعه عمرو، ثم عثمان.

وقيل: إنه أسلم يوم الأحزاب (وقعة الخندق) فقد جاء في الحديث: [أنه شهد خيبر، وكانت خيبر في أول سنة سبع أو سنة ست].

فرحب بهم النبي ﷺ، وصفح عن عداوتهم السابقة، وكان ذلك نصراً بارزاً للإسلام، لأن خالداً وعمرو بن العاص كانا ألمع عقلين عسكريين في زمانهما.

قال خالد ذاته معبراً عن قصة إسلامه [3] ومبيناً تأثير أخيه الوليد فيه وتأثير تشجيع النبي ﷺ إياه على الإسلام: "لما أراد الله بي ما أراد من الخير، قذف في قلبي الإسلام وحضرني رشدي، فقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ﷺ، فليس في موطن أشهده إلا أنصرف، وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء، وأن محمداً سيظهر".

فلما صالح محمد قريشاً بالحديبية، ودافعته قريش بالرواح قلت في نفسي: أي شيء بقي؟

أين أذهب إلى النجاشي! فقد اتبع محمداً، وأصحابه آمنون، فأخرجُ إلى هرقل، فأخرج من ديني على نصرانية أو يهودية، فأقيم في عجم، فأقيم في داري بمن بقي!! فأنا في ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضية، فتغيبت ولم أشهد دخوله. وكان أخي الوليد بن الوليد، قد دخل مع النبي ﷺ في عمرة القضية، فطلبني فلم يجدني، فكتب إلي كتاباً، فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: فإني لم أرى أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عقلك! ومثل الإسلام جهله أحد؟ وقد سألني رسول الله ﷺ عنك وقال: أين خالد؟ فقلت: يأتي الله به، فقال: [مثله جَهِل الإسلام؟ ولو كان جعل نكايته وجِدّه مع المسلمين، كان خيراً له، ولقدمناه على غيره].

فاستدرك يا أخي ما قد فاتك من مواطن صالحة. قال خالد: فلما جاءني كتابه، نشطت للخروج، وزادني رغبة في الإسلام، وسرني سؤال رسول الله ﷺ عني، وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة

(1)-المغازي للواقدي 2 /745 وما بعدها.

(2)-سير أعلام النبلاء 1 /366، الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر 2 /427 وما بعدها.

(3)-البداية والنهاية لابن كثير نقلاً عن الواقدي 4 /283 –240، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر 8 /7- 10

مجدبة، فخرجت في بلاد خضراء واسعة، فقلت: إن هذه لرؤيا، فلما أن قدمت المدينة قلت: لأذكرنها لأبي بكر فقال:

مخــرجك: الذي هداك الله للإسلام، والضيق: الذي كنت فيه من الشرك. قال خالد: فلما أجمعت الخــروج إلــى رسول الله ﷺ؟ قلت: من أصاحب إلى رسول الله ﷺ؟ فلقيت صفوان بن أمية (وهو زعــيم قرشي) فقلت:: يا أبا وهب، أما ترى ما نحن فيه، إنما نحن كأضراس، وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو قدمنا على محمد واتبعناه، فإن شرف محمد لنا شرف؟

فــأبى أشــد الإبــاء، وقال: لو لم يبق غيري ما اتبعته أبداً، فافترقنا وقلت: هذا رجل قتل أخوه وأبوه ببدر.

وحين لقي خالد النبي مع عمر وعثمان، سلّم عليه بالنبوة، فرد عليه السلام بوجه طَلْق، فقلت:

إنــي أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك محمد رسول الله، فقال النبي: [الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير].

قلــت: يا رسول الله، إني قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحق، فادعُ الله أن يغفرها لي، فقال رسول الله ﷺ: [الإسلام يجبّ ما كان قبله].

قال خالد: والله ما كان رسول الله ﷺ يعدل بي أحداً من أصحابه فيما حزبه".

هــذه المحاكمة العقلية عند خالد في قضية إسلامه، وتفرّس النبي به ورؤيته أن له عقلاً راجحاً، يــدل ذلــك وغــيره علــى أن خالداً كان يتميز بالعقلية النيّرة، وبالآراء السديدة والرشيدة، قال عنه المؤرخون: "كان خالد من أمدّ الرجال بصراً" (1) أي أنه كان نافذ البصيرة وصادق الإلهام.

ملامح التفوق العسكري وأهلية القيادة عند خالد:

وجــد خــالد فــي الإسلام ما يحقق ظمأ نفسه إلى القيادة، وتحقيق المجد والنصر والاستعلاء، وأدرك النبــي وصــحابته مدى كفاءة خالد العسكرية، فأمّروه عدة إمارات كان فيها ناجحاً منتصراً، فصــار فــي مظلــة الإسلام سيف الله تعالى، وفارس الإسلام، وليث المشاهد، والسيد الإمام الأمير الكبــير، قــائد لمجاهدين [2]. روى الإمام أحمد والحاكم والطبراني أن أبا بكر عقد لخالد على قتال أهل الردة، وقال إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: [خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سلّه الله على الكفار والمنافقين].

أمّــره النبي ﷺ بعض الإمارات وقيادة السرايا، وبعثه إلى تحطيم صنم العزى التي كانت القبيلة هــوازن، وكــان سُلّيم سدنتها، وقال له: [انطلق، فإنه يخرج عليك امرأة شديدة السواد، لويلةُ الشعر،

(1)- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر 8 /20، أعلام النبلاء 1 /378

(2)- سير أعلام النبلاء 1 /366؛ مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر 8 /5 -7

عظيمة الثديين، قصيرة] فشدّ عليها خالد، فقتلها وقالت: "ذهبت العُزّى، فلا عُزّى بعد اليوم" وحطم اللات والعُزّى قائلاً:

يـا ((عُـزّ)) كفـرانكِ لا سـبحانك إنـي رأيـت الله قـد أهـانك [1]

وبعث النبي ﷺ أيضاً خالداً إلى نبي جَذيمة، فقتّل وأسر، فرفع النبي ﷺ يديه، وقال: [اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد] مرتين.

وفي موقعة مؤتة حين دبر أمر التراجع أمام جيش الروم اعتبره النبي ﷺ نصراً، ولقّبه النبي بأنه سيف من سيوف الله سله الله على المشركين، فهو سيف من سيوف الله ونعم فتى العشيرة.

قال عمرو بن العاص فيما رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات: "ما عدل بي رسول الله ﷺ، وبخالد أحداً في حربه منذ أسلمناه".

وولاّه أبو بكر الصديق على قيادة حروب الردة في نجد من بني تميم وغيرهم فأوقع بأهل الردة في البُطاح (منزل لبني يربوع)، وقتل مالك بن نُويرة، ثم أوقع بأهل بُزَاخة [2] لشتمهم النبي ﷺ وإصرارهم على ردتهم، ثم مضى إلى اليمامة، فقاتل بها مُسَيلمة الكذاب وبني حنيفة حتى قُتل مسيلمة، وصال خالد أهل اليمامة على الصفراء والبيضاء والحَلْقة والكُراع [3]. وكان أبرز أعماله في قتال المرتدين قتله مالك بن نويرة [4]. ثم سيره أبو بكر إلى العراق سنة (12هـ)، ففتح الحيرة وجانباً عظيماً منها.

ولما فرغ خالد من اليمامة، جاءه كتاب من أبي بكر يأمره بالمسير على الشام، فأمرّه أبو بكر على سائر أمراء الأجناد، فمضى خالد على وجهه، فسلك عين التمر [5]، ومرّ بدُومة الجندل [6]، فأغار على رجالهم، فقتل بعضهم وهزمهم الله، وحاصر دمشق، فافتتحها هو وأبوه عبيدة بن الجراح [7].

قال عنه أبو بكر رضي الله عنه: "عجزت النساء أن يلدن مثل خالد".

عزله عمر رضي الله عنه عن قيادة الجيوش بالشام، وولى أبا عبيدة بن الجراح، فلم يثن ذلك من عزمه، واستمر يقاتل بين يدي أبي عبيدة إلى أن تم لهما الفتح سنة (14هـ)، فرحل إلى المدينة، فدعاه عمر ليوليه، فأبى.

---

(1)-المرجع السابق ص 369، 370

(2)-ماء لبني أسد، جرت فيه الوقعة العظيمة بين خالد وطليحة بن خويلد الأسدي وأصحابه، فهرب طليحة، ومضى مكة مسلماً. وقال الأصمعي: ماء لطيئ بأرض نجد.

(3)-الصفراء والبيضاء: الذهب والفضة، والحلقة: السلاح عامة، والكراع: الخيل.

(4)-أعلام النبلاء 1 /377، تاريخ دمشق لابن عساكر 8 /17 -19

(5)-بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة (معجم البلدان).

(6)-حصن وقرى بين الشام والمدينة، قرب جبلي طيئ من جهة الشمال (معجم البلدان).

(7)-سير النبلاء 1 /367، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر 8 /17 -20

ولم يكن عزل عمر له خوفاً منه كما يزعم بعض المستشرقين، وإنما لأحد سببين [1]:

الأول ما قاله ابن عون: "ولي عمر: فقال: لأنزعن خالداً حتى يعلم أن الله إنما ينصر دينه، يعني بغير خالد".

الثاني شدته في القتال، فإن عمر طلب من أبي بكر عزله لما فعله في محاربة المرتدين، وقال: "إن في سيفه لرهقاً" أي شدة، فقال أبو بكر: "لا يا عمر، لم أكن لأشيم [2] سيفاً سلّه الله على الكافرين". وفي رأي آخر، قال علي لعمر: "فلم عزلته؟ قال: عزلتُه لبذله المال لأهل الشرف وذوي اللسان، قال: فكنت عزلته عن المال، وتتركه على الجند؟ قال: لم يكن ليرضى، قال: فهلا بلوته؟ أي اختبرته" [3].

ثم ندم عمر على عزله، قال نافع: "لما مات خالد لم يدعْ إلا فرسه وسلاحه وغلامه، فقال عمر: رحم الله أبا سليمان، كان على غير ما ظنناه به" [4].

لقد كان خالد متحلياً بأعلى مقومات القيادة العسكرية، سواء في وضع الخطة الحربية، والعلم بأصول الاستطلاع، وتنظيم الجيش في مواقفه وحركاته، فكان يقسم الجيش على خمسة أقسام: المقدمة والساقة أي المؤخرة والميمنة والميسرة والقلب.

وكان له الدور البارز في التخلص من عدوان دولتي الفرس والروم اللتين كانتا تحتقر البادية العربية وأهلها، فاستخف الفرس بطلائع وقعة (أليس) ولم يحفلوا بجيش خالد الزاحف إليهم، حتى هزموا، كما هزم خالد الروم في وقعة اليرموك وفتح دمشق سنة (14هـ).

والحقيقة أن الهزيمة الفارسية والرومانية كانت بسبب كون المسلمين بقيادة خالد أو غيره أخبر بالفنون العسكرية من أهل فارس والروم، وكانوا أقدر على تنفيذ الخطط العسكرية التي تنفعهم وتوقع الهزيمة بقادة هاتين الدولتين.

فالصحراء العربية شهدت معارك ضارية امتدت ثلاثين أو أربعين سنة كحرب داحس والغبراء، وحروب الزير المهلهل بين أبناء العمومة في قبيلة بني مُرّة وحروب القحطانيين والسبئيين، وتعاقبت الأجيال فيها على حروب العصابات بين القبائل المختلفة، فلا يستخف بها كما يتوهم الروم والفرس وغيرهم، فإن هذه العصابات مع طول المرانة كانت على علم بأصول الاستطلاع والمباغته والتبييت والمخاتلة وحسبان الحساب للرجعة والإفلات، وهي على بساطتها لا تستغني عنها أكبر الميادين وأصغرها على السواء [5].

---

(1)- سير أعلام النبلاء 1/ 377- 378، 383

(2)- شام السيف: أغمده.

(3)- وهذا من أخبار الواقدي وهو متروك، ولكن ذكره ابن كثير في البداية والنهاية 7/ 117 عن ابن سعد، عن الواقدي.

(4)- أخرجه ابن سعد في الطبقات 7/ 1/ 121

(5)- عبقرية خالد للمرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد: ص 7 -9

تدينه وورعه وتقواه وإخلاصه:

كان إيمان خالد بالإسلام طوعاً لا كرهاً، وبقناعة وبعد محاكمة وتأمل وتفكير، مما جعل إيمانه بالدين الجديد صلباً وقوياً جداً، كصلابة شخصيته وحزمه وعزمه وكونه قائداً حربياً فذاً.

ومن أمارات قوة إيمان:

جرأته في تحطيم الأصنام ومنها اللات والعزى، ومنها تجرعه السم، فلم يضره ثقة بالله تعالى، قـال قيس بن أبي حازم: "سمعتُ خالداً يقول: منعني الجهاد كثيراً من القراءة" [1]، ورأيته أُتي بسُمّ، ما هذا؟ قالوا: سُمّ، باسم الله، وشربه. قلت: هذه والله لكرامة، وهذه الشجاعة [2].

وعن أبي السفر قال: "نزل خالد بن الوليد الحيرة على أم بني المرازبة، فقالوا: احذروا السُّم، لا تَسقك الأعاجم، فقال: ائتوني به، فاقتحمه وقال: باسم الله، فلم يَضرّه" [3].

وعـن خثـيمة قـال: "أُتي خالد بن الوليد برجل معه زِقّ خمر، فقال اللهم اجعله عسلاً، فصار عسلاً".

ومن علائم تقواه:

مـا روي عن قيس قال: "طلّق خالد بن الوليد امرأة، فكلموه فقال: لم يصبها عندي مصيبة ولا بلاء ولا مرض، فرابني ذلك منها" [4].

ومـن مظاهـر إخلاصه وتفانيه في إرضاء الله تعالى أنه بعد عزل عمر له أثناء فتح دمشق، استمر مقاتلاً قتال الأبطال، ولم يؤثر فيه العزل شيئاً.

وقال خالد نفسه مبيناً محبته الجهاد في سبيل الله:

"ما من ليلة يُهدى إلي فيها عروس أنا لها محب أحبُّ إلي من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد، في سرية أُصبّح فيها العدو" [5].

---

(1)-ذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (4041) بلفظ: ((قال خالد بن الوليد: لقد منعني كثيراً من قراءة القرآن: الجهاد في سبيل الله)) ونسبه الهيثمي إلى أبي يعلى.

(2)-سير أعلام النبلاء 1/ 376

(3)-المرجع السابق، وذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (4043) ونسبه إلى أبي يعلى. ونسبه الهيثمي أيضاً إلى أبي يعلى والطبراني بنحوه.

(4)-المرجع السابق (ص 376)، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية 7/ 115

(5)-المرجع السابق (ص 375)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ونسبه إلى قيس بن أبي حازم، وأبي يعلى، وقال: رجاله رجال الصحيح.

وعـــن أبي الزناد أن خالداً لما احتضر بكى، وقال: "لقيت كذا وكذا زحفاً (زهاء مائة) وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف، أو رمية بسهم، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العير [1]، فلا نامت أعين الجبناء" [2]. فهذا يدل على حبه الشهادة في قلب المعركة.

وممـــا يدل على زهده في الدنيا ما قاله نافع: "لما مات خالد لم يدع إلا فرسه وسلاحه وغلامه، فقال عمر: رحم الله أبا سليمان، كان على غير ما ظنناه به" [3].

ومن علائم إخلاصه:

محبة المسلمين له وإعجابهم به في عصره وعلى مدى التاريخ الإنساني والإسلامي، فاشتد بكاء المسلمين ولا سيما قرابته عليه حين موته، ومن ظواهر هذا البكاء والألم:

ما رواه عاصم بن بهدلة عن أبي وائل وقال: "لما حضرت خالداً الوفاة قال:

لقـــد طلبت القتل مظانّه، فلم يقدَّر لي إلا أن أموت على فراشي، وما من عمل شيء أرجى عندي بعد التوحيد من ليلة بتها وأنا متترس، والسماء تهلّني، ننتظر الصبح حتى نُغير على الكفار. ثم قال: إذا مـــتُّ فانظـــروا إلى سلاحي وفرسي، فاجعلوه عُدَّة في سبيل الله. فلما توفي، خرج عمر على جنازته، فذكر قوله: ما على آل الوليد أن يَسْفحن على خالد من دموعهن، ما لم يكن نقعاً، أو لقلقة" [4].

وعن أبي وائل أيضاً قال: "اجتمع نسوة بني المغيرة في دار خالد يبكينه، فقال عمر: ما عليهن أن يرقن من دموعهن ما لم يكن نقعاً أو لقلقة" [5].

ثقافته:

إن مصـــدر المعـــرفة الدينية والتاريخية والأخلاقية في عهد النبوة هو الوحي الإلهي عبر النبي علـيه الصلاة والسلام، وعلى أساسه قامت مدرسة تربوية ناجحة وعالية لأصحاب النبي، يتمثّل ذلك فـــي هـــدي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. وكان خط خالد بن الوليد من هذا الهدي كافياً في تكوينه، روى له البخاري ومسلم (18) حديثاً، وله أخبار كثيرة ذكر ابن عساكر جملة منها [6].

---

(1)-الحمار: وحرفت إلى: البعير.

(2)-المرجع نفسه: ص 371، 382، الاستيعاب في معرفة الأصحاب 2 /430

(3)-المرجع ذاته: وأخرجه ابن سعد في طبقاته 7 /1 /121

(4)-سير أعلام النبلاء 1 /381، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر 8 /24، 27 والنقع: مدّ الصوت بالنحيب، وقيل: هو وضعهن على رؤوسهن النقع وهو الغبار، قال ابن الأثير: وهذا أولى لأنه قرن به اللقلقة وهي الصوت، فحمل اللفظ على معنيين أولى من حملهما على معنى واحد. واللقلقة: حركة اللسان نحو الولولة.

(5)-سير أعلام النبلاء 1 /383. وأخرجه الحاكم وابن عبد البرعن أبي وائل.

(6)-مختصر تاريخ دمشق 1 /8 –27، الإعلام للزركلي 2 /342

وطغت عليه ثقافته العسكرية المتفوقة، ولكن هل تفوّق هذه الثقافة يكون من غير روافد أخرى تكونها وتنميها؟! إن عبقرية خالد الحربية ونجاحه في جميع المعارك التي خاضها دليل واضح على عقلية نيرة، ومعرفة علمية وافرة بفنون الحرب وطبائع النفوس والمواقع الجغرافية لشبه الجزيرة العربية وما جاورها، حتى تمكن من وضع استراتيجية محكمة طوق بها أعداءه وألحق بهم الهزيمة المنكرة.

ولقد دربه أبوه -كما سبق -على فنون القتال وأنواع الفروسية وأضاف إليها بمهارته الشيء الكثير من التطوير والتنوع والابتكار والتجديد.

أمثلة من بطولات خالد وعبقريته العسكرية:

خاض خالد زهاء مائة زحف، لم تتنكس له راية فيها في جاهلية ولا إسلام، فكان هو المنتصر، لما تميز به من بطولة خارقة، وحكمة وشجاعة، ومهارة وخبرة، وقدرة على تفويت الفرصة على عدوه من الانقضاض على جيشه. وتفاوتت معاركه، فمنها المعارك أو المهام الصغيرة، ومنها المعارك الكبيرة الحاسمة والخالدة في التاريخ الإسلامي ضد الفرس والروم في العراق والشام وفي بقاع شبه الجزيرة العربية.

وهذه أمثلة من معاركه:

1-معركة أحد: في السنة الثالثة من الهجرة يوم السبت (15 من شوال) وقعت معركة أحد، بتصميم من مشركي قريش على أخذ الثأر والانتقام من انتصار المسلمين عليهم في معركة بدر (يوم الفرقان) في السنة الثانية من الهجرة، وكان عدد جيش القرشيين ثلاثة آلاف، بينهم سبعمائة دارع، ومعهم ثلاثة آلاف بعير، ومائتا فرس، وخمس عشرة امرأة قرشية في هودج بقيادة هند لتقوية معنويات القرشيين، وعدد من النساء يحملن الدُف والطبول.

وكان عدد المسلمين في مبدأ الأمر ألفاً، وبقوا سبعمائة رجل فحسب، بعد انخذال عبد الله بن أُبي بن سلول عنهم، ومعه ثلاثمائة من المنافقين

نظم النبي ﷺ مواقع جيشه وتعبئة جنوده، وجعل ظهره لجبل أحد ووجهه للمشركين وجعل على كل فرقة منه قائداً، واختار خمسين من الرماة بقيادة عبد الله بن جبير الأنصاري لحماية ظهر المسلمين من التفاف المشركين وراءهم، وقال لهم: [احموا ظهورنا، لا يأتونا من خلفنا، وارشقوهم بالنبل، فإن الخيل لا تقوى على النبل، إنا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم... وإن رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هَزَمنا القوم أو ظاهرناهم وهم قتلى فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم].

انتصر المسلمون في مبدأ القتال، وانهزم الأعداء، فبادروا إلى أخذ غنائم المشركين وتركوا أمكنتهم، فانكشف ظهر المسلمين، وأجابوا رئيسهم عبد الله بن جبير الذي حذرهم من ترك موقعهم، فقالوا: إن الحزب قد انتهت، ولا حاجة للبقاء حيث هم.

وكان خالد بن الوليد على ميمنة جيش المشركين، فرأى فراغ خلفية جيش المسلمين، فكرّ عليهم من خلفهم، وأعمل فيهم القتل بالسيوف، فاضطربوا، وأشيع أن الرسول قد قتل وعاد بعض المسلمين إلى المدينة، وحاول المشركون قتل الرسول ﷺ، فثبت مكانه مع نفر من المؤمنين كأبي دُجانة وسعد بن أبي وقاص، ونسيبة أم عمارة الأنصارية التي تركت سقاية الجرحى، وأخذت تقاتل بالسيف، وترمي النبل، دفاعاً عن رسول الله ﷺ، فجرحت يومئذ اثني عشر جرحاً، وأعيد تجميع قوات المسلمين في أحد، وتراجعوا إلى مواقع حصينة في جبل أحد، لحماية انسحابهم دون خسارة كبيرة، وانصرف المشركون بعد أن صدّق أكثرهم إشاعة مقتل النبي ومنهم أبو سفيان القائد العام، ورأوا أن الهزيمة كانت تامة، وانتهت المعركة، وقال أبو سفيان: "يوم بيوم بدر" [1].

وكان خالد سبب النصر، حيث فطن للحيلة الحربية، مع شدة مناوشة السيوف، فبلغ عدد قتلى المسلمين سبعين، وقتلى المشركين ثلاثة وعشرين.

2-غزوة الأحزاب (الخندق):

وقعت هذه الغزوة في شوال من السنة الخامسة للهجرة، كان جيش المشركين عشرة آلاف، وعدة المسلمين ثلاثة آلاف، شارك في جيش أهل الشرك: اليهود (من بني النضير وبني قريظة) وقريش بقيادة أبي سفيان، وقبيلة غطفان (أشجع وبني فزارة وبني مُرّة) بقيادة عُيَيْنة بن حصن، وأمر الرسول ﷺ بحفر خندق حول المدينة أخذاً بمشورة سلمان الفارسي.

فحاصر المشركون المدينة بضعة عشر يوماً، فلم يتمكنوا من تحقيق هدفهم وهو استئصال المسلمين، لأسباب:

أولها- صمود المسلمين ورفضهم اقتراح الصلح مع قائدي غطفان على ثلث ثمار المدينة.

ثانيها- قتل الإمام علي ﷺ وهو فتى عمرو بن وُدّ العامري الذي اقتحم الخندق بحصانه الأصيل، بعد أن نزل عن فرسه، فعقره علي وضرب وجهه، ثم تنازلا وتجاولا، فقتله علي ﷺ.

ثالثها- تفريق نعيم بن مسعود بين المشركين ويهود بني قريظة بزرع الفتنة بينهم، حيث طالبهم ألا يقاتل هؤلاء اليهود مع قريش إلا برهائن تسعين من رجالهم، وهم لم يعلموا بإسلام نعيم.

رابعها- إرسال ريح باردة في ليلة شديدة البرد شاتية على جيش المشركين بقيادة أبي سفيان، فكفأت قدورهم مزّقت خيامهم، وانتشر الرعب بينهم [2]، فرحلوا على الرغم من مصاولات خالد بن الوليد.

---

(1)-سيرة ابن هشام 2 /77-65، 80 وما بعدها، البداية والنهاية لابن كثير 4 /13 -17

(2)-المرجعان السابقان، ابن هشام 2 /214 -233، البداية 4 /92 -116

فقد كان خالد يطوف بخيله حول الخندق يلتمس مضيقاً يقحم منه الخيل، فأعياه. وكان هو الموكل بالنبي عليه الصلاة والسلام في كتيبة كثيفة من خيل قريش، فاندفع يقاتل سحابة النهار وهزيعاً من الليل، إلى أن تحاجز الفريقان، وارتد المشركون منهزمين. وارتد خالد بعد يلتمس الغرة، وكاد أن يظفر بها، لولا حرس من المسلمين بقيادة أسيد بن حُضَير تنبَّه له وفوت عليه غرضه، وانتهى القتال، وهو لا يزال على الطلب والطواف، ثم لبث هو وعمرو بن العاص على ساقة الجيش في مائتي فارس ردءاً للجيش كله، مخافة أن يتعقبه المسلمون [1].

3-غزوة الحديبية:

حدثت هذه الغزوة في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، وفيها تصدى خالد مرة أخرى للنبي عليه الصلاة والسلام، وهو معتمر في طريقه إلى مكة، في نحو ألف وخمسمائة من المسلمين، لا يحملون سلاحاً غير السيوف في القُرُب، وكان مع خالد مائتا فارس قبل بلوغ مكة؛ وهمَّ خالد بعد أن صلى الرسول ﷺ بأصحابه العصر صلاة الخوف أن يغير عليهم لولا نخوة من الفروسية، ردّته مع فرسانه خائبين، قال خالد واصفاً ذلك بعد إسلامه:

"همسنا أن نغير عليهم، ثم لم يُعزم لنا، وكان فيه خيرة، فاطلع على ما أنفسنا من الهجوم به، فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك مني موقعاً، وقلت: الرجل ممنوع" [2].

4-موقعة مؤته:

وقعت في جمادى الأولى في السنة الثامنة من الهجرة، ومؤتة هي الآن في شرق الأردن في أرض البلقاء من أرض الشام، وهي أول موقعة خارج الجزيرة العربية، وكان عدد جيش المسلمين نحواً من ثلاثة آلاف بقيادة زيد بن حارثة أمير الناس، فإن قتل جعفر بن أبي طالب، فإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة [3].

وكان عدد جيش الروم زهاء مئة ألف كما في سيرة ابن هشام وغيره، والظاهر أن العدد لا يزيد عن عشرين ألفاً، وانضم إليهم من قبائل العرب: لخم وجُذَام والقَيْن وبهراء.

التقى الجيشان، وقتل القادة المسلمون الثلاثة، فأخذ الراية ثابت بن الأقرم أخو بني العَجْلان، فقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم، وحاشى [4] بهم، ثم انحاز وانحيز عنه [5]، حتى انصرف بالناس.

---

[1]-عبقرية خالد للعقاد: (ص 48 -49).

[2]-المرجع السابق: (ص 49 -50).

[3]-البداية والنهاية 4 /241 وما بعدها، سيرة ابن هشام 2 /373 وما بعدها.

[4]-أي انحاز بهم.

[5]-أي انحسب وانسحب الروم.

وكان اشتراك خالد في هذه الموقعة بعد ثلاثة أشهر من إسلامه. وقد استطاع بموهبته العسكرية أن ينسحب بعد مناورة في تغيير تعبئة الجيش، فظن الروم أن المسلمين قد جاءهم مدد، فانسحبوا، وعدّ النبي ﷺ هذا الانسحاب الإسلامي نصراً حربياً مؤزراً، حمى به خالد الجيش، فإنهم بعد عودتهم إلى المدينة المنورة استقبلهم الناس قائلين: أنتم الفُرّار، فقال النبي ﷺ: [بل أنتم الكُرّار، وأنا لكم فئة].

وعرف خالد بعد هذه الموقعة بأنه سيف الله كما لقبه النبي ﷺ، روى البخاري عن أنس بن مالك ﷺ: [أن رسول الله ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رَوَاحة للناس قبل أن يأتيهم خبر، فقال:

أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب، وعيناه تذرفان، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم] [1] أو ((ففتح الله عليه)).

وروى البخاري أيضاً عن عبد الله بن عمر، قال: [أمّر رسول الله ﷺ في غزوة مؤته زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة قال عبد الله: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب، فوجدناه في القتلى، ووجدنا في جسده بضعاً وتسعين من ضربة ورمية].

5-فتح مكة:

حدث فتح مكة في رمضان في السنة الثامنة من الهجرة. وكان عدد جيش المسلمين حين خروجهم من المدينة عشرة آلاف، ثم انضم إليهم في الطريق عدد من قبائل العرب.

وفي (مَرَّ الظهران) أسر المسلمون أبا سفيان واثنين معه، فأسلم أبو سفيان، والتقى الرسول ﷺ عمه العباس مسلماً مهاجراً إلى المدينة، فقال النبي: "إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً يفتخر به"، فقال: [من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن].

كان فتح مكة لعشر مضين من رمضان سنة ثمان لنقض أهلها العهد الذي وقع بالحديبية، وللفقهاء، رأيان في صفة فتحها، يرى الشافعية أن مكة فتحت صلحاً [2] ويرى جمهور العلماء أنها فتحت عنوة أي قهراً [3].

من براهين الجمهور: أن أبا سفيان قال للنبي ﷺ: "أبيدت خضراء قريش" وأن خالد بن الوليد قتل في أسفل مكة بضع عشرة نفساً، وقيل: سبعين من قريش، حتى انهزموا حينما بعثه رسول الله، والزبير، كل من ناحية في نواحي مكة، وقال لهما: [لا تقاتلا إلا من قاتلكما] بأسفل مكة، قاتلهم فهزمهم الله عز وجل، ولم يكن بمكة قتال غير ذلك [4].

---

(1)-البداية والنهاية 4/ 255

(2)-نهاية المحتاج للرملي 7/ 215

(3)-الرسائل الزينية لابن نجيم المصري مخطوط ق161، تبيين الحقائق 3/ 249، مواهب الجليل للحطاب 3/ 366، زاد المعاد لابن القيم 2/ 69.

(4)-فتح الباري 8/ 9، تاريخ الطبري 3/ 118، البداية والنهاية لابن كثير 4/ 297، سيرة ابن هشام 2/ 406- 408

ومــن أدلــة الشــافعية: أنه لو كان فتح مكة عنوة، لقسمت غنائمها من عقار ومنقول، وتملكها الغــانمون، مــع أن النبي ﷺ لم يفعل ذلك، وإنما دخلها ﷺ متأهباً لقتال، خوفاً من غدرهم ونقضهم للصلح الذي بينه وبين أبي سفيان قبل دخولها.

قال ابن عبد البر: "لم يصح لخالد بن الوليد مشهد مع رسول الله ﷺ قبل الفتح (فتح مكة)" [1].

6- غزوة هوازن يوم حنين:

كانــت فــي العاشر أو الخامس من شوال سنة ثمان من الهجرة، وكان عدد المقاتلين من قبائل همدان (هوازن وثقيف وجُشَم) ما بين عشرين إلى ثلاثين ألفاً، بقيادة مالك بن عوف النصري الشاب فــي نحو الثلاثين، وعدد المسلمين اثنا عشر ألفاً، عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، وألفان من أهل مكة.

وأسند النبي ﷺ إلى خالد بن الوليد قيادة الخيل إليه على طليعة الجيش، ثم سأل عنه بعد هزيمة في مبدأ الأمر عند اشتباك الجمعين. وكان مع خالد مائة فارس من بني سليم.

كانــت هــذه الموقعــة من أكبر المواقع أو المعارك الإسلامية، أعجب المسلمون بكثرتهم، فلم يكــترثوا بعدوهم، فقال أبو بكر الصديق أو غيره: "لن نغلب اليوم من قلة!" وعبر القرآن الكريم عن هذا في قوله تعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾ [التوبة 25].

فوجــئ المسلمون بهجمة الأعداء المكثفة بكمين شدوا فيه شدة رجل واحد، عند صلاة الصبح، فــردهم المســلمون علــى أعقــابهم، ثم انشغلوا بجمع الغنائم كما حدث في معركة أحد، فاستقبلهم المشركون بالسهام، ففرقوا جموعهم، وفر أهل مكة وبقي رسول الله ﷺ ثابتاً على بغلته يقول:

أنــــا النبــــي لا كـــــذب   أنــــا ابــــن عـــــبد المطلـــــب

وكان أبو سفيان آخذاً بركاب رسول الله ﷺ.

وأشــيع بين المسلمين كما في أحد تماماً أن النبي ﷺ قد قتل، ولكن ثبت معه نفر من المسلمين المهاجريــن والأنصار، ونادى العباس بصوته الجهوري في المسلمين: "إن رسول الله لا يزال حياً" ونــادى رسول الله ﷺ ذات اليمين قائلاً: [أين أيها الناس؟ هلموا إلي أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله] فعــاد إلــيه المدبرون، فقاتلوا بشدة وبأس وقال النبي ﷺ حينئذ: [الآن حمي الوطيس] وانتصروا كــرة أخرى، وغنموا غنائم كثيرة، وفر قائد المشركين مالك بن عوف حتى دخل حصن الطائف مع أنــاس مــن أشــراف قومــه، وأسلم عند ذلك ناس كثير من أهل مكة حين رأوا نصر الله ورسوله وإعزازه دينه [2].

(1)- الاستيعاب 2/ 428.
(2)- رواه البيهقي.

قـال ابن إسحاق: "فلما انهزمت هوازن، استحر القتل من ثقيف في بني مالك فقتل منهم سبعون رجلاً تحت رايتهم التي كانت مع ذي الخمار".

وقتل رجل من بني كبة يقال له الجلاح، فقال رسول الله ﷺ حين بلغه قتل الجلاح:

[قتل اليوم سيد شباب ثقيف إلا ما كان من ابن هنيدة] يعني الحارث بن أويس.

وذكـر ابـن إسحاق أن رسول الله ﷺ مرّ يومئذ بامرأة قتلها خالد بن الوليد، والناس متقصفون علـيها [1] فقال لبعض أصحابه: [أدرك خالداً فقل له: إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفاً] [2] أي أجيراً.

وظل خالد في هذه الموقعة يقاتل مثقلاً بالجراح، لا يقوى على السير من مؤخرة رحله، فبارك له النبي ﷺ، وواساه. أما الهزيمة بعد الهجمة الأولى فكانت بسبب المباغتة والكمين، لم يكن لخالد يد فيها ولا طاقة باتقائها، والحرب دائماً كر وفرّ، ونصر وهزيمة، ولم يكن له تدبير ومشيئة.

وكان خالد على مقدمة رسول الله ﷺ يوم حنين في بني سليم [3].

7-موقعة خيبر:

كانت في أواخر المحرم للسنة السابعة من الهجرة، وخيبر كانت مسكن اليهود على مسافة مائة مـيل مـن شمال المدينة المنورة. وكان فيها نحو من عشرة آلاف مقاتل، وعندهم كميات كبيرة من السلاح والعتاد، وكانوا أهل مكر وخداع.

ذكـر بعـض المؤرخين أن خالد بن الوليد شهد خيبر، والواقع خلافه، قال الواقدي [4]: "الثابت عندنا أن خالداً لم يشهد خيبر، وأسلم قبل الفتح -فتح مكة -هو وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة أول يوم من صفر سنة ثمان" [5].

8-غزوة تبوك أو غزوة العسرة:

كانـت في رجب سنة تسع من الهجرة، وتبوك: بلد شمال الحجاز على طريق الشام. سار إليها المسـلمون في أعظم جيش (30 ألف مقاتل) في الصيف لمواجهة الروم الذين جمعوا جموعاً كثيرة بالشـام، ضـمت مـن نصارى العرب قبائل لخم وجذام وعاملة وغسان. وكان من المسلمين عشرة آلاف من الخيل.

أمـر النبي ﷺ خالد بن الوليد بالذهاب إلى أكيدر دومة، ليأتيه به، فاقتحم الحصن في أربعمائة وعشرين فارساً، واستسلم الأمير ومن فيه، وصالحه على الجزية، ثم خلى سبيله.

---

(1)-أي مجتمعون.
(2)-رواه ابن إسحاق منقطعاً (راجع البداية والنهاية 4 /322 -337، سيرة ابن هشام 2 /437 -478).
(3)-الاستيعاب 2 /428
(4)-المغازي 2 /661
(5)-مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر 8 /6

وتخلف عنها المنافقون قائلين: لا تنفروا في الحر، زهداً في الجهاد، وشكاً في الحق، وإرجافاً بين المسلمين. وكان أبو بكر الصديق أمير المهاجرين وخالد بن الوليد أمير الأعراب في غزوة دومة الجندل.

وجاء جماعة من الأنصار وهم سبعة نفر إلى رسول الله ﷺ وهم البكاؤون، وطلبوا تزويدهم بالسلاح، وكانوا أهل حاجة، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون.

واصل خالد حملته حتى وصل تبوك، فأقام فيها نحواً من عشرين ليلة، ولم يلق فيها كيداً، ولم يدخل حرباً.

وكانت هذه آخر غزواته ﷺ، بعد أن أقام بضع عشرة ليلة، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة المنورة [1].

8-فتوح العراق والشام:

في سبع سنين فتح العرب المسلمون بلاد العراق والشام [2]، وقضوا على دولتي الفرس والروم، وكانت هيبة خالد أمام أعدائه سابقة لسيفه وحربه، فاختاره الخليفة أبو بكر ﷺ لهذه المهمة الصعبة. وهي لقاء الفرس والروم بعد سنة واحدة من وفاة النبي ﷺ، وبعد حروب الجزيرة العربية عدة سنين، وكان الفرس قد تلقوا ضربة الهزيمة في ((ذي قار)) بيد العرب قبل الإسلام، وتقدم جند خالد بن الوليد في سواد العراق لمنازلة الفرس.

وكان المغيرة بن شعبة قد جلس على سرير رُستم بطل الفرس المشهور وأنذره بأنهم مغلوبون، وانتصر أبو عبيدة في وقعة الجسر على الفرس بقيادة ((بهْمَن جاذويه)) ومعه راية الفرس الكبرى من جلود النمور، ومعه جيش يفوق جيش المسلمين مرات.

اختار أبو بكر لحرب الفرس عياض بن غَنْم مع خالد بن الوليد، وأمر خالداً أن يتجه إلى الإبلة ثغر الهند، وأمر عياضاً أن يتجه إلى المُصَيَّخ شمال العراق، فأيهما بلغ الحيرة قبل الآخر، كان هو قائد الجيشين معاً، ثم أمدهما بالقعقاع بن عمرو التميمي الذي عرف بأنه لا يهزم جيش فيهم مثله، فشارك في القتال تحت مظلة جيش يقوده خالد بن الوليد. بلغ قرابة عشرة آلاف، عدا جيش المثنّى بن حارثة البالغ ثمانية آلاف.

والتقى جيش خالد مع جيش ((هُرمز)) القائد الفارسي الذي بدأ بالمنازلة بين القائدين، فصرعه خالد في الجولة الأولى، وانقض القعقاع مع جيش المسلمين، فهزموا جيش هرمز.

---

(1)-البداية والنهاية 5 /2 -21، سيرة ابن هشام 2 /51- 528

(2)-الاستيعاب 2 /429، البداية والنهاية 6 /342 -352، عبقرية خالد للعقاد: ص 150 -204

اتجـه خالد إلى العراق أوائل سنة (12هـ)، وحقق انتصاراته على الفرس خلال سنة واحدة، لم يهزم في معركة واحدة، ولم يقع في خديعة أو قلة أهبة، وكان أبداً كما وصفه عمرو بن العاص "في أناة القطاة ووثبة الأسد" فلا يهمل الحيطة، ولا يعتمد على الشجاعة وحدها دون الحزم والحيلة، وكان يحـارب بثمانية عشر ألفاً، وكأنه يحارب بخمسة أضعاف هؤلاء، وكانت تعبئة جيشه بحسب عرف أيامـه وهـي قسمة الجيش إلى ميمنة، وميسرة، وقلب، وطليعة سابقة، وردء لحماية المؤخرة، يقاتل مـرة بالصـفوف ومـرة بالكراديس [1]، ويواجه خصمه أو يدور عليه، ويتراجع أمامه أو يهاجمه، ويحصره أو يمكّنه من الهرب حسب ظروف المعركة.

حينما صارت القيادة لخالد على فتح بلاد فارس، أرسل جيشه على فرق ثلاث، قدم المثنى على رأس فـرقه، ثـم ألحق به عدي بن حاتم صاحبه في حرب بني أسد، ثم لحق بهم على رأس جيشه، وواعدهم موضعاً هو الجنوب الغربي من البصرة الآن.

والـتقى بجـيوش الفـرس بقيادة ((هُرْمز)) في وقعة ذات السلاسل [2]، فهزم الفرس، وتعقب المثنى بن حارثة جيش هرمز، وعبر الفرات قبل أن تتجمع فلوله، وقتل هرمز وتفرق جيشه، فتجمع الفـرس فـي ((المدائن)) عاصمة ملكهم، وحشدوا جيشاً عظيماً بقيادة ((قارن بن قريانس)) ومعاونة أميريـن مـن بيت أردشير، وأدرك المثنى فلول هُرمز في ((المذار)) ثم وصل خالد إلى ((المذار)) ووقعت فيها ملحمة عظيمة بلغ عدد القتلى من الفرس ثلاثين ألفاً.

ودارت بعدهـا معـارك فـيما بيـن النهريـن ولا سيما في وقعتي ((الولَجة وأُليس)) وكانت الانتصـارات والهـزائم مترددة بين الفرس والمسلمين في وقعة الولجة. ثم حدثت وقعة أُليس وهي أعجـب وقـائع حـرب العراق، وكانت هي الوقعة الحاسمة بين المجوسية والإسلام وسلّمت الحيرة لجيش خالد، واستطاع خالد عبور الخندق في الأنبار على جثث الإبل العجاف، وفتح الأنبار، وسميت غزوة ذات العيون، لأن الناس تصايحوا: ذهبت عيون الأنبار، ثم عقد خالد الصلح مع القائد شيرزاذ علـى شروط خالد، وانتصر خالد على الفرس في ((أُليس)) بقيادة بَهْمن جَاذويه ونائبه جابان، على قبائل العرب في عين التمر، وفي وقعة الفراض [3] آخر أعمال خالد الكبيرة في العراق، بعد تطهير جوف الصحراء من جموع الأعراب في دَوْمة الجندل.

وكـان الخلـيفة أبـو بكر يبلّغ الناس أنباء الظفر لتنتشر في الجزيرة العربية، وقال: "يا معشر قريش، عدا أسدكم إلى الأسد، فغلبه في خراذيله، أعقمت النساء أن يلدن مثل خالد؟".

ثـم أمر أبو بكر خالداً بالتوجه إلى بلاد الشام لحرب الدولة الرومانية في اليرموك، وكتب إلى أبي عُبيدة في الشام يخبره بمقدم خالد إليه.

---

(1)-مفردها كُرْدُوسة وهي الطائفة العظيمة من الخيل.
(2)-سميت بذلك لأن الفرس كانوا يوثقون أنفسهم فيها بالسلاسل جماعات للثبات في القتال وترك الفرار.
(3)-وهي في أعلى العرق بين مسالح الفرس والروم.

وكـان الطريق بين العراق والشام 500 –600 ميل، فاختار أصعب الطرق وأقصرها، مع تحذير دليله الأكـبر رافـع بن عميرة الطائي من مخاطر الصحراء، وطلب الإكثار من الماء، وملأ بطون عشـرين جزوراً عظيمة سمينة بالماء، فكانوا كلما عطشوا ذبحوا جزوراً وشربوا الماء الذي في بطنه، وبعـد ذبحهـا كلها وكادوا أن يهلكوا، حفروا في جذع شجيرة عوسج، فنبع لهم الماء، ولكن خالداً سار بجيشه البالغ عشرة آلاف بسرعة فائقة من عين التمر إلى قراقر، وقطع المسافة في (18 يوماً).

وفي النصف الثاني من السنة الثانية عشرة للهجرة سير الخليفة أربعة من كبار القواد إلى الشام وهم يزيد بن سفيان إلى دمشق على رأس ستة أو سبعة آلاف، وسير شرحبيل بن حسنة بعدد مماثل إلـى الأردن، وسير عمرو بن العاص على رأس جيش يزيد على ذلك قليلاً إلى فلسطين، وسير أبا عبيدة بن الجراح على رأس خمسة أو ستة آلاف إلى الجابية في دمشق.

وأمدهـم بعكـرمة بـن أبـي جهل في جيش صغير لحماية مؤخرة من يحتاج لحماية، وكانت الجيوش الأربعة هي المدد والمانع من الالتفاف.

واستعد قيصر الروم لملاقاة العرب في أنطاكية بجيش بلغ مائتين وأربعين ألفاً، وجيش آخر إلى جـدار بيـت المقـدس بلـغ سبعين ألفاً، وكان الجيش الروماني أوفر عدداً وأكمل عدة من الجيش الفارسـي، لكنه خليط من عناصر عديدة منها الروم والأرمن والعرب وأجناس أخرى، وأثيرت فيهم حمية الدين، أما الجيش العربي الإسلامي فكان من أمة واحدة وبعقيدة واحدة.

وكانـت معركة اليرموك هي الوقعة الفاصلة مع الروم، وتم توحيد القيادة لخالد بن الوليد، فنظم الفرق جميعاً في تعبئة واحدة على نحو رفيع، فأقام عمرو بن العاص على الجناح الأيمن، ويزيد بن أبـي سـفيان على الجناح الأيسر، وأبو عبيدة بن الجراح على القلب، واختار طريقة الكراديس على طـريقة حـرب بني حنيفة المرتدين، لأنها أصلح الطرق للنفاذ في الصفوف، وأدعاها إلى التنافس، وحملـة الكراديس (38) معظمها في القلب، وعدته ثمانية عشر كردوساً، ورئيسهم أبو عبيدة، وفيهم عكرمة بن أبي جهل، والقعقاع بن عمرو.

ثـم اشتبك الجيشان، وبدأ العدو بهجمة مكثفة شعواء، فانكشف المسلمون حينئذ، ثم هزتهم نخوة الإيمان والعرض والأنفة، وأفلحت الكرة الثانية، وتقهقر العدو، وسقطوا في هوة الواقوصة أو وادي الرقاد وقيل: بلغ عدد قتلاهم وموتاهم ثمانين ألفاً سقطوا في الوادي، وودع هرقل الشام إلى عاصمة ملكه المتصدع وداعاً لا لقاء بعده.

واستحق خالد أن يكون أحد أبطال التاريخ، وكان لخالد بعد اليرموك عمل حاسم في مرج الروم وقنّسـرين (مـن بـلاد الشام) تعقب خالد وأبو عبيدة في مرج الروم قائدين رومانيين وهما جونس وتوذر، فقتلهما. وحاصر خالد في قنسرين الرومان المحتمين، فدك حصون المدينة وهزم الرومان.

وبعـد معـركة الـيرموك فتح خالد وأبو عبيدة دمشق سنة (14هـ) بعد أن عزل الفاروق خالداً توزيعـاً للقـيادة بالتـناوب، وقال: "إني لم أعزل عن سخطة ولا عن خيانة، ولكن الناس فتنوا به،

فخشـيت أن يوكلـوا إليه ويبتلوا، وألا يكونوا بعرض فتنة" ولم يكن عزله كما تبين عن ضغينة في نفس عمر أو منافسة وخوف كما يحلو لبعض المتقولين زعمه.

والخلاصة:

إن خـالد بن الوليد هو سيف الله الأكبر، والمتميز بالعبقرية الحربية الخالدة: حقق الانتصارات فـي معارك حاسمة عديدة، ومقومات قيادته: الحكمة والشجاعة واليقظة وسرعة البديهة والملاحظة وقـوة التأثـير، والتفنـن في الحروب والاستفادة من الدروس والحروب، ووضع الخطط الناجحة، واسـتنباط القواعد الصائبة من المعلومات. وهذا ما خلد ذكره على مدى أربعة عشر قرناً في مخيلة الكـبار والصـغار، والقادة الحربيين وغيرهم، فرضي الله عنه، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وقد مات بحمص سنة إحدى وعشرين هجرية، وقيل: مات بالمدينة.

□

أهم المراجع:

- *الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، مطبعة نهضة مصر. د.ت.*
- *الأعـلام للزركلي، الطبعة الثانية، 1378هـ= 1959م.*
- *البداية والنهاية لابن كثير، مكتبة المعارف – بيروت، 1351هـ= 1932م.*
- *تاريخ الطبري ((تاريخ الأمم والملوك)) المطبعة الحسينية المصرية، ط1، 1326هـ.*
- *جوامع السيرة لابن حزم، دار المعارف بمصر، ط1، 1317هـ.*
- *سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي ((شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان)) مؤسسة الرسالة بدمشق، 1406هـ- 1986م.*
- *السيرة الحلبية (علي بن برهان الدهان الحلبي، المطبعة الأزهرية)، 1329هـ.*
- *السيرة النبوية لابن هشام، مطبعة البابي الحلبي بمصر، 1375هـ= 1955.*
- *السيرة النبوية، د. مصطفى السباعي، دار الكتب العربية بدمشق،1392هـ= 1972م.*
- *الطـبقات الكبرى لابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع المصري) طبع دار صادر – بيروت، 1380هـ= 1960.*
- *عبقرية خالد –عباس محمود العقاد، دار الكتب الحديثة بمصر، د.ت.*
- *فـتح البـاري للحـافظ ابن حجر العسقلاني، المطبعة البهية المصرية، 1352هـ.*
- *فـتوح الشـام (محمد الواقدي) الطبعة الأولى بمصر، 1374هـ= 1955م.*
- *مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر –دار الفكر بدمشق، 1404هـ= 1984.*
- *المغازي للواقدي، طبع كلكتة، 1855م.*

□□□

خالد بن الوليد في كتابة شخصيتين عسكريتين عربية وغربية

د.عبد الله الصالح العثيمين *

***حظيت** شخصية خالد بن الوليد، الصحابي الجليل، الفارس المغوار، القائد العظيم، بما تستحقه من اهتمام المؤرخين للغزوات النبوية، وحروب الرِّدة، والفتوحات الكبرى في كلٍّ من بلاد العراق، التي كانت تحت الامبراطورية الفارسية، وبلاد الشام، التي كانت تحت امبراطورية الروم. وكان مبعث ذلك الاهتمام ما قام به خالد، رضي الله عنه، من أدوار عظيمة في الأحداث المشار إليها.*

وبما أن أدوار خالد المهمّة كانت عسكرية الطابع فإن كاتب هذه السطور رأى أن يعرض تلك الأدوار من خلال كتابة شخصيتين عسكريتين؛ الأولى عربية والثانية غربية. أما الشخصية العربية فهي اللواء الركن محمود شيت خطاب[1] وأما الشخصية الغربية فهي غلوب باشا، الضابط

* - الأمين العام لجائزة الملك فيصل وأستاذ في جامعة الملك سعود.

(1) ولد في الموصل عام 1338هـ/1919م، وتخرّج من الكلية العسكرية سنة 1938، فعمل في سلاح الفرسان، وتخرّج من كلية الأردن عام 1948، ومن كلية الضباط الأقدمين في العراق عام 1954، ومن كلية الضباط الأقدمين في بريطانيا عام 1955. وكان عضواً في المجمع العلمي العراقي ومجمع اللغة العربية في القاهرة ومجمع اللغة العربية في دمشق؛ إضافة إلى عضويته في هيئات علمية أخرى، ومنها أنه كان رئيساً للجنة توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية التي اقترح توحيدها، حتى أخرجت المعجمات العسكرية الأربعة الموحدّة.

وقد ألّف عشرات الكتب؛ وبخاصة ذات الصبغة العسكرية، وفي طليعتها الرسول القائد، والفاروق القائد، وخالد بن الوليد، إضافة إلى سلسلة عن قادة الفتح من المسلمين. ومع اهتمامه بالتاريخ العسكري لدى المسلمين الأوائل اهتم بالأوضاع العسكرية العربية الحاضرة. فكان رائداً في تدريس العسكرية الصهيونية وكشف خططها ونواياها. وقد توقع نشوب الحرب بين العرب والصهاينة يوم 1967/6/5 وحذّر المسؤولين من ذلك، ونشر توقعه في اليوم الأول من ذلك الشهر. ثم أصدر آراءه حول تلك الحرب في كتابه الأيام الحاسمة قبل معركة المصير وبعدها، وذلك عام 1967.

البريطاني المشهور[1].

وقد جاء اختيار خطاب لأنه- وهو عراقي- ابن المنطقة التي خاض فيها، أو حولها، خالد بن الوليد المعارك المشهورة، ولأنه من ألمع الضباط العرب الذين كتبوا عن حروب المسلمين الأوائل المتمثّلة في مؤلفه الرسول القائد، وفي مؤلفاته التي أصدرها ضمن سلسلة قادة الفتح الإسلامي. ولقد أفرد كتاباً مستقلاً عن خالد بن الوليد يتكوّن من قرابة ثلاث مئة صفحة[2].

أما اختيار غلوب فلأنه كان أحد أركان بريطانيا العسكريين في العراق، ثم في الأردن، ولأنه اهتم كثيراً بدراسة الأرض التي دارت عليها معارك فتوح الشام، وألّف كتاباً عن مسيرة الأعمال الحربية العربية الإسلامية منذ عهد النبوّة، وسمّاه الفتوحات العربية الكبرى (The Great Arab Conquests)[3]. وقد تناول أدوار خالد بن الوليد ضمن هذا الكتاب.

ويمكن تقسيم الحديث عن أدوار خالد بن الوليد وفق المراحل الواضحة التي حدثت بها تلك الأدوار، وهي:

1-دوره قبل إسلامه.

2-دوره مسلماً في العهد النبوي.

3-دوره في حرب الردّة.

4-دوره في محاربة الفرس.

5-دوره في محاربة الروم.

1-دوره قبل إسلامه:

ينتمي خالد بن الوليد إلى بني مخزوم أحد فروع قريش العشرة المعروفة. وقد اشتهر بنو مخزوم قبل الإسلام بالقيام بأمر ذي صبغة حربية أو عسكرية؛ إذ كان لهم القبّة وأعنّة الخيل[4]. وما داموا قد قاموا بذلك الدور المهم فإن خالد بن الوليد المنتمي إليهم لم يكن مستغرباً عليه أن يقوم بالأدوار العظيمة التي قام بها. وازدادت مكانته سمواً- إضافة إلى ذلك الانتماء- بكونه ابناً لسيّد من سادات قريش وهو الوليد بن المغيرة، الذي كان يسمّى الوحيد وعظيم مكة لثرائه ومكانته

---

(1) ولد في بريطانيا عام 1897م وتوفي بها عام 1986. وقد عمل ضابطاً في المنطقة الجنوبية من العراق من عام 1920 إلى عام 1930. ثم استدعته الحكومة الأردنية ذلك العام فعمل لديها ستاً وعشرين سنة أسس خلالها حرس البادية، وتولّى، عام 1939، قيادة الجيش العربي، الذي اشترك في عمليات سنة 1941 في العراق، وحارب ضد قوات فيشي في سوريا، ثم مع الصهاينة عام 1948. وفي عام 1956. أعفي من منصبه، وأقام في بلده بريطانيا حيث تفرّغ للكتابة، وأصدر أكثر من سبعة عشر كتاباً؛ منها: جندي مع العرب، وبريطانيا والعرب، وحرب الصحراء، والفتوحات العربية الكبرى.

(2) صدرت الطبعة الثالثة في بيروت عام 1973م. وهو المعتمد هنا.

(3) صدر هذا الكتاب في لندن عام 1963م.

(4) حطاب، ص 53، كانوا يضربون قبّة يجمعون فيها ما يجهّز به الجيش، كما كانوا يتولّون قيادة الفرسان في المعارك.

الاجتماعية. ولم يشتغل خالد بجمع المال لأن الله قد جعل لأبيه "مالاً ممدوداً"؛ بل تفرَّغ لمزاولة الأمور العسكرية؛ تدرُّباً على فنون القتال، ثم قيادة للفرسان.

ولقد أبرزت المصادر اسم خالد بن الوليد أول مرَّة في معركة أحد، وهو في السابعة والعشرين من عمره. ويقول خطاب عما قام به خالد في تلك الغزوة: إنه كان قائداً لميمنة خيل قريش. وبعد أن رجحت كفة المسلمين في تلك المعركة فطن إلى انصراف أكثر الرماة الذين وضعهم النبيُّ، ﷺ، على مشرف من الأرض لحماية ظهور المسلمين. فهجم بمن معه من الفرسان على من بقوا في مكانهم وقتلوهم. وبذلك ضرب قوات المسلمين من الخلف على حين غرَّة منهم. ثم شنَّت قريش هجوماً على المسلمين من الأمام فطوَّقت قوات المشركين جيش المسلمين من جميع الجهات. ثم يقول: إن فضل انتصار المشركين على المسلمين في أحد يعود إلى قيادة خالد[1].

أما غلوب فيقول: إن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص اللذين كانا مع فرسان قريش– ولم يذكر أن خالداً كان على ميمنة الفرسان– قادا الخيَّالة ضد ميسرة جيش المسلمين فضربوهم من الخلف، وأربكتهم المفاجأة، فانهزموا[2].

وما كان إنجاز خالد في أحد إلا عاملاً زاد في رسوخ ثقته بإمكاناته وترسيخ ثقة قومه بقيادته. ولذلك لم يكن غريباً أن قاد كتيبة من فرسان المشركين محاولاً اقتحام الخندق، الذي حفره المسلمون حماية للمدينة أيام غزوة الأحزاب. ولما أخفقت محاولات المشركين، وانصرفوا منسحبين قام خالد مع عمرو بن العاص بحماية ساقتهم. ثم كان على رأس خيَّالة قريش الذين أرادوا أن يحولوا بين المسلمين ومكة في غزوة الحديبية[3].

2–دور خالد مسلماً في العهد النبوي:

عندما قدم خالد إلى النبي، ﷺ، في المدينة ليبايعه على الإسلام، وذلك في السنة الثامنة من الهجرة، قال له نبيُّ الهدى: "قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألاَّ يسلِّمك إلا إلى خير[4]." ثم أصبح موضع ثقته، وأنَّى لهذه الثقة أن تكون في غير موضعها؟ وقد كانت سيرة خالد تحت إدارة النبيِّ المصطفى أعظم برهان على ذلك.

في غزوة مؤتة:

كما كانت معركة أحد أول بروز لدور خالد فارساً عظيماً في جاهليته كانت معركة مؤتة أول ظهور لدوره فارساً قائداً في إسلامه. وكما كان إنجازه في أحد إنقاذاً للمشركين الذين كانوا على

(1) خطاب، ص ص 58-59.
(2) غلوب، ص 72 و91.
(3) خطاب، ص ص 60-62. لم يفرد غلوب خالداً بذكر في معركة الخندق.
(4) خطاب، ص 67.

وشــك الهــزيمة الكاملة كان إنجازه في مؤتة إنقاذاً للمسلمين الذين أصبحوا في موقف عصيب أمام جــيش الروم، الذي كان يفوقهم عدداً وعدّة، بعد أن استشهد قادتهم الثلاثة: زيد بن حارثة، ثم جعفر بــن أبــي طالــب، ثم عبد الله بن رواحة؛ واحداً بعد آخر. وذلك أن خالداً- بعد أن اتفق المسلمون المواجهــون لخطر فادح على توليه القيادة- تمكّن من مدافعة الروم حتى انصرف بالمسلمين؛ منقذاً لهم- بإرادة الله، من ذلك الخطر. فماذا فعل؟

يقــول خطــاب: قاتل حتى أظلم الليل، ثم غيَّر نظام جيشه، فجعل مقدَّمته ساقة وساقته مقدمة، وكذلــك فعــل بالميمنة والميسرة؛ ولحماية الانسحاب من ساحة المعركة نشر الساقة ليحتلّ فرسانها مســاحة شاسعة من الأرض، وأمرهم أن يحدثوا أصواتاً مرتفعة بما لديهم من أدوات حربية، وجعل الخــيل تدور بسرعة في دوائر ضيّقة لإثارة الغبار. وهذا ما جعل الروم لا يشعرون بانسحاب قوات القسم الأكبر من المسلمين ليلاً من جهة، ويعتقدون أن إمدادات قوية جاءتهم من جهة أخرى. لذلك لم يطاردوا المسلمين. وقاتلت الساقة- وعلى رأسها خالد- قتالاً بطولياً لتتخلّص من الاشتباك مع العدو. وعــاد بالمسلمين إلى المدينة بعد أن تركوا ثلاثة عشر شهيداً في ساحة المعركة، وهي خسائر طفيفة جــداً بالنســبة للخطر الداهم الذي أحدث بهم مما يُعدُّ خارقة عسكرية ومفخرة لقيادة خالد. ومن ذلك اليوم أطلق عليه الرسول، ﷺ، لقب سيف الله[1].

أما غلوب فقال عن ذلك: إن خالد بن الوليد، الذي كان مع الجيش كان أكثر خبرة في القيادة من زيد وجعفر، وإنه لما تولّى القيادة ساعة الانهزام نجح في كسب ثقة بقية المحاربين. وبانسحاب منظّم تمكنوا من ترك ميدان القتال[2].

في غزوة مكة:

إذا كــان خــالد قد ترك مكة لئلا يشهد قدوم الرسول، ﷺ، إليها في عمرة القضاء، أواخر السنة السابعة للهجرة، فإنه دخلها منشرح الصدر بإسلامه مع النبي المصطفى الذي جعله على ميمنة قوات المســلمين في غزوة فتحها في شهر رمضان من السنة الثامنة. وتنفيذاً لأمر المصطفى لم يقاتل خالد إلا مــن قاتلــه مــن قريش، فقتل منهم ثمانية وعشرين رجلاً، ثم انهزموا. وبعد خمسة أيام من فتح النبــي، ﷺ، لمكة أرسل خالداً في ثلاثين فارساً لهدم صنم العُزّى، فهدمها. ويعلّق الخطاب على تلك الحــوادث بقولــه: "إن تولي خالد واجب القائد[3] في غزوة الفتح دليل على ثقة الرسول، ﷺ، بكفاية قيادته، وتوليته مهمّة هدم العُزّى دليل على ثقته برسوخ عقيدته"[4].

---

(1) خطاب، ص ص 71-74.
(2) غلوب، ص 93.
(3) المراد قيادة ميمنة الجيش.
(4) خطاب، ص 76.

في يوم حنين:

كـان خالد على مقدمة المسلمين في مئة فارس من بني سُلَيم عندما زحفوا من مكة إلى الطائف لقـتال هوازن وثقيف[1]، وذلك في شوال من السنة الثامنة للهجرة. وانحدر المسلمون في وادي حنين قـبل انـبلاج الفجـر، فانهالـت علـيهم سهام المشركين الذين كانوا قد رصدوا لهم من كل جانب، وانكشـفت خـيل بني سُلَيم مولية، وتبعهم مسلمو الفتح من أهل مكة، ثم تبعهم الناس منهزمين. لكن الرسـول، ﷺ، ثبت مع قليل من أصحابه وأهل بيته، ثم تجمَّع المسلمون حوله وشنوا هجوماً مضاداً على المشركين، فانهزموا. وقد جرح خالد في ذلك الهجوم.

ويـرى خطـاب أن مقدمـة المسـلمين، بقيادة خالد، لم تقم بواجبها، الذي هو الحصول على المعلومـات عـن العدو حتى لا يباغت القسم الأكبر من الجيش؛ بل اندفعت إلى الأمام بسرعة قبل معرفة حقيقة موقف العدو في وادي حنين، فاندفعت وراءها قوات القسم الأكبر لاعتقادها أن اندفاعها آمـن[2]. ولعـلَّ من أسباب ذلك الاندفاع إعجاب بعض أفراد الجيش بكثرتهم، وقد ذكر الله ذلك في كتابه الكريم[3].

في غزوة الطائف:

بقـي خـالد برغم جراحه، قائداً لمقدمة الجيش. وفي طريقه إلى الطائف قاتل فلول المشركين. وكان بين قتلاهم امرأة. فلما مرَّ النبيّ، ﷺ، بها قال: من قتلها؟ قيل: خالد بن الوليد. فقال لبعض من معـه: أدرك خـالداً وقـل له: إن رسـول الله ينهاك أن تقتل امرأة أو وليداً أو عسيفاً. ولما حاصر المسلمون الطائف كان خالد ينادي: هل من مبارز؟ فلا يجيبه أحد[4].

في دومة الجندل:

يقـول خطاب: في أثناء مقام النبي، ﷺ، في تبوك (9هـ/630م) بعث خالد بن الوليد في أربع مـئة وعشـرين فارساً إلى أكيدر الكندي في دومة الجندل، فوجده في رحلة صيد فهاجمه، وأسره، وأجـاره عن القتل حتى يأتي به رسول الله، ﷺ، على أن يفتح له دومة الجندل، ففعل. وصالحه على 800 مـن السـبي، و2000 مـن الإبل و400 درع و400 رمح. ولما وصل أكيدر إلى النبي، ﷺ، صـالحه علـى الجـزية وكتـب له كتاب أمان[5]. أما غلوب فيكتفي بالقول: إن محمداً أرسل خالداً ليحضر حاكم دومة الجندل، وإنه توصل معه إلى صلح يشتمل على دفع جزية سنوية[6].

---

(1) خطاب، ص 79. على أن غلوب (ص 97) لم يفرد اسم خالد بقيادة.

(2) خطاب، ص 81. ويوافقه غلوب في ذكر ما حدث إلا أنه لم يذكر اسم خالد.

(3) آية 25، سورة التوبة.

(4) خطاب، ص 82.

(5) خطاب، ص ص 84-85.

(6) غلوب، ص 99. وأكثر الروايات تؤيِّد ما قاله.

3-دور خالد في حروب الردَّة:

من المعلوم أن أبا بكر، رضي الله عنه، أرسل أحد عشر قائداً لمحاربة المرتدين. وكان خالد بن الوليد أعظم قائد من هؤلاء تحقق على يديه القضاء على حركة الردَّة. وأهم أعماله قتاله لطليحة الأسدي، ومالك بن نويرة، ومسيلمة الكذاب. فما حديث خطاب وغلوب عن أعماله تلك؟

مع طليحة:

ذكر خطاب خروج أبي بكر من المدينة للتمويه بأنه سيقوم بغزو ضد المرتدين، وبعثه عدي بن حاتم الطائي إلى قومه قبل سير خالد إليهم، ونجاحه في إقناعهم بالتخلي عن محالفة طليحة. ثم قال: إن خالداً سار بمن معه ومن انضم إليه من طيئ وعددهم ألف راكب إلى طليحة في بُزاخة، وأرسل عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم طليعة لقواته، وعبّأ جيشه للقتال، فقالت له طيئ: نحن نكفيك قيساً فإن بني أسد حلفاؤنا، فقال: قاتلوا أي الطائفتين شئتم. إلا أن عدياً قال: لا أمتنع عن جهاد بني أسد لحلفهم. فقال له خالد: إن جهاد الفريقين جهاد. لا تخالف رأي أصحابك، وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط. ثم سار بجيشه، وتقاتل مع طليحة قتالاً شديداً. ولما رجحت كفة المسلمين هرب طليحة بامرأته. وبذلك قضى خالد على فتنة طليحة. وأدّى انتصاره عليه إلى عودة من تحالف مع بني أسد من القبائل المجاورة لها إلى الطاعة. ويعلّل خطاب انتصار خالد السريع بأسباب منها:

1-جهود أبي بكر بتوريته أنه خارج للقتال، وإرساله عدي بن حاتم الذي أقنع قومه بفك تحالفهم مع طليحة.

2-أن المسلمين كانوا يقاتلون واثقين بنصر الله.

3-انضمام طيئ إلى خالد.

4-إفساح المجال لطيئ لتقاتل قيساً كما أرادت.

ويدافع عن عدم مطاردة خالد للفارين من معركة بُزاخة بأن مطاردة القبائل البدوية غير ممكنة إلا في حدود معيّنة[1].

أما غلوب فيقول: إن خالداً انطلق إلى نجد بأربعة آلاف مقاتل لمحاربة بني أسد في بُزاخة. وفي طريقه إلى هناك خضعت له أكثرية طيئ. ولما بدأت المعركة انسحب عُيينة، رئيس غطفان، الذي كان مع طليحة، من الميدان، فانهزم بنو أسد. وانهزم طليحة مع أسرته إلى سوريا، وقد أدّى استسلام بني أسد إلى عودة بني سليم وهوازن إلى دفع الزكاة[2].

---

(1) خطاب، ص ص 94-97.

(2) غلوب، ص ص 110-111. لم يشر إلى المصدر الذي اعتمد عليه في عودة بني سليم وهوازن إلى دفع الزكاة. والذين ذكرهم أكثر المصادر عامر وغطفان.

مع مالك بن نويرة:

من المعروف تاريخياً أنه لم تقع معركة بين خالد ومالك، بل فرّق مالك أتباعه، وبثّ خالد سرايا تتعقّبهم، فأُتي إليه بمالك، ثم كان مآله القتل، وزواج خالد من امرأته. وقد ثار جدل حول هذا الموضوع. ويرى خطاب أن الروايات الموثوق بصحتها تسوّغ قتل مالك وتبرئ خالداً من دمه. فقد منع مالك الزكاة بعد وفاة النبي، ﷺ، وأغار على إبل الصدقة، وفرّق ما كان بيده منها، ووادع سجاح بنت الحارث التي ادّعت النبوة. وكل هذا يدل على ردّته. وكان خالد ممن اقتنع بأنه بقي مرتداً. أما زواج خالد من زوجة مالك فقد جرى بعد إكمالها العدّة. ولو كان أبو بكر مقتنعاً أن خالداً قتل مسلماً عمداً، ونزا على امرأته، لأقام عليه الحد، ولما ودى مالكاً من بيت المال دفعاً للشبهات على اعتبار أن خالداً تأوّل فأخطأ[1].

أما غلوب فيقول: إن مالكاً كان شجاعاً كريماً، كما كان شاعراً مشهوراً، وإنه لم يرد أن يخضع لخالد، فأمر أتباعه أن يتفرقوا، وانعزل مع أسرته في الصحراء. وقد فضّل خالد أن يتخذ موقفاً صارماً تجاهه، فبعث سرايا تطارد المتفرقين، وأسر مالكاً، ثم قتله ورفاقه صبراً. وفي خلال أربع وعشرين ساعة تزوّج خالد زوجة مالك. وهذا يدعو إلى بأنه قتله ليتزوج امرأته. وكثر المعترضون على ما فعل خالد، فاستقدمه أبو بكر إلى المدينة ليرى ما لديه فقال خالد: إنه لم يأمر بقتل مالك، وإنما حدث سوء فهم من قِبَل حراسه، فقتلوه. فقبل أبو بكر عذره، وأبقاه قائداً[2].

مع مسيلمة:

كان مسيلمة قد ادّعى النبوة في حياة النبي، ﷺ، وبقي مصراً على ادّعائه بعد وفاته. وتبعته أكثرية قومه بني حنيفة. وأرسل أبو بكر إليه عكرمة بن أبي جهل، ثم شرحبيل بن حسنة، للقضاء على فتنته. لكنهما لم ينجحا في ذلك. ثم وجّه إليه خالد بن الوليد بعد الفراغ من أمر مالك بن نويرة وطليحة الأسدي، وأمدّه بسليط الأنصاري ليكون ردءاً له من أن يؤتى من الخلف. ويلخص خطاب ما حدث وفق ما هو متداول في المصادر بقوله:

لما اقترب خالد من مسيلمة كان هو وجيش شرحبيل في المقدمة وعلى المجنبتين زيد بن الخطاب وأبو حذيفة. وقد هجم على مفرزة من بني حنيفة، بقيادة مجاعة بن مرارة، فأسرهم إلا مجاعة الذي استبقاه رهينة. ثم التقى الجمعان بعقرباء، واشتدّ القتال فانهزم المسلمون، لكنهم عادوا فاستقتلوا. وقال خالد: أيها الناس امتازوا لنعلم بلاء كل حيّ ولنعلم أين نؤتى. فامتازوا. لكن مسيلمة ثبت، فحمل عليه خالد فأدبر، وأدبر رجاله معه، والتجأ بنو حنيفة إلى حديقة الموت، فاقتحم عليهم حائطها البراء بن مالك حتى فتح المسلمون بابها، واقتتلوا مع الأعداء داخلها حتى أبادوهم بمن فيهم مسيلمة. ثم بثّ خالد خيّالته لمطاردة فلول المشركين، ونادى بالرحيل لمهاجمة الحصون. فقال له

---

(1) خطاب، ص ص 101-103.
(2) غلوب، ص ص 111-112.

مجاعــة: إنهــا مملوءة رجالاً، فهلمّ إلى الصلح على ما ورائي، فصالحه خالد على الفضة والذهب والســلاح ونصــف السبي أو ربعه. وكان عدد المسلمين ثلاثة عشر ألف مقاتل، وعدد أتباع مسيلمة حوالــي أربعيــن ألفاً. واستشهد من المسلمين ألفاً ومئتان؛ منهم خمس مئة من القراء. وقُتل من بني حنــيفة أربعــة عشر ألفاً. وهذا من أروع الانتصارات، ويرجع خطاب انتصار المسلمين إلى أسباب هــي: أمــر خالد لرجاله بأن يمتازوا، مما أدّى إلى تنافسهم في القتال، ووقوفه بين الصفوف يطلب المــبارزة ممــا رفــع معنوياتهم، واستقتال أهل النجدة والعقيدة الراسخة من المهاجرين والأنصار؛ خاصة القراء[1].

أمــا غلــوب فــيورد تقريباً ما أورده خطاب من إجراءات قبل المعركة بين خالد ومسيلمة. ثم يقــول: بــدأ بنو حنيفة المعركة بضراوة حتى هزموا المسلمين، لكن المسلمين عادوا، واشتد القتال، فقتل زيد بن الخطاب حامل راية المهاجرين. وزاد الأمر سوءاً أن الريح الجنوبية الحارة كانت تهبُّ فــي وجــوه المسلمين. ومع هذا استبسلوا حتى بدأ بنو حنيفة ينسحبون، والتجأوا إلى حديقة الموت. فاقــتحم علــيهم بابها البراء بن مالك وأبو دجانة الذي استشهد بعد بضع دقائق، لكن البراء تمكّن من فــتح الباب، فاندفع إلى داخلها المسلمون. ودارت بين الطرفين معركة عنيفة جداً حتى أبيد من كانوا داخل الحديقة من بني حنيفة. وكانت خسائر المسلمين، التي بلغت 1200 قتيل، أعلى من أي معركة خاضــوها مــن قــبل[2]. ثم أرسل خالد قواته إلى حَجْر قاعدة مسيلمة، وبعث مجاعة إلى من فيها ليستســلموا. واصــطلح أخيراً معهم على أن يسلموا إليه أسلحتهم وما لديهم من ذهب وفضة، وبيع آلاف من الأسرى[3].

4-دور خالد في محاربة الفرس:

يــرجّح خطــاب أن خالد بن الوليد- بعد قضائه على ردّة بني حنيفة- قدم إلى المدينة لأن أمراً كحــرب الفــرس يتطلّب مقابلته لأبي بكر. ثم سيَّره أبو بكر إلى العراق، فانطلق ومعه أربعة آلاف مقاتل، ثم انضم إليه في الطريق خمس مئة من طيئ وغيرهم. ويرجّح، أيضاً، أن خالداً دخل العراق من جهة منطقة البصرة لأن قوات المثنّى بن حارثة كانت تقاتل في تلك المنطقة؛ وهي القوة الرئيسية التــي قاتلت في العراق، ولأن قوات خالد الأصلية كانت في اليمامة الأقرب إلى المنطقة المذكورة، ولأن أبــا بكــر أمــره أن يبدأ بالأبُلّة، ولأنه لا يمكن البدء بالحيرة- كما ظن البعض- وترك قوات معادية في الجنوب[4].

أما غلوب فيذكر العوامل التي شجّعت على بدء المسلمين بمحاربة كلٍّ من الفرس والروم. ومن

---

(1) خطاب، ص ص 104-109.

(2) غلوب، ص 113. على أنه يرى أن أعداد القتلى من الطرفين، التي أوردتها المصادر، تبدو غير دقيقة.

(3) المرجع نفسه، ص ص 113-114.

(4) خطاب، ص ص 113.115.

أهم تلك العوامل أن عرب الجزيرة وُحّدوا تحت سلطة قادرة على تنفيذ أوامرها، وأن كلاً من حكام الفرس والروم أنهوا اعتمادهم على العرب لحماية حدودهم وحاولوا أن يدافعوا عنها بأنفسهم، فلم يعد أولئك العرب أنصاراً لهم، وأن الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية قد أنهكتهما حربهما التي استمرت قرابة عشرين عاماً. ثم يقول: بعد معركة اليمامة انضم أكثر بني بكر، بقيادة المثنّى بن حارثة الشيباني، إلى المسلمين. ومن المحتمل أن المثنّى جمع بين ألفين وثلاثة آلاف مقاتل. ولأنه لم يكن قد بقي مع خالد إلا خمس مئة رجل فإن أول جيش من المسلمين قاتل الفرس في العراق بدأ بحوالي ثلاثة آلاف وخمس مئة مقاتل. ويبدو أن الحفر كان نقطة التجمُّع. فتقدّموا صوب العراق حيث واجهوا قوة فارسية في كاظمة بين مدينتي الكويت والبصرة الحاليتين، فهزموها. ثم تقدّم خالد إلى الأُبُلّة، لكن سكانها تفادوا هجومه عليها بالاتفاق معه على أن يدفعوا جزية إليه[1].

وبعد أن وصل خالد ومن معه إلى الأُبُلّة فرّق جنده -كما يقول خطاب- إلى ثلاث فرق. وكان على مقدمته المثنّى بن حارثة، وبعده عدي بن حاتم، ثم خالد بنفسه. وقصد الجميع الحفير، فسبقهم إليها هرمز، واتّخذ تشكيلات القتال، واقترن رجاله بالسلاسل لئلا يفروا، ودعا خالداً للمبارزة مبيّتاً الخيانة، وتبارزا فاحتضنه خالد، لكن حامية هرمز حملت غدراً على خالد. فما شغله ذلك عن قتل هرمز فانهزم الفرس وطاردهم المسلمون إلى الليل. ثم اجتمعت فلول جيش هرمز، مع قوات أرسلت إليه بقيادة قارن، وتقابلت مع المسلمين في المذار حيث قُتل قارن كما قُتل آلاف من الفرس. ثم تقابل الفرس مع المسلمين في الولَجة. وكان خالد قد وضع للفرس كميناً، فأصبحوا مطوّقين من كل الجهات، فانهارت مقاومتهم، وهرب قائدهم فمات عطشاً[2]. وحديث خطاب عن الحوادث السابقة أقرب إلى السرد التاريخي منه إلى التحليل العسكري.

أما غلوب فيقول عن تلك الحوادث: بعد ما حدث في الأُبُلّة أصبحت لدى العرب شجاعة كافية ليعبروا الفرات ويحاربوا في الولَجة. لكن لما علموا أن العدو جمع قوات لمحاربتهم عبر خالد بسرعة إلى الصحراء. ثم يقول: إن مفتاح انتصارات العرب الأولى على الفرس والروم تعود إلى أنهم كانوا يستطيعون أن يتحركوا في الصحراء. وهذا ما فعله خالد حيث يبدو أنه لما عبر النهر عائداً وصله مدد من بني تميم بقيادة القعقاع بن عمرو[3].

ويقول خطاب: بعد ذلك دارت معركة في أُلّيس بين المسلمين، بقيادة خالد بن الوليد، ومن اجتمع هناك من نصارى بكر بن وائل والفرس. ثم يقول: إن خالداً برز أمام الصف ينادي قادة النصارى للمبارزة فما خرج إليه واحد منهم إلا قتله بسرعة وضيَّق الخناق على الفرس حتى انهزموا. وقتل من استأسر من أعدائه ورماهم في النهر حتى سُمّي نهر الدم. ثم غنم من بلدة أمغشيا

---

(1) غلوب، ص ص 124-126.
(2) خطاب، ص ص 115-118.
(3) غلوب، ص ص 115-118.

أموالاً عظيمة[1].

أمـــا غلـــوب فيقول: إن معركة دارت في أُلَّيْس بين خالد وأعدائه الذين كان أكثرهم من العرب تحـــت قـــيادة فارسي. وكانت أعنف من أي معركة قبلها، لكن المسلمين انتصروا في نهايتها، وأمر خـــالد بقـــتل جميع الأسرى. ونتيجة لذلك سُمِّيت تلك المعركة نهر الدم. على أن خالداً ومن معه لم يتعرَّضوا للمزارعين، بل اكتفوا بأخذ الجزية منهم[2].

وعـــندما تحدَّث خطاب عن معركة الحيرة، التي أعقبت ما سبق ذكره، قال: إن صاحب الحيرة قـــدَّر أن خـــالداً سيركب إليه نهر الفرات، فأمر ابنه بسدِّ قناطره ليعوق سير السفن، ثم عسكر خارج الـــبلدة. فـــتعجَّل خـــالد في جريدة من الخيل وباغت ابن صاحب الحيرة، فقتله، وأعاد سدود القناطر فســـارت سفن المسلمين، وقصد خالد الحيرة، فوجد أهلها متحصّنين فيها وقد فرّ صاحبها بعد أن علم بمقـــتل ابنه وموت ملك الفرس. وبعد قتال مع أهل قصور الحيرة اختاروا أن يدفعوا الجزية، وعقد معهم معاهدة. وبذلك فتحت الحيرة أبوابها صلحاً، وجعلها خالد مقراً لقيادته[3].

أما غلوب فيقول: إن العرب في نشوة انتصارهم اندفعوا إلى الحيرة، وعندما اقتربوا منها هرب حاكمهـــا الفارســـي إلـــى المدائن. وكانت الحيرة محاطة بأسوار لا قِبَل للعرب بالتعامل معها. لكن أكثرية سكانها كانوا عرباً، وكانت القبائل التي حولها منبهرة بانتصار خالد في أُلَّيْس. فأصبح سكانها ســـعداء بالتوصـــل إلـــى اتفاق مع خالد؛ وبخاصة أن المال المطلوب كان قليلاً بالنسبة لمدينة غنية. ومقابل ذلك تعهَّد المسلمون بحمايتها[4].

ويســـرد خطـــاب مـــا حدث لخالد بعد دخول الحيرة تحت حكم المسلمين؛ بداية باستيلائه على الأنـــبار، التي اقتحم الخندق المحيط بها بنحر الضعيف من الإبل وردمه بها، ثم باستيلائه على عين التمر، التي هرب من كان فيها من العجم واستسلم له العرب فقتلهم، ثم في ذهابه إلى دومة الجندل- بأمر من أبي بكر- مدداً لعياض بن غنم، وما حدث من هزيمته لمن خرج من أهلها لقتاله، واقتحامه حصـــنها وقـــتله الأســـرى مـــنها إلا بني كلب الذين سبق أن أمَّنهم بنو تميم بقيادة عاصم بن عمرو والأقـــرع بن حابس، وإقامته فترة فيها، وردّه الأقرع إلى الأنبار، ثم مهاجمته لبعض بني تغلب في الثني والزميل وقتله لفئات من بني تغلب هناك[5].

أما غلوب فيذكر أن خالداً بعد استيلائه على الحيرة سارع إلى مواصلة القتال، فحاصر الأنبار، التي تحدّها الصحراء من الشمال والغرب. وكانت محاطة بأسوار وخندق ردم خالد جزءاً منه بنحر ضـــعيف الإبل ورميها فيه، ثم هاجمها. وبعد ذلك هاجم فئات من تغلب وغيرها في عين التمر حتى

---

[1] خطاب، ص ص 119-120.

[2] غلوب، ص 128.

[3] خطاب، ص ص 120-122.

[4] غلوب، ص 128.

[5] خطاب، ص ص 122-127.

اختفوا، واحتلَّ البلدة، فقتل رجال حاميتها صبراً، وقسم النساء والأطفال سبياً بين المسلمين[1].

وهكـذا أنهـى كـلٌّ من المؤلفين الحديث عن دور خالد في محاربة الفرس بالعراق. وكما هو متوقع سوّغ خطاب بعض أعماله في حين رأى فيها غلوب قسوة.

5-دور خالد في محاربة الروم:

يرى خطاب أن كون خالد بن الوليد قائداً متفوقاً جعل أبا بكر ينقله من العراق إلى الشام بعد أن حشـد الروم قوات كبيرة لصدّ المسلمين عن فتحها، وعجز قادة الجيوش الإسلامية هناك عن معالجة الموقـف. ويـرى أن الخلـيفة جعله قائداً عاماً لتلك الجيوش، وأنه سلك أقصر طريق لا توجد فيه مقاومـة كبيرة؛ وهو طريق الحيرة- دومة الجندل- وادي السرحان- إلى قراقر[2]. وهناك استشار أصـحابه فـي الطريق التي يسلكها، فأجابوه أن الطريق غير مناسبة للجيوش لقلة موارد الماء فيها. ولـم يوافقـه على نهجه إلا رافع بن عمير الطائي على تهيُّب. فأمر خالد أصحابه أن يستكثروا من المـاء، وأمـر أهل الخيل أن يعدُّوا الماء الذي يسقيها، وجمع عدداً من الإبل السمان ثم أسقاها، فشدّ مشافرها لئلا تجتر. وانطلق بالمسلمين. يشربون مما معهم من الماء، ثم يشقون بطون عدد من الإبل ويسـقون الخـيل من الماء الذي فيها حتى وصلوا إلى بلدة سُوى بعد خمسة أيام، فأذعن أهلها لخالد الذي فاجأهم، ثم سلَّم له أهل تدمر بعد مقاومة لا تذكر، ثم وصل إلى قصم فصالح أهلها من قضاعة، ثـم انحـدر مـنها إلى أذرعات، وأغار على غسَّان بمرج راهط، ثم نزل على بصرى، ثم سار إلى اليرموك[3].

أمـا غلـوب فيرى أن القيادة الإسلامية في المدينة كانت مهتمة بجبهة الروم في الشام أكثر من اهـتمامها بجـبهة الفـرس فـي العراق؛ وذلك لرسوخ علاقات الشام بقريش، التي كان قادة الدولة والجيوش الأولى منها. وعندما رأى أبو بكر تطوُّر موقف جيوشه في هذه البلاد أمر خالد بن الوليد، الـذي كـان يثق بقيادته كل الثقة، أن يتوجه من العراق إلى الشام. ويرى أن خالداً انطلق من عين الـتمر إلـى دومة الجندل. وبعد أن قضى على قادتها، الذين وقفوا ضد الإسلام، عيَّن عليها حاكماً مسـلماً، ثم انطلق منها باتجاه الشمال الغربي إلى وادي السرحان حيث أصبح على مسافة خمسة أيام من قوات المسلمين في الأردن. لكنه لم يتجه إليها لأنها كانت أمام جيش بيزنطي متمركز في مضيق قـرب بلدة درعا الحالية. وقرَّر أن ينفذ حركة التفاف واسعة فاتجه إلى قراقر. وقبل أن ينطلق اتخذ إجراء ما زال يستعمله البدو، وهو أنه ظمَّأ أعداداً من الإبل أياماً، ثم سقاها. وفي كل يوم كان ينحر عـدداً من تلك الإبل ويستخرج ما في بطونها من ماء. وأخيراً وصل إلى المورد، ثم واصل طريقه حيث فاجأ بلدة سوى، واستولى عليها. ثم فاجأ أهل تدمر واستولى عليها أيضاً. ثم اتجه جنوباً صوب

---

(1) غلوب، ص ص 130-131.
(2) خطاب، ص ص 132-134.
(3) خطاب، ص ص 134-135.

دمشــق. فعلم به العدو وناوشه في مرج راهط. ومن هناك واصل سيره جنوباً محاذياً لجبل حوران حتى وصل إلى جيش المسلمين عند درعا[1].

وهكذا يتضح أن حديث غلوب عن مسيرة خالد من العراق إلى الشام مشابه، في أغلبه، لحديث خطــاب. وكما تشابه حديثاهما عن تلك المسيرة تشابها، أيضاً، في تقديرهما لعدد القوات التي كانت مــع خــالد وهــو تســعة آلاف تقريباً[2]. وإن كان هذا التقدير، فيما يبدو، مبالغاً فيه. فماذا قالا بعد وصوله اليرموك؟

يقــول خطاب: بدأ خالد يعدّ جيشه للقتال في تعبئة لم يعرفها العرب من قبل؛ إذ نظّم الجيش في ستة وثلاثين كردوساً. ثم أقام على القلب أبا عبيدة بن الجراح، وجعل على الميمنة عمرو بن العاص وفــيها شــرحبيل بن حسنة، وجعل على الميسرة يزيد ابن أبي سفيان، وأمر مجنبتي القلب- وفيهما عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو- أن ينشبا القتال، والتحم الطرفان. وإنهم على ذلك إذ وصل إلــيه صاحب البريد من المدينة وأخبره بوفاة أبي بكر وعزله وتأمير أبي عبيدة، فأخفى الأمر خشية أن يؤثــر فــي معنويات الجند. وحمل الروم، فأزالوا المسلمين عن مواقفهم، فقاتل خالد قتالاً شديداً حــتى أصــبح بين خيل الروم ومشاتهم، فخرجت خيلهم تشتد في الصحراء وتركوا مشاتهم يقاومون وحدهــم شــدَّة الهجوم مما سهّل على المسلمين القضاء عليهم، فانهزم الروم، وأصبح خالد وهو في رواق قــائدهم. وطــاردهم المسلمون حتى أبواب دمشق. ثم عادوا إلى اليرموك، وأصبح أبو عبيدة قائدهم العام[3].

أمــا غلــوب فــيؤكد أن المسلمين كانوا يواجهون تحدّياً كبيراً من جيش الروم القوي المدرَّب المكــتمل التجهــيز. لكــنهم بعد مؤتة لم يخسروا معركة مع الروم لأنهم كانوا يتمتّعون بالصلابة، ولغــياب القيود الإدارية لديهم مما أعطاهم حريّة حركة أكثر من عدوهم. على أن انتصاراتهم تعود بالدرجــة الأولــى إلــى معــنوياتهم العالية التي غرستها العقيدة في نفوسهم بأن من يقتل منهم فله الجــنة[4]. ثــم يقــول: "إن تقارير المصادر عن الحرب التي دارت في سورية بين العرب والروم مربكة. وبمحض الصدفة اكتشفت ما يبدو لي أن المفتاح لفهم حملات العرب في سورية وهو الممرّ الواقــع بين نهر اليرموك وجبل الدروز (العرب) في درعا. وبعد أن يصف المكان الذي تصوَّر أنه كان ميدان المعرك قال: كان تكتيك المسلمين أن يهاجموا العدو بسرعة ثم يتراجعوا ليقطعوا خطوط مواصلاته. وكان الجيش البيزنطي البطيء الحركة غير قادر على التعامل مع ذلك التكتيك.

ولذلــك عمد قادته- كما فعل الجيش البريطاني سنة 1941- بإقامة معسكر محصَّن بين مضيق

(1) غلوب، ص ص 131-134. ويرى (ص 136) أن خالداً لقي مقاومة شديدة في مرج راهط ولولا ذلك لاقترب أكثر من دمشق ليجبر البيزنطيين على الانسحاب من درعا.

(2) خطاب، ص 138 وغلوب، ص 134.

(3) خطاب، ص ص 140-143.

(4) غلوب، ص ص 139-140.

اليرموك وطبقات الحرار. وكان في قدرة العرب، أحياناً، أن يغيروا على أطراف المعسكر، وينسحبوا؛ لقد فقدهم للعلم العسكري جعل من الصعب عليهم أن يهاجموه. وكان هرقل، فيما يبدو، واثقاً من أن قواته في اليرموك آمنة، ولذلك وجَّه جهوده ضد تقدُّم عمرو بن العاص في فلسطين معتقداً أنه لو انتصر عليه لاحتلَّ العقبة وهدَّد من هناك خطوط مواصلات المسلمين إلى المدينة مما سيدفعهم إلى الانسحاب من اليرموك. ولا شك أن القادة العرب في اليرموك قد علموا بتحرك القوة البيزنطية جنوباً إلى فلسطين، فوجدوا أنفسهم في موقف صعب؛ وبخاصة أن بينهم وبين قوات عمرو بن العاص منطقة جبلية باستثناء ممر عبر ضواحي مؤاب (الكرك)، فعبروه مسرعين، وصالحهم أهلها، ونزلوا عبر وادي عربة إلى بير السبع حيث يوجد عمرو بجيشه، وكسبوا السباق إلى الميدان. ودارت هناك معركة أجنادين، فهُزِم البيزنطيون هزيمة ساحقة. وكان خالد بن الوليد قائد تلك المعركة التي قُتِل فيها عكرمة بن أبي جهل، والتي أبطلت استراتيجية هرقل في هجومه المضاد. ثم عادت قوات المسلمين الرئيسية إلى اليرموك التي بقي فيها الجيش البيزنطي الوحيد في الميدان. ومرة أخرى واجه المسلمون بمعنوياتهم المرتفعة بعد أجنادين البيزنطيين الذين انهارت معنوياتهم بعد تلك المعركة. وعند بداية سبتمبر من سنة *634*م[1] (*13*هـ) أجبروهم على الانسحاب، وانفتحت أبواب سورية أمام المسلمين، وكان قائدهم العام في المعركة خالد بن الوليد. وفي أثناء المعركة التي دامت أياماً تسلَّم أبو عبيدة رسالة من المدينة تفيد بموت أبي بكر، كما تسلَّم رسالة من عمر بن الخطاب بعزل خالد عن القيادة العامة وتوليته إياها. لكن أبا عبيدة أخفى ذلك حتى تحقق النصر بقيادة خالد[2]. ولعلَّ من أوضح المسائل التي اختلف فيها الكاتبان مسألة من استلم رسالة عزل خالد وتولية أبي عبيدة. فخطاب يرى أن خالداً هو الذي استلمها في حين يرى غلوب أن الذي استلمها أبو عبيدة. وماذا بعد اليرموك؟

يقول خطاب: إن جيش المسلمين تقدَّم صوب دمشق وفي مقدمته خالد بن الوليد، ولما حاصروها كان أبو عبيدة على ناحية، وخالد على ناحية، وعمرو بن العاص على ناحية. ودام الحصار سبعين ليلة. وكان خالد لا يبيت إلا على تعبئة. وذات ليلة علم أن أهل دمشق لديهم حفلة بمولود بطريقهم، فانتهز الفرصة، وتسلَّق بأتباعه السور من جهة باب المدينة الشرقي، واقتحمها. وفزع من فيها، فقصدوا أبا عبيدة، وصالحوه وفتحوا له الباب الذي في ناحيته. وهكذا دخل خالد البلدة عنوة، ودخلها أبو عبيدة صلحاً، وأجريت ناحية خالد مجرى الصلح[3].

أما غلوب فيقول: إن المسلمين بعد اليرموك تقدَّموا عبر حوران إلى دمشق. وكان الروم قد أرسلوا قسماً من قواتهم إلى فحل ليقطعوا خطوط مواصلاتهم. لذلك قرَّر قادة المسلمين حامية تلك الخطوط بحصار تلك البلدة في بداية سنة *635*م (ذي القعدة *13*هـ). واضطر أهلها إلى الاستسلام

---

[1] كانت وفاة أبي بكر في 23 آب (أغسطس) 634م.

[2] غلوب، ص ص 140-146 و150-151.

[3] خطاب، ص ص 143-145.

علـى أن يدفعوا الجزية. وواصل المسلمون تقدُّمهم، بقيادة أبي عبيدة، حتى وصلُوا أبواب دمشق في أواسـط مـارس 635م (محرم 14هـ). وقد بقي خالد قائداً للقوات التي قدم بها من العراق. وهكذا أصـبح جيش المسلمين أربع فرق مع كون قيادته العامة لأبي عبيدة. وعسكر خالد مع خمسة آلاف مـن رجالـه خارج بوابة دمشق الشرقية، وأبو عبيدة في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة، والقادة الآخـرون فـي أمكنة أخرى. واستمر الحصار حتى أواخر الصيف. ويبدو أن اتصالات حدثت بين خـالد وبطْريق دمشق، الذي كان مذهبه مخالفاً للمذهب الذي عليه قادة الروم. وقد أخبر خالداً بالليلة التـي سيكون فيها احتفال، وستكون الجهة التي أمام معسكره غير محروسة تقريباً. فتسلّق رجال من جـند خـالد السور، وقتلوا الحارسين اللذين عند البوابة، وفتحوها. فدخل العرب المدينة قبل شروق الشـمس. وعـندما سـمع حاكمهـا الأصوات المفاجئة سارع إلى إرسال أحد رجاله إلى أبي عبيدة عارضـاً الاستسلام بصلح. ويبدو أن أبا عبيدة لم يكن يعلم بما قام به خالد. فلما تقابلا داخل المدينة أخبره بالصلح. وهكذا تم الاستيلاء على دمشق(1).

وبـالعودة إلـى خطاب نجده يذكر أن المسلمين بعد استيلائهم على دمشق سار بهم أبو عبيدة، وعلـى مقدمته خالد بن الوليد، إلى فِحل، التي كان أهلها قد قصدوا إلى بيسان وفجروا مياه منطقتها حـتى أصبحت موحلة. ثم هاجموا المسلمين، لكنهم انهزموا وأسلمتهم هزيمتهم إلى الوحل، فلم يفلت مـنهم إلا الشريد. ثم سار المسلمون إلى حمص فأرسل هرقل جيشاً بقيادة توذر نحو دمشق، وأردفه بآخـر بقيادة شنس مدداً لأهل حمص. واقتفى خالد توذر فلما نشبت المعركة بين جيشه وجيش يزيد بـن أبـي سـفيان طلع عليه خالد من خلفه. لذلك لم ينج من الروم إلا القليل. وقصد أبو عبيدة إلى حمـص، فطلـب أهلهـا الصلح وأجابهم المسلمون إلى ذلك، وبعد ذلك أرسل أبو عبيدة خالداً إلى قنسرين، فلما نزل بلدة الحاضر التقى بجيش رومي عليه ميناس، فقاتله وقتله بعد أن دافع عنه الروم دفاعاً شديداً.

وأرسـل أهـل الحاضـر إلى خالد أنهم عرب حُشروا كرهاً للحرب، فتركهم. وسار حتى نزل قنسـرين، وحاصر أهلها حتى طلبوا الصلح على مثل صلح حمص، فأبى إلا خرابها، وخرَّبها. فلما أبـاد خالد الروم في الحاضر وخرَّب قنسرين يئس هرقل من بقاء الشام تحت حكمه، فودَّعها بقوله: "عليك السلام يا سورية سلاماً لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومي إلا خائفاً"(2).

أمـا روايـة غلوب للأحداث فمختلفة. فهو يقول: إن فرق الجيش الإسلامي بعد الاستيلاء على دمشـق غادرتها. فعمرو بن العاص عاد إلى فلسطين، وحاصر القدس، وشرحبيل بن حسنة عاد إلى الأردن وسلَّمت له بيسان وطبرية، وأبو عبيدة تحرَّك شمالاً وسلَّمت له بعلبك وحمص وحماة، وخالد استقر في حمص. ويزيد بن أبي سفيان اتجه جنوباً وسلَّمت له مؤاب. وبقيت صور وصيدا وبيروت وطرابلس، كما بقيت القدس، في أيدي البيزنطيين. وراح الامبراطور البيزنطي يجمع قوات لاستعادة

(1) غلوب، ص ص 155-159.
(2) خطاب، ص ص 145-148.

ما فقده من بلاد الشام. وكان كثير من الذين جمعهم من الأرمن بقيادة بانس Baanes، وانضم إلى تلك القوات جبلة بن الأيهم أمير بني غسان. وتم إعداد ذلك الجيش في الشهور الأولى من عام 636م (15هـ). وكان أكبر جيش جمع في سوريا. وما إن تمَّ ذلك حتى ترك المسلمون كل المناطق التي سبق أن استولوا عليها، وعادوا إلى جنوب اليرموك، وتعقّبهم البيزنطيون فأعادوا احتلال ممر درعا، الذي سبق أن أجبروا على تركه قبل ثمانية عشر شهراً. على أن المسلمين ما لبثوا أن طوّقوهم من الشرق، وقطعوا خطوط مواصلاتهم. وإضافة إلى ذلك فإن الانقسامات بين الأرمن والإغريق داخل القوات البيزنطية كانت شديدة مما أضعف معنوياتها. وزاد موقفها حرجاً بمجيء إمدادات للمسلمين، ثم هبَّت رياح شديدة من الجنوب الشرقي، فاستغل المسلمون الفرصة وهاجموا البيزنطيين خلالها، وحطّموا الجسر الذي تمر به خطوط مواصلاتهم، وقضوا عليهم. وفي صباح اليوم التالي- الثاني والعشرين من أغسطس 636م (رجب 15هـ)- لم يعد الجيش، الذي قضى هرقل عاماً في إعداده، موجوداً. ولما سمع بذلك، وهو في أنطاكية أدرك أنه فقد سوريا إلى الأبد، ومضى عبر جبال طوروس متجهاً غرباً. وعاد أبو عبيدة متجهاً شمالاً، فأعاد احتلال دمشق وحمص وبعلبك وغيرها من المدن التي أخلاها المسلمون خلال هجوم البيزنطيين المضاد. وفي خريف عام 636م أصبحت كل سوريا تحت حكمهم[1].

ولعلَّ من المناسب أن يختتم الحديث عن خالد بما ذكره خطاب عن مزايا الجندي الممتاز التي يرى أن خالد بن الوليد كان يتحلّى بها كلها؛ وهي: العقيدة الراسخة، والضبط المتين، والعقلية المتزنة، والشجاعة الشخصية، والتدريب الجيد، والقابلية البدنية، والمعنويات العالية. وقد دلَّل على تحلّيه بتلك الصفات بمواقف واضحة من سيرة ذلك البطل، كما أورد ما قاله فيه النبي، ﷺ، وخليفتاه أبو بكر وعمر. فقد خاطبه النبي بقوله: "كنت أرجو لك عقلاً رجوت ألاّ يسلمك إلا إلى خير"، كما قال عنه: "إنه سيف من سيوف الله". وقال عنه أبو بكر: "لا أشيم سيفاً سلّه الله على الكافرين"، كما قال: "عجزت النساء أن يلدن مثل خالد". وقال: "والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد". وقال عمر: أمَّر خالد نفسه. يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني". وقال عنه عندما بلغه موته: "قد ثلم في الإسلام ثلمة لا ترتق". رضي الله عن أبي سليمان، ورحمه رحمة واسعة.

□□□

[1] غلوب، ص ص 159-160 و173.

أصداء خالد بن الوليد في الشعر العربي

محمود فاخوري*

معلوم ***أن تراثنا العربي والإسلامي عميق الجذور في التاريخ، حضارةً ومدنيّة وعمراناً وآثاراً، وعلوماً وآداباً، وأمجاداً وبطولات ملأت بنصاعتها بطون الكتب، وكانت كلها شواهد جليّة على تلك المآثر الجليلة التي كانت خيراً على أهلها وعلى الإنسانية جمعاء.***

ولا يستطيع الباحث أن يقف عند الجوانب المتألّقة كافةً في آنٍ معاً، وإنما يختار منها ما يحقق الغرض الذي يسعى إليه، ولا سيما الوقوف عند شخصيات عظيمة اقترن تاريخها ببطولات نادرة، وعبقرية فذة في العصور المتلاحقة التي خاض فيها العرب والمسلمون ملاحم خالدة ومعارك صعبة في فتوحهم وحروبهم المختلفة وتصدّيهم لأعدائهم من الروم والفرس وهم يسعون إلى الجهاد ونشر الإسلام وإعلاء رايته منذ عهد النبوة والخلافة الراشدة فما بعدها، مروراً بالحروب الصليبية، والتصدي للمغول والتتار ومن إليهم، ولمعت أسماء كان أصحابها موضع الإعجاب والتنويه، من أمثال سعد بن أبي وقاص، والمثنى بن حارثة، وهرثمة بن عرفجة، وطارق بن زياد، وموسى بن نصير، ويزيد بن مزْيَد الشيباني، وهرثمة بن أعْيَن، وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر بَيْبَرس وغيرهم، ويرد في سياق سيرهم حديث عن معارك ظافرة كالقادسية، وفتوح الأندلس وإفريقية وما وراء النهر وحطّين وعين جالوت، وعمّورية، والزلاّقة وما إليها.

ولا مراء أن خالد بن الوليد المخزومي القُرشي يُسلك في جملة أولئك العظماء الذين يزدهي بهم تاريخنا العربي والإسلامي حتى اليوم، فهو سيف الله، الفاتح الكبير، الذي لم يُقهر قطّ في أية معركة خاضها قائداً، والذي شهد مع مشركي قريش حروب الإسلام إلى عمرة الحديبية، وظهرت مقدرته أول مرة في معركة أحد عندما اغتنم فرصة انشغال المسلمين بجمع الغنائم، كما أخذ اسمه يتألق بعد دخوله في الإسلام منذ أن ولاه الرسول صلى الله عليه وسلم الخيل وهدْم بعض الأصنام، كاللات

* مدرّس في كلية الآداب بجامعة حلب.

والعـزّى، وكذلك توليةُ أبي بكر الصديق لخالد قيادة الجيش في حروب الرّدة، وما كان منه بعد ذلك فـي فتح الحيرة وجانب عظيم من العراق، واجتيازه الصحراء إلى بلاد الشام لمتابعة الفتوح هناك، ويقـترن اسـمه بالمعـارك التـي خاضها محارباً للفرس أولاً، ولا سيما "الوَلَجة" و "أُلَّيس" و "ذات السلاسـل" و "عين تمر" و "دومة الجندل" و "الفِراض"، ثم محارباً للروم في بلاد الشام سنة 13 هـ بعـد أن كانت مواقعه الخمس عشرة في العراق سنة 12 هـ غرّة في جبين تاريخه. وفي بلاد الشام بـدت عـبقرية خـالد فـي القـيادة وفي تعاونه مع القواد المسلمين الآخرين كيزيد بن أبي سفيان، وشُرَحْبيل بن حَسَنة، وعمرو بن العاص. وتأتي "اليرموك" في ذروة المعارك الخالدة التي يقترن بها اسـم خـالد بـن الوليد، إذ يتولى الفاروق عمر الخلافة بعد الصدّيق، ويُقيل خالداً من إمارة الجيش، ويولّـي مكانــه أبا عبيدة بن الجراح، ويتابع خالد الاشتراك في فتوح مدن بلاد الشام تحت راية أبي عبيدة، مثل دمشق، وغيرها. وتذكر خلال ذلك معركة يكون فيها لخالد أثر كبير وهي "الياقوصة" أو "الواقوصة".

يضـاف إلـى هـذا الجانب العسكري في حياة خالد جوانب أخرى جديرة بالإجلال والتقدير، كتوطـيد أركـان الدولة الإسلامية، وإقامة العدل في معاملة أهل البلدان المفتوحة، وأعمال العمران، فضـلاً عن الشمائل الذاتية لديه من سموّ خلقي، وشجاعة نفسية، وإنكار للذات، موقناً أن الرجال لا يقاسون بما يتولّون من أعمال، بل بما يحسنون القيام به من شرف ونَبالة، وما يعود نفعه على الأمة وإن تكلفوا فيه عنتاً، وواجهوا صعوبات تنوء بها الكواهل. وبقي هذا رأيه حتى وافاه الأجل سنة 21 هـ في خلافة الفاروق عمر الذي كانت له مواقف معروفة من خالد في مناسبات مختلفة.

وقـد كـان لهذا كله –من سيرة خالد، وأعماله، وتقلّباته، وسجاياه، وموقف عمر منه –أصداء مخـتلفة ومتفاوتة في الشعر العربي، وخصوصاً الشعر المعاصر، تبعاً للظروف والمناسبات، وتبعاً لسيرورة الأحداث والكوائن التي تلمّ بالعرب والمسلمين.

علـى أن نصـيب خالد في شعرنا القديم خاصة لم يكن وافراً، حتّى في أيام خالد نفسه، ذلك أن المسـلمين كانوا يخوضون المعارك في سبيل الله لأنهم "رجال الله" اتخذوا هذه العقيدة ديناً، ومن ثم توحدت كلمتهم على هذا الدين الذي بث فيهم أحاسيس ومشاعر سامية، ولم يخطر ببالهم أنهم يقاتلون أو يجـاهدون من أجل أفراد متمثلين في قوادهم وأمرائهم. ولهذا قلما نجد في شعر الفتوح ذكراً لأحد القـواد أو الأمـراء، بل يرد بدلاً من ذلك ذكر أسماء المعارك التي خاضوا غمارها، بضمير جمع المـتكلم، كقـول القعقاع بن عمرو يوم وقعة "الفِراض" التي انتصر فيها المسلمون بقيادة خالد على الفرس والروم وأحلافهم من بعض العرب:

لقيـنا "بالفِـراض" جمـوعَ رومٍ   وفُـرْسٍ غَمَّهـا طـولُ السّـلامِ

أبدْنـا جمعَهـم لمّـا التقيـنا   وبَيَّتْـنا بجمـعِ بنـي رزامِ

فمــا فتئتْ جنود السّلْم حتى ... رأينــا القــوم كالغنَم السَّوام(1)

وقد يتحدث الفارس الشاعر عن نفسه بضمير المتكلم وعن بلائه في الحرب، كقول شاعر يدعى "أبــا ليلى بن فدكي" في موقعة "الخنافس" إحدى المعارك الخمس عشرة التي خاضها خالد بن الوليد في العراق:

وقــالوا: مــا تـريد؟ فقلـت: أرمـي ... جموعــاً "بالخــنافس" بالخــيول

فدونكــم الخــيولَ، فألجمُوهــا ... إلــى قــومٍ بأســفلِ "ذي أُثــولِ(2)

ونصـيب خـالد وأعمالـه مـن شعراء عصره المصاحبينَ له قليل إذن، ومن ذلك مدحهم له وإشـادتهم بما قام به من حروب الردّة، كقول عبد الرحمن (الملقب بعبد عَمرو) بن مطرح الحنفي، من قصيدة قصيرة:

رأيــتُ المُحــارب لابــن الولــيد ... أذلَّ مـــن الفَقْــع بالقاعَـــهْ

فــيا بْــنَ الولــيد، وأنــت امــرؤٌ ... تقــاتِلُ مــن شــكَّ فــي الســاعَهْ

ومَــن مــنع الحــقَّ مــن مالــه ... ونفسُــك للــذلِّ مــناعَهْ

وكفّــاك: كــفٌ تَضـير العــدا ... وكــفٌ لمــن شــئتَ نفّاعــه

فمــا للــيمامةِ مــن ملجــأ ... ســوى السّــمع لله والطّاعــهْ(3)

والشاعر هنا يشيد بشجاعة خالد بن الوليد، وما يصيب أعداءه من الذلّ والمهانة عند لقائهم له، وهــو يقــاتل فــي ســبيل الله ولا يهادن الكفار ومانعي الزكاة، كما أنه يجمع بين صفتي الفتك في الأعداء، والكرم على من سالمه، وليس لأهل اليمامة المرتدّين أمام ذلك سوى السمع والطاعة.

ومن ذلك أيضاً قول الشاعر المخضرم الأَبّاء بن قيس الأسدي وكان في جيش خالد أيضاً خلال حروب الردة:

لــن يهــزمَ اللهُ قومــاً أنــت قــائدهم ... يــا بــنَ الولــيد، ولــن يشــقى بــك الدُّبرُ

(1) معجم البلدان، لياقوت الحموي، رسم "الفراض" وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرقيّ الفرات، أوقع فيها خالد بن الوليد بالروم وأحلافهم وقعة عظيمة.

(2) معجم البلدان، رسم "الخنافس" وهو موضع في طرف العراق قرب الأنبار. وكان أبو ليلى يومئذ أميراً من قبل خالد.. وذو أُثول: اسم موضع في تلك المناطق، له ذكرٌ في الفتوح.

(3) تهذيب تاريخ دمشق الكبير 106/5 والفَقْع من الكمْأة: أردأ أنواعها. والقاعة: القفْر، والأرض الواسعة السّهلة. واليمامة: منطقة واسعة، فيها قرى وحصون وعيون ونخيل، وكانت موطن المرتدّين من قوم مسيلمة الكذّاب.

كفّاك: كفٌّ عذابٌ عند سطوتها ... على العدوّ، وكفٌّ مرّةً غُفُر[1]

وقول الراجز محصن بن الحارث الأسدي، وكان مع خالد بن الوليد حين خرج من الحيرة متجهاً إلى الشام، كما أمره الخليفة أبو بكر الصديق، بعد أن استخلف المثنى بن حارثة على الحيرة، وكان خروج خالد في ثمانمئة من الرجال في شهر ربيع الآخر سنة 13 هـ. يقول محصن:

إذا رأيت خالداً مخفّفا ... وكان بين الأعجمَيْن أنصفا

في فَيْلَقٍ بالنقع قد تلحّفا ... وهبّت الرّيح شَمالاً حَرْجَفا

في حومة الموت إذا الموتُ هَفا ... لودَّ بعضُ القوم لو تخلّفا

ليس أخو الإسلام إلاّ من وفى[2]

وفي أثناء اجتياز خالد وجيشه تلك الصحراء مرّوا بموضع يقال له "البِشْر" فوجدوا فيه قوماً في مجلس خمرة، وبين أيديهم جفنة (وعاء كبير) وأحدهم يتغنى بهذه الأبيات:

ألا علّلاني قبل جيش أبي بكر ... لعلّ منايانا قريب وما ندري

ألا علّلاني بالزّجاج وكرّرا ... عليّ كُميتَ اللون صافيةً تجري

أظنّ خيول المسلمين، وخالداً ... سيطرُقكم قبل الصباح من "البِشْر"

فهل لكمُ في السّير قبل قتالهم ... وقبل خروج المُعْصِرات من الخدْر؟

فما هو إلا أن فرغ من إنشاده فشدّ عليه رجل من المسلمين بالسيف فضرب عنقه، فإذا رأسه في الجفنة، ثم أقبل على أهل "البِشر" فقتل منهم وأصاب من أموالهم[3].

وبين خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب مواقف معروفة، كان عمر يتتبّع فيها خالداً ويحاسبه على أفعاله وأقواله التي يرى هو أنها خرجت عن السَّنن الذي يتّفق والأدبيّات الإسلامية. ولا نريد أن نقف هنا عند الأسباب البعيدة لهذا التتبّع وتلك المحاسبة، وإن كان في بالنا ما روي من أنه "اصطرع عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد، وهما غلامان، وكان خالد ابن خال عمر، فكسر خالد ساق عمر، فعولجت وجُبرت، فكان ذلك سبب العداوة بينهما"[4]. وفي هذا السياق يُذكر أن عمر بلغه

---

[1] الإصابة، لابن حجر 109/1 و "من الضائع من معجم الشعراء" 13 الدُّبر: ضد القُبُل. ويروى: "ولن يسعى" والمعنى على الروايتين: لن تهزم أبداً، ولن تولّي الأعداء دُبرك.

[2] الأوائل للعسكري 17/2 وانظر تهذيب تاريخ دمشق 110/5 مخفّف: خفيف الحمل في السفر. والأعجمان: يعني الفرس والروم. وأنصف: بلغ نصف الطريق. الحرجف: الباردة جداً. هفا: أسرع.

[3] عيون الأخبار 143/1 وانظر الأوائل 17/2 المُعصِرات: الفتيات الشابّات.

[4] تهذيب تاريخ دمشق الكبير 112/5.

أن خالداً دخل الحمام فتدلّك بالنورة وبعصفرٍ معجون بخمر فكتب إليه عمر ينبّهه على سوء ما فعل، وأن الله حرّم ظاهر الخمر وباطنها، وأنها نجس لا ينبغي أن تمسّ الجسد. فكتب إليه خالد:

إنـــا قتلـــناها -أي مزجناها بالماء وغيره- فعادت غَسولاً غيرَ خمر، أي زالت عنها النجاسة. فكتب إليه عمر: إني لأظن أن آل المغيرة قد ابتُلوا بالجفاء، فلا أماتكم الله عليه. فقال خالد بن الوليد يخاطب عمر:

سـهّل أبـا حفـص، فـإن لدينـا   شـرائع لا يشـقى بهـن المسـهّلُ

أنجّسـتَ بالخمـر الغَسـولَ ولا يـرى   مـن الخمـر تثقيف المُحيلِ المحلّلُ

وهـل يُشـبهنْ طعمُ الغَسـولِ وذَوْقُهُ   حُمـيّا الخمـور، والخمـورُ تُسلْسَـلُ؟(1)

وفي هذا الخبر نقرأ تلك الأبيات الثلاثة التي تدل على أن خالداً كان ينظم الشعر، وهو مقلّ جداً في ذلك، شأنه شأن سائر الصحابة الذين كان الشعر يجري على ألسنتهم في بعض الأحيان كأبي بكر الصـديق، والفـاروق عمر وغيرهما. ومن شعر خالد أيضاً رجز قاله حين قام بهدم صنم "العُزّى" فكان يقول وهو مجرّد سيفه:

يـا عُـزّ كُفْـرانَكِ لا سـبحانَكِ   إنـي وجـدتُ اللهَ قـد أهـانَكِ(2)

وممـا يجـدر ذكره حقاً أن خالداً حين شعر بدنوّ أجله أوصى إلى عمر بنَ الخطاب على ماله وأطفاله بعد موته، وقال عمر حين علم بموته: ما على نساء قريش أن يبكين أبا سليمان... ومما قاله أيضـاً: هل قامت النساء عن مثل خالد؟ وكان يقول لمّا مات خالد: قد ثُلِمَ في الإسلام ثُلمةٌ لا تُرتَق، ولئن ندمت على ما كان مني إليه(3).

وسارت في جنازة خالد امرأة محتزِمة -قيل: هي أمّه- كانت تبكيه وتندبه وتقول:

أنـت خيـرٌ مـن ألـفِ ألـفٍ مـن النا   س إذا مـا كبَّـتْ وجـوهُ الـرجال

أشـجاعٌ؟ فأنـت أشـجع مـن لَـيْـ   ـثِ عريـنٍ جهـمٍ إلـى الأشـبال

أجَـوادٌ؟ فأنـت أجـود مـن سَـيْـ   ـلِ دِيـاسٍ يسـيلُ بيـن الجـبالِ(4)

تلـك هي أصداء خالد بن الوليد في الشعر القديم الذي قيل في عصره حتى وفاته سنة 21 هـ في خلافة الفاروق عمر الذي توفي بعد سنتين تقريباً من وفاة خالد. وقد يكون هناك أبيات قليلة جداً

(1) تهذيب تاريخ دمشق الكبير 5/110-111 والنُورة: خليط يستعمل لإزالة الشعر.

(2) تهذيب تاريخ دمشق الكبير 5/101 وقوله: "يا عزّ" منادى مرخّم، أصله: يا عُزّى.

(3) المصدر نفسه 5/97، 114.

(4) المصدر نفسه 5/114 والدياس: مصدر داس الشيء: وطِئه، وفلاناً: أذلّه- والمراد غزارة السيل وتدفقه. وربما كانت مَحرّفة عن "رِياس" بالراء وهو السيل الذي يجمع الغثاء ثم يحتمله.

لا تخــرج عمّــا وقفنا عنده من ذلك الشعر، ضربنا صفحاً عنها. وذلك الشعر كله قيل في أيام عزّ العــرب والمســلمين، وقوة دولتهم وتوطيد أركانها في التوسع والفتوح والاستقرار. ومرّت بعد ذلك قــرون وأجــيال تعرّضــت فــيها تلك الدولة لهزّات عنيفة وأزمات صعبة، وكان يظهر خلال ذلك شخصــيات عظــيمة تعــيد التوازن، وترأب الصدع، وتجمع شمل الأمة بعد تمزق، لتقف في وجه الأعــداء والمغيريــن الطامعيــن كالمغول والتتار والصليبيين في المشرق، والإسبان الشماليين في الأندلــس، وظهر قوّاد أبطال وزعماء أفذاذ اقترنت أسماؤهم بمن سبقهم من أندادهم العظام من أمثال ســيف الدولة، ونور الدين الزنكي، الملقب بالشهيد، وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر بَيْبَرْس ويوسف ابــن تاشــفين، فضــلاً عــن اشــتهار المعارك الظافرة التي أصبحت هي وأصحابها رموزاً سامية وأمــثولات للنضــال والدفاع عن الحمى، وصدّ الطامعين المعتدين، وسارت الركبان تشدو بحطّين، وعيــن جالوت، والزلاّقة مثلما تشدو باليرموك والقادسية وغيرها من الملاحم الخالدة التي يزهو بها تاريخــنا كمــا نــرفع بهــا رؤوسنا عاليات حتى هذا اليوم الذي تبدّلت فيه الأمور، وأصبح العرب والمسلمون في العصر الحديث مطلوبين بعد أن كانوا طالبين، وصاروا هدفاً يُرمى ولا يُخافُ بأسهم بعد أن كان يُحسب حسابُهم، وانقلب أمرهم من القوة إلى الضعف، ومن الوحدة والتماسك إلى التفرقة والــتخاذل، علــى كثرة عددهم، وأصبحوا يفتقرون إلى قادة عظماء يحيون أمجاد أسلافهم الشامخة، ويعــيدون بــناء صــرح الأمــة من جديد، أمام تكالب الاستعمار الغربي وأحلافه بأشكاله المختلفة، وأطمــاع الصــهيونية الإقليمــية والعالمــية، وما يصحب ذلك من الغزو الثقافي، والترويج للعولمة المسمومة، واغتصاب الأراضي والحقوق المشروعة في فلسطين وغيرها، وما إلى ذلك من صنوف التنكــيل والعــذاب والمضايقات التي يتعرض لها العرب والمسلمون، أفراداً وجماعات ودولاً، وما أحوجهــم فــي هذه الأيّام الصعبة، والظروف العصيبة إلى أن يستذكروا أبطالهم الميامين الذين بنوا للأمة مجدها، وصنعوا لنا تاريخاً نفتخر به، من جهة، ونستلهم منه كثيراً من الأفكار والمعاني والقيم مــن جهة أخرى، ومن ثم يلتقي الماضي والحاضر، ويجري إسقاط تلك المعاني والقِيَم على حاضرنا المعيش غير المشرّف، وتحديد معالم البطل المنشود في عصرنا الحاضر.

ومــن ثم كثر في الشعر المعاصر استحضار الشخصيات التاريخية التي حرّكت الجماهير وكان لهــا فــي عصرها شأن يذكر، في مختلف الميادين الإصلاحية والسياسية والعسكرية والقيادية، من أمــثال المتنبــي، وأبــي العلاء المعري، وصلاح الدين الأيوبي، وطارق بن زياد، وخالد بن الوليد، وذلــك لتأكــيد وجودنا، وتجسيد تطلعاتنا، ودعم كياننا، والأخذ بأيدي الأمة إلى نصر مؤزّر، وظفر قريب نحلم به.

وأصبح من المألوف في شعرنا الحديث أنْ يتوجه بالخطاب إلى إحدى تلك الشخصيات لتحريك الــنخوة العربــية والإســلامية لــدى الحكام ورعاياهم، بعد أن فقدت الثقة بمعظمهم، الذين تمسكوا بالكراســي والرياسات، واستعان فريق منهم على آخر بالأجنبي الطامع، كما كان الشأن في الأندلس قبل خروج العرب والمسلمين منها سنة 897هـ 1492م وهذا ما جعل الدول العظمى وحلفاءها من حولنا تتطاحن في سباقٍ نَهِمٍ وهي تحشد جيوشها المزوّدة بأفتك الأسلحة وأشدها خطورة، وتحاول أن

تفرض آراءها ومناهجها ومذاهبها السياسية والعلمية على المستضعفين في العالم، وتعمل بسوء نيّة، في الخفاء تارة، وفي العلانية تارة أخرى، لتحريك الفتن، وإشعال الحروب، عن طريق الترغيب أو الترهيب، وإغراءات المال والمساعدات التي تقدَّم تحت أسماء مختلفة، وتخفي تحتها مخططات فاجرة تسعى إلى اجتياح بلاد العروبة والإسلام، لأننا -في نظرهم- القوة التي تقف حجر عثرة في طريقهم، فراحت أدمغة رؤسائهم تستوحي خطط الحروب والدمار من فجّرة القواد وسفّاحي الشعوب الذين أغرقوا البشرية في بحارٍ من الدماء. وكل ذلك عاد بنا إلى معارك متعددة الجوانب، كثيرة التشابك والتعقيد، في مختلف البلاد العربية والإسلامية، وفي مقدمتها فلسطين والعدوان المبيّت على العراق. وحال العرب والمسلمين يدعو إلى الأسى، لما حلّ بهم من تمزق في الشمل. وتفرّق في الكلمة، وتقصير مفرط في الدفاع عن حقوقهم وفي كشف زيف ادّعاءات العدو المشترك عن طريق إعلام موحد، ومدروس، أمام الغربيين في الفضائيات والقنوات المتلفزة.

من هنا راح شعراؤنا الغُيُر يلوذون بالماضي الزاهر وما جاد به من قواد وأبطال غيّروا مجرى التاريخ، ويتوجهون إليهم بالخطاب الذي يوسم بأنه "حوار" مع فلان، أو "مرافعة" بين يدي فلان، أو "تداعيات" بين يديه، أو "فلان" وبعض القضايا المعاصرة. فضلاً عن عناوين أخرى موحية تنبع من التفاؤل تارة مثل: (موتٌ ميتٍ حياة، الفجر الزاحف، الغليان، الأعاصير..) والتشاؤم تارة أخرى: (الموت في شباب النهار، انكسارات الصهيل، الغربة في الزمن القارس، نداء الرّميم، رماد الهشيم...).

على أن هذه الظاهرة، ظاهرة استدعاء الشخصيات التراثية في شعرنا المعاصر، شاعت اليوم على نحو لم يعرفه شعرنا العربي من قبل، حتى أصبحت سمة بارزة في هذا الشعر. وساعد على ذلك أن التراث عندنا غني بمحتواه، وينبوع دائم العطاء، وأرض صلبة تصلح لأن يبني الشاعر المعاصر فوقها حاضره الجديد على أرسخ القواعد، وهو بعد ذلك حصن منيع يلجأ إليه كلما عصفت به العواصف، فيمنحه الأمن والسكينة[1].

فأما شخصية البطل خالد بن الوليد فقد كانت موضع اهتمام كثير من الشعراء المعاصرين، نظراً إلى أنه من أولئك القواد الكبار الذين قادوا جيوش الفتوح، وحققوا الانتصارات المجيدة، وهزّوا أعتى العروش الرومية والفارسية، وكانوا نماذج راقية للرجال الأفذاذ والعبقريات النادرة التي تدهش الألباب، وكانوا أيضاً ممن تباعدوا عن الظهور، ورغبوا في الشهادة الخالصة من الشهرة وطلب المغانم، فكانت حيواتهم مبعثاً لتجديد الهمم، والتذكير بالواجبات وفتح مجالات موصدة في مسالك الحياة لتحقيق الغايات المنشودة وتجسيد الآمال الناضرة[2].

هذا الغنى في حياة خالد وسيرته ملأ نفوس الشعراء هيبة وإجلالاً، وجعلهم يستلهمون مآثره وبطولاته وجلائل أعماله عسى أن يتجمع الشمل، ويرتفع لواء النهضة عالياً خفّاقاً، كما كان في

(1) انظر "استدعاء الشخصيات التراثية" ص 7.
(2) انظر "استدعاء الشخصيات التراثية" ص 159 و "خالد بن الوليد" لبكر موسى ص 7...

الماضي، وتتحقق الانتصارات المأمولة التي تضع حداً لمطامع الأعداء والكائدين، ولتخاذل الضعفاء مـن المؤيدين والقُرابى، وتتاح الفرص لظهور قادة موحّدي الكلمة ويعتمد عليهم في خوض المعارك المظفّرة، واستعادة السيادة الغائبة.

ولا شـك أن للشـعر سلطاناً كبيراً، يفوق سلطان التأريخ وروايات الأخباريين، في استنهاض الهمـم وتسجيل المواقف الخالدة، ونشر الوعي وتذكير الأجيال ببعض صفحات من سيرة البطل خالد ابـن الولـيد بوسـائل وطرائق شتى، تعتمد على التاريخ حيناً وعلى تحليل شخصية خالد حيناً آخر لإبـراز المفارقـة بيـن روح الجهـاد المتوقدة التي كانت تضطرم في حنايا خالد وعروقه، وروح الضـعف والخمول التي تسري في أوصال خلَفه. فضلاً عن كثير من الفضائل الخلقية والنفسية، من شـجاعة، ونجـدة، ومروءة، وحسن صحبة، وسرعة ملاحظة، وحضور بديهة، وصبرٍ في ساعات البأس، خلال حياته كلها.

وفـي تأملـنا لجمهرة ما قيل من الشعر العربي المعاصر، نجد لخالد بن الوليد ثلاثة أنواع من الأصـداء فـي مطـاوي ذلك الشعر وفي طرائق التناول، أمام تلك الشخصية الفذّة، إذ يختلف ذلك باخـتلاف الشعراء أنفسهم من جهة، وباختلاف الظروف والمناسبات والملابسات، حتى عند الشاعر الواحد، من جهة أخرى:

1) الصـدى الأول يأتي فيه ذكر خالد بإيجاز على أنه بطل تراثي عظيم **يحتفظ بمكانته السامية،** ويصبح مضرب مثل للبطولة العربية والإسلامية في مختلف المناسبات، لحفز الهمم إلى معالي الأمور. فهـذا أحمـد شوقي –الذي تربطه بالأتراك العثمانيين أسباب دينية ونَسَبيّة –يسمع بانتصار الأتراك في الحـرب والسياسة سنة 1922م بقيادة مصطفى كمال –قبل انقلابه الكبير على الحكم فيما بعد وتأسيس تركـيا الحديثـة– هذا شوقي ينظم قصيدة في تلك المناسبة التي انتهز فيها مصطفى كمال الخلاف بين الحلفاء فهجم على اليونانيين وطردهم من الأناضول، فيفتتحها شوقي بقوله:

الله أكـبر، كـم فـي الفتح من عجب ... يـا خـالد الـتُرك جـدّدْ خـالد العـرب

صُـلْحٌ عزيـز علـى حـربٍ مظفَّـرة ... فالسـيف في غمْدِه، والحقُ في النُصُب(1)

وفـي هـذه الحقـبة من التاريخ المعاصر تتوالى الأحداث على الوطن العربي، وتظهر أطماع الغربييـن علـى حقيقـتها، ويشـعر العرب والمسلمون بالخطر الداهم فيقفون في وجهه، ويوقظون الـنفوس الغافلـة، ويصبح اسم البطل خالد بن الوليد رمزاً للسمو، وقدوة للمناضلين الأحرار، فنسمع صـوت الشاعر السوري عمر يحيى وكان يعمل معلماً في البحرين سنة 1930– يلقي هناك قصيدة في ذكرى افتتاح النادي الأدبي، يقول فيها:

أيهـا الناشـد مجـداً تـالداً ... هـل تمشـيت علـى شـطّ "اللّـوار"؟

---

(1) *ديوان شوقي، تح. أحمد محمد الحوفي– القاهرة 1979، 306/1. أراد بخالد التُرك: مصطفى كمال، الذي لقب فيما بعد بأتاتورك.*

عنعنات الغرب لا تحفل بها ... فابنُ عبد الله للعرب شعارْ
ما تعلَّمنا، وهذا خالدٌ ... رافعَ المجدِ، بأن نرضى الصَّغار[1]

وشاعر مصري هو أحمد محرَّم يأسى لما آلت إليه حال العرب يومئذ، ويتحسر على ما فقدوه من موروث الإباء والنخوة والقوة، ويتمنى مخلصاً أن يدلّوه على رجل يقوم مقام خالد بن الوليد، يُزجي الصفوف ويحضّ الفرسان على الجهاد، ويقول بلهجة الواثق المطمئن، والمتفائل بالمستقبل المُشرق:

يا آل يعرب من يريني خالداً ... يزجي الخميس، ويستحثّ المِقْنبا
من شاء منكم فليكُنه، ولا يقُلْ: ... ذهب القديم، فإنه لن يذهبا
السرّ باقٍ، والزمانُ مجدّدٌ ... والسيفُ ما فقدَ المضاءَ ولا نَبَا[2]

أما عمر أبو ريشة فينظم في تلك الآونة 1935م قصيدة عنوانها "لمحة"، يرصد فيها قيام الدولة العربية الإسلامية منذ عصر النبوة، على الحب والوئام والرحمة، وهذا ما أثار غضب دولتي فارس والروم، وأدى إلى نشوب المعارك الضَّروس بين الطرفين، وفي مقدمتها اليرموك، وما فعله خالد بن الوليد وجيوشه من بطولات خارقة دفنت أحلام الروم بين أنقاض دولتهم المتهاوية:

وضفافُ اليرموك تُرسل منها ... زُمُزماتُ الحداء لابن الوليدِ
جولةٌ ترعف الصوارمُ فيها ... وتصيح الألوفُ: هل من مزيدِ؟
جولةٌ كفّنت بها الروم حلماً ... بين أنقاض صرحها المهدودِ

والذي يريد أن يصل إليه عمر أبو ريشة من هذا كله هو أن يقول:

وانتهت سيرة الجدود إلينا ... فجَررنا القيود إثر القيودِ
والتفتنا فلم نجد غير مُلكٍ ... مزّقته أصابعُ التبديدِ[3]

وهذا الهاجس لا يكاد يفارق شاعرنا هذا إذ نراه يقف وقفةً أخرى عند خالد وهو في ذروة موقعة اليرموك، حين ينظم أبو ريشة في منتصف القرن الماضي "العشرين" قصيدةً مطلعها:

مرابعَ الخُلد أضنى جفنيَ السّهرُ ... وملّني صاحباي: الكأسُ والوترُ

---

(1) ديوان "البراعم" لعمر يحيى، ص 113.

(2) الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث 256 محيلاً على ديوان أحمد محرم 210.

(3) ديوان عمر: "شعر أقدمه إلى الفن" ص 186، 189 وانظر شاهداً آخر ص 201 وكذلك "من عمر أبو ريشة – شعر" ص 127.

يضمّنها حبه للوطن وإشادته بالماضي التليد الحافل بالتضحيات والبطولات، ونقمته على الحاضر المشؤوم، وأساه للشرف المطعون. حتى يصل إلى اليرموك وفارسها الأغرّ خالد بن الوليد، وموقفه العظيم يوم عزله:

ملاحمُ التضحيات الغُرّ ما ذهبتْ ... ببكر روعتها الأيامُ والعُصُرُ
يا من رأى فارس اليرموك يخلفه ... أبو عبيدةَ، والهيجاءُ تستعرُ
فما أحسّ بجرحٍ في كرامته ... ولا ثَنى عزمَه حِقْدٌ ولا كَدر
فصاح في صحبه الأبرار مبتسماً ... والمجدُ في نشوة الإصغاء منغمرُ:
إنّا نُقاتل كي يرضى الجهادُ بنا ... ولا نقاتلُ كي يرضى بنا عمر[1]

ونسمع صدى الفارس البطل ابن الوليد ينتشر في آفاق الشعر المعاصر، وفي مختلف الأجواء الوطنية والقومية، بهمومها الثقيلة الوطأة، وأمانيها المحفوفة باليأس والقنوط تارة، وبالتفاؤل المشوب بالحذر تارة أخرى، ولا سيما حين يكون الحديث عن مأساة فلسطين وجرحها البليغ الدامي الذي لا يجفّ ولا يبرأ. آية ذلك ما نقرؤه في هذه الأبيات للشاعر عبود كنجو –من سورية– الذي يقول:

يا ظبية العُرب إن الجرح يؤلمني ... أين الشفاء، وذاك اللحظ مكحول؟
والروم من حولنا دارت جحافلُها ... وخالد في إسار الذلّ مغلول
كأنما قُضُب المرّان ما رقصتْ ... وما تنزّلَ في الحصباء جبريلُ
ولا نسيمٌ من صبا نجدٍ يحرّكنا ... ولا تردّد في البطحاء ترتيل
كأنها لم تَثُر في العُرب ثائرةٌ ... وما ملاحمُهم إلا أقاويل[2]

وذاك الشاعر أسامة الصابوني الذي استفزّه استشهاد الطفل محمد الدرّة وما فعله الصهاينةُ الباغون بالعزّل الآمنين من أبناء العرب في فلسطين وبأطفالهم ونسائهم، ونسمع في هذا الشعر أصداءً أخرى تأتلف وصدى خالد، من أمثال طارق بن زياد، وعمر بن الخطاب، وصلاح الدين الأيوبي، وذلك في قوله، راجياً ومؤملاً:

إنّي لألمح في الآفاق بارقةً ... هبّت ربيعةُ منها، واعتلت مضرُ

---

(1) لم ينشر من هذه القصيدة سوى ثلاثة أبيات في ديوان عمر: "أمرك يا رب" ص 73 بعنوان: "أنا لا أقاتل من أجل عمر" أولها: "يا من رأى.." وثالثها: "إنا نقاتل.." وبينهما البيت الآتي وهو ثانيها:

دعا سريّته الغضبى وقال لها، ... وبسمةُ الكِبْر في خدّيه تنتشرُ

(2) من مجموعة الشاعر، المخطوطة.

لعل طارق في حيفا، وخالدَهُ ... في تلْ أبيبَ، ويافا اجتاحها عمر
وقد أتاهم صلاح الدين ممتطياً ... ظهرَ الحصان، وطاف القدس يفتخر
لا بدّ من عودة الماضي وقد لمعتْ ... في صدر يعربَ، أو في صدرنا، الدّررُ[1]

وفي هذا الصدد أيضاً يبحث الشاعر نزار القباني عن رجال عظماء يبعثون أمجاد سيف الدولة وقومه الحمدانيين، ويحيون شخصية المتنبي بإبائها وعنفوانها، ويلوذ بقبر البطل خالد بن الوليد في حمص، فيلمس لديه الغضب والهياج، ويقول له في سخرية لاذعة:

فلا خيول بني حمدان راقصةٌ ... زهواً، ولا المتنبيّ مالئٌ حلبا
وقبر خالد في حمصٍ نُلامسه ... فيرجف القبر من زوّاره غضبا
يا رُبّ حيٍّ، رخامُ القبر مسكنهُ ... ورُبّ ميْتٍ على أقدامه انتصبا
يا بن الوليد، ألا سيفٌ تؤجرهُ ... فكلّ أسيافنا قد أصبحتْ خشبا

ولنتأمّل في هذه اللوحة المتكاملة التي صاغها قلم الشاعر أمل دنْقل لمشهد خالد بن الوليد وهو على فراش الموت حين قال قولته المشهورة، وجاء بها الشاعر في سياق المقابلة بين الماضي والحاضر: من حيث المواقف والشخصيات، والقِيَم والتصرّفات والخلائق، فمزج المعطى التراثي بالمعطى المعاصر، وهكذا جاءت المفارقة على النحو التالي في المقطع الرابع والأخير من قصيدة دنقل: "الموت في الفراش":

أموتُ في الفراش... مثلما تموت العَيْر
أموتُ، والنفيرُ...
يدقّ في دمشق
أموت في الشارع، في العطور والأزياء
أموتُ، والأعداءُ
تدوسُ وجه الحق
"وما بجسمي موضع إلا وفيه طعنة برمحْ"
إلا وفيه جُرحْ
إذن

[1] من مجموعة الشاعر، المخطوطة.

"فلا نامت عيون الجبناء"[1]

ويتوالى ذكر أبطال العروبة والإسلام مقرونين بخالد بن الوليد في عدد من قصائد الشعر المعاصر، منها قول الشاعر اليمني المشهور عبد الله البردّوني في مناسبة المؤتمر الذي عقده الأقطاب العرب الثلاثة: الإمام أحمد، والرئيس عبد الناصر، والملك سعود:

وحدةُ المجد والفخار التليدِ زعزعتْ مرقدَ الصباح الجديدِ

وحدّت شملَهم كبارُ الأماني والدّمُ الحرّ واعتزازُ الجدودِ

واستفاقت مواطنُ العرب الشُّمّ، فعودي يا رايةَ العُرب عودي

واذكري في المعارك الحمرُ "سعداً" و "عليّاً" و "خالدَ بن الوليد"

تأنَفُ العُرب أن يدوس حماها الـ حُرَّ شرُّ العبيد، أدنى العبيدِ[2]

وقول الشاعر شفيق الكمالي، مستحضراً شخصية القائد خالد بن الوليد ومن سار على سننه في النّضال ورفع لواء الحضارة والأمجاد، من أمثال طارق والمعتصم حتى يوسف العظمة في يوم ميسلون:

يا بنت مروان، يا كِبْراً همى قِيَماً ويا مناقبَ قومٍ حضّرت أُمما

أرى بها خالد اليرموك منتفضاً وألتقي طارقاً فيها ومعتصما

وتستطيل فألقى ميسلون، بها مجداً يسلّم مجداً بعده العلَما

وقول نزار قباني متطلعاً حوله، باحثاً عن عربي واحد ينتصر لقومه ويزيح عنهم كابوس الذل والضعف، ويكون كابن الوليد أو كطارق أو كعنترة، فلا يسمع إلا صدى الكلام الأجوف، وذلك سنة 1996 في قصيدته "راشيل" وكان في لندن:

انتظرنا عربياً واحداً

يسحب الخنجر من رقبتنا

انتظرنا هاشمياً واحداً

انتظرنا قرشياً واحداً

---

[1] الأعمال الشعرية الكاملة، لأمل دنقل –مجموعة "تعليق على ما حدث"، ص 314 وانظر مجلة "الموقف الأدبي" 374 حزيران 2002م، ص 17.

[2] ديوان عبد الله البردوني –المجلد الأول، المجموعة الشعرية الأولى: "من أرض بلقيس" بيروت – دار العودة 1986م، ص 151-153.

دون كيشوتاً واحداً

قبضاياً واحداً.. لم يقطعوا شاربه

انتظرنا خالداً أو طارقاً أو عنترة

فأكلنا ثرثرة، وشربنا ثرثرة

أرسلوا فاكساً إلينا.. إستلمنا نصّه

بعد تقديم التعازي وانتهاء المجزرة!!.

2) **الصدى الثاني: وصل إلينا من شعراء لم يعرجوا على ذكر خالد بن الوليد وحده عابرين عُجالى**، ولا قرنوه برجال آخرين من عظماء أمتنا وقوّادها الأعلام مجتمعين مستحضَرين، وإنما خصّوا خالداً وحده ولكنْ بوقفة خاصة تناولت لُمعة مهمة أو لمعاً أساسية في سيرة خالد ومواقفه وبطولاته، يسلّط الشعراء عليها الضوء مستلهمين محلّلين، في مطاوي قصائد ومطوّلاتٍ تاريخية، أو ملاحم شعرية عامة تمتدّ زمناً طويلاً، أو أن خالداً وحده يستأثر بقصيدةٍ طويلة كاملة.

وعلى هذا نستطيع أن نوزع هذا الصدى ونجعله في اتجاهين:

أ) **مطولات تاريخية** ***أقرب إلى السرديّة المباشرة***، ممزوجة ببعض النظرات التحليلية والوقفات التأملية التي تخرج بتلك البطولات الشعرية عن الجفاف أحياناً، وتجعلها محفوفة بظلال وارفة مخضلّة من الصور والأخيلة والعواطف المتأججة. ذلك أن تناول مثل هذه الموضوعات على هذه الشاكلة، والمستمدة من تاريخ العرب والمسلمين لم يكن الغرض منه في أذهان الشعراء ودافعهم إلى القول مجرد السّرد والتسجيل، فكتب التاريخ المطولة تغني عن ذلك، وقد تفوقه دقةً وتفصيلاً، بل كان ذلك سبيلاً إلى معالجة حاضر الأمة والثورة على واقعها، ومنطلقاً ركيناً للشاعر نحو الغاية المنشودة التي تتركز في يقظة العرب والمسلمين، ونهضتهم من جديد، وتستلهم الماضي القريب والبعيد، وتقوم باستدعاء شخصيات هذا وذاك، لتنفخ روح القوة في الحاضر، وتبعث على الثقة بالمستقبل.

وهكذا راح الشعراء المعاصرون ينظمون مطوّلاتهم تغنياً بالأمجاد الأولى في ظل العروبة والإسلام، وفي مقدمتها غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، والفتوح بعده في أيام الخلفاء الراشدين من أمثال اليرموك والقادسية، والشخصيات التي لمعت في تلك الوقائع، ولا سيما خالد بن الوليد، وتنضح من تلك القصائد روح الاعتزاز بتلك العهود الزاهية ورجالها وقوادها[1].

ولعل أول الشعراء المعاصرين الذين ضربوا على هذا الوتر هو أحمد شوقي[2]، الذي نُفي إلى الأندلس (إسبانيا) وأقام هناك خلال الحرب العالمية الأولى تقريباً (1915-1919م)، فاستفزّه مجد

---

[1] *انظر "الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث" ص 248.*

[2] *لم يكن شوقي أول من استخدم الشعر التأريخي في أراجيز مطولة، بل سبقه إلى ذلك آخرون من القدماء كابن المعتز، وابن عبد ربه الأندلسي، ولسان الدين بن الخطيب...*

العرب والإسلام الدائر على أن ينظم سلسلة من القصائد في التاريخ الإسلامي والعربي ضمّها ديوان بعنوان "دول العرب وعظماء الإسلام"، وذلك منذ ظهور الإسلام حتى نهاية الدولة الفاطمية. وقد توفي أحمد شوقي سنة 1932م وطُبع كتابه الشعري هذا بعد وفاته بسنة واحدة (1933م) ويقع في نحو مئة صفحة، وأشعاره كلها على بحر الرجز من النوع المزدوج، يعني الذي جاء كل بيت فيه مصرّع الشّطرين على رويّ واحد[1]، ما عدا القسم الأخير وهو عن "دولة الفاطميين" فقد جعله كله على رويّ الألف المقصورة، ص 91-98.

تبدأ "المقدمة" بقول أحمد شوقي:

الحمدُ لله القديمِ الباقي ... ذي العرش والسبع العُلا الطِباقِ

المَلِكِ المنفردِ الجبارِ ... الدائمِ الجلالِ والإكبارِ

وتتوالى الأقسام بعد ذلك تحت عناوين أساسية، مثل: لغة العرب، التاريخ، الوطن، البيت الحرام، السيرة النبوية الشريفة، الخلفاء الراشدون، خلافة أبي بكر الصديق، خلافة عمر بن الخطاب.

ويلي ذلك مباشرة عنوان "عمر وخالد بن الوليد" (40-42).

وقد جاء ذلك في 28 بيتاً مصرعة الأشطار (مزدوجة)، بدأها شوقي بقوله:

واللهِ ما أدري، ولا تدري الزُّمَرْ ... ما كان بين ابنِ الوليدِ وعُمَرْ

سيفُ الإلهِ سلَّهُ النبيُّ ... وهزَّهُ وليُّه الحَبِيُّ

أغمدَ، لا كَلاًّ ولا مقصِّراً ... في حربِ كسرى، وقتالِ قيصرا

ثم يذكر شوقي ما نعرفه في التاريخ من عزل عمر لخالد، وتعيين أبي عبيدة بن الجراح أميراً عاماً للجيش في فتوح الشام، وكانت موقعة اليرموك في ذروتها. وكان عمر قد خشي من مغبة إقبال الناس على خالد، وافتتانهم به، وقال له بعد ذلك حين استدعاه إليه: "ما عزلتُك لريبة فيك ولكن افتتن بك الناس، فخفت أن تُفتَن بالناس". وقد انتصر أحمد شوقي لعمر في تدبيره، وأَوجدَ له العذر في ذلك. يقول:

خافَ الإمامُ أن يكونَ فتنَهْ ... سياسةٌ عاليةٌ وفِطْنَهْ

أعيذُ من مَضِلَّةِ الحِقدِ عُمَرْ ... مثلُ الإمامِ بالمراشدِ ائتَمرْ

لعلَّه أبصرَ وجهَ منفعهْ ... أو خافَ ضُرّاً فرأى أن يدفعهْ

---

[1] أقحم شوقي في أرجوزته المطولة هذه موشحاً أندلسياً عن "صقر قريش، عبد الرحمن الداخل، مؤسس الدولة الأموية، وجعل وزنه على بحر الرمل، انظره ص 70-87.

فالسـيفُ لا تأمـنهُ أن يَنقلِـبْ ... كـم غَلـبَ الحـقُّ بـه، وكـم غُلِـبْ

فـي طـبعهِ الطِـيرةُ والشـرورُ ... وربُّـه يومـاً بـهِ مغـرورُ

وبعـد أن يتحدث أحمد شوقي عن الخليفتين الراشدَيْن: عثمان بن عفّان، وعلي بن أبي طالب، ينـتقل إلـى خلافة معاوية، وإلى عمرو بن العاص وفتحه لمصر، وبعدهما يخص "خالد بن الوليد" بوقفة طويلة جداً (ص63-65) تمتد إلى 114 بيتاً من الرجز المصرّع (المزدوج أيضاً)، يفصّل فيها الكـلام على حياة "خالد" منذ دخوله في الإسلام مع عمرو بن العاص، وتسمية الرسول (ص) له بأنه "سيف الله" فيقول: (ص63).

مَـن طـبع السـيفَ ومَـن جـلاّهُ؟ ... هـل يصـنع الآيـاتِ إلا اللهُ؟

قلّـده مـن ربّـه محمـدُ ... يَسـلُّه بإذنـه، ويُغمِـدُ

خُلقـتْ لا أعظَـمُ السـيوفا ... إلا الشـريفَ العالـيَ العَـيُوفا

المفـتدى بحـدّه مـن مَظلَمـهْ ... والمهـتدى بـنورهِ فـي المُظلِمَـهْ

كابـن الولـيد موئـلِ الأعـلامِ ... سـيفِ الإلـه، أسـدِ الإسـلام

طلَّـق جاهلـيّةَ المعاصـيَ ... ودخـلَ الإسـلامَ وابـنَ العاصـي

ويـتابع شوقي الحديث عن مزايا هذا القائد الفذّ، ومنزلته العالية، وتأدّبه بأدب الإسلام، يصاحبه النُجح والظفر أينما سار، وفي كل معركة خاضها (ص64):

فمـا مضـى فـي موطـنٍ أو هَمّـا ... إلا وكـانَ اسْـماً علـى مسـمّى

ألـيس كافـيَ الإمـامِ الشـدَّهْ؟ ... وقـامعَ الفتـنةِ يـوم الـرِّدَّهْ؟

وقـاتلَ "الكـذّابِ" فـي المعـارك ... وكـلَّ أفّـاكٍ لـه مُشـارِكِ

ومن حروب الردّة ومقتل مسيلمة الكذاب ومَن على شاكلته نصل إلى فارس والروم:

أيامُـه مشـهورة فـي فـارسِ ... مسـطورةٌ فـي صُـحف الفـوارسِ

خـاض بهـا الوقـائعَ الكـبارا ... وفـتحَ الحِـيرةَ والأنـبارا

واحتاجـت الشـامُ إلـى هُمـامِ ... أروعَ يحمـي عسـكرَ الإمـامِ

يقحمُهـا علـى جمـوع الـرّوم ... ويَنثنـي بفـتْحها المَـرُومِ

فلــم تقــعْ إلاّ علــيه الخِــيرَهْ إن الـــرجال أفضـــلُ الذخـــيرهْ

خَلّــى العـــراقَ وتولّـــى الشّـــاما نجمـــاً لأهـــوال السُّـــرى جَشّـــاما

ولا يخفــي شــوقي إعجابه بخالد وبلائه وأريحيته، حين قطع بادية السَّماوة بين العراق والشام، فأنسى الدنيا "هانيبال" القائدَ القرطاجنيّ، وعبوره جبال الألب بجيوشه، فيقول (ص 64):

يقطــع غُفــلاً، ويجــوبُ بائـــرا إن المغيـــثُ مـــن أتـــاك طائـــرا

فكـــان فـــي "السَّـــماوة" الرِّئـــبالا لا تذكـــر الألـــبَ وأنّيـــبالا

تخفـــق فـــوق رأســـه "العُقـــابُ" فـــي مَهْمَـــه تُـــنكِره العُقـــابُ[1]

حـــتّى وافـــى خـــالد "اليرموك" ولم يثبت أحد في وجهه وهو مارّ بتدمر والقريتين وآل غسان، وتولّى قيادة الجيوش: (ص65)

أقـــبل ســـيفُ الله يُزجـــي خـــيلَهُ ويـــلَ هـــرقلٍ مـــنه ثـــم ويلَـــهُ

وأمَّـــرَ الجـــيشُ علـــيهم خـــالدا وانـــتظروا الـــيومَ العظـــيم الخـــالدا

وتواقــف الجيشــان المتحاربان، جيش العرب المسلمين، وجيش الروم، ودارت رحى المعركة غير المتكافئة:

تــــراءيا علـــى تفـــاوت الفِـــئهْ ذا مئـــتا ألـــف، وذا نصـــفُ المِـــئهْ

ونشـــبتْ جائحـــةُ الدهـــور عـــدوَةُ القاهـــر والمقهـــور

فداهـــمَ الـــرومَ الرعـــيلُ المُســـلِمُ إن العتـــيق بالعـــتاق أعلـــمُ[2]

وكانت النتيجة هزيمة نكْراء ماحقةً للروم في يوم خالد كيوم بدر (ص65):

يـــومٌ كـــبدرٍ فـــي الفـــتوح مَـــنزِلَهْ أمســـى هـــرقلٌ بعـــده لا عـــزَّ لَـــهْ

لمـــا رأى ســـلطانه تداعـــى صـــاح: الـــوداعَ ســـوريا، الوداعـــا

وإنمـــا أوردنا شواهد كافية من ديوان شوقي "دول العرب وعظماء الإسلام" ليتبيّن لنا أن السّرد التّاريخـــي القصصي هو الغالب على تلك الأرجوزة التاريخية المطوّلة، وإن كان شوقي يحاول -بين الحيـــن والآخـــر- أن يخفّف من عبء ذلك الجفاف الشعري بإيراد بعض الصور والتأملات والحكم

(1) العُقاب، الأولى: راية النبي (ص) وكان خالد يحملها في المعركة، والعُقاب، الثانية، طائر من الجوارح قويّ المخالب.
(2) العتيق: هو أبو بكر الصديق، الخليفة. والعتاق: الخيل الأصيلة.

التي تضفي على شعره هذا بعض الظلال الغنائية.

يضاف إلى ذلك أن أحمد شوقي لم يلتزم الترابط التاريخي والتسلسل المنطقي للأحداث في أقسام أرجوزته تلك، وإن كان الخط العام لها يوحي بذلك التسلسل، ومن شواهد ذلك حديثه عن خالد ابن الوليد في موضعين متباعدين من حيث الزمن، وجاء ثانيهما بعد الحديث عن خلافة الإمام علي ابن أبي طالب، ومعاوية، وعمرو بن العاص، ليأتي كلام شوقي -بعد خالد- عن دولة بني أمية.

ويأتي معاصر شوقي في مصر، وهو الشاعر حافظ إبراهيم، فينظم في تلك الفترة نفسها سنة 1918 م قصيدة مطوّلة على رويّ واحد، وعلى البحر البسيط[1]، وقد بلغ عدد أبياتها 187 بيتاً.

وعُرفت تلك القصيدة بالعُمَريّة، وأنشدها حافظ في الحفل الذي أقيم لسماعها بمدرّج وزارة المعارف (وزارة التربية اليوم) مساء الجمعة 1918/2/8م، وهذه العمريّة تتناول، في سردٍ مسهب، حياة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، الحافلة بالأمور الجسام حتى مقتله سنة 23 هـ.

وقد قسمها حافظ إلى عدة أقسام، ولكل منها عنوان خاصّ، تتوالى على هذا النسق بعد المقدمة: (مقتل عمر، إسلام عمر، عمر وبيعة أبي بكر، عمر وعليّ، عمر وجبلة بن الأيهم، عمر وأبو سفيان، عُمر وخالد بن الوليد، عُمر وعَمرو بن العاص، عمر وولده عبد الله، عمر ونصر بن حجّاج، عمر ورسول كسرى، عمر والشورى، مثال من زهده، مثال من رحمته، مثال من هيبته، مثال من رجوعه إلى الحق، عمر وشجرة الرّضوان، الخاتمة).

وقد مهّد حافظ إبراهيم لقصيدته هذه بأربعة أبيات جعلها مقدمةً لها، يقول فيها:

حسبُ القوافي، وحسبي حين أُلقيها ... أنّي إلى ساحة "الفاروق" أُهديها

لا هُمَّ، هبْ لي بياناً أستعين به ... على قضاء حقوقٍ نام قاضيها

قد نازعتنيَ نفسي أنْ أوفّيها ... وليس في طوقِ مثلي أن يوفّيها

فمُرْ سَريَّ المعاني أن يواتيَني ... فيها، فإنّي ضعيفُ الحالِ واهيها

وظاهر أن الشاعر قد نظم قصيدته الرائعة هذه بوحيٍ من الماضي التليد، الذي هو نبراس للحاضر، ومن الاهتمام بشخصية الخليفة الفاروق، ذلك النموذج الحيّ الناطق للحاكم العربي الذي تتشوق الجماهير إلى مثله في محَنها وظروفها العصيبة، ومن حق تلك الشخصية العظيمة على حافظ أن يستعيد سيرتها، ويستحضر جلائل أعمالها، ليهزّ الروح الوطنية والقومية في النفوس، عسى أن يكون في نابتة الأمة من يجلو لحاضرها مرآةَ ماضيها لأن في تجارب الأجداد خير ما يفيد الأحفاد.

وهذا هو فحوى ما صرّح به حافظ نفسه في خاتمة "العمريّة" عندما قال عن عمر رضي الله عنه:

هذي مناقبهُ في عهد دولته ... للشاهدين وللأعقاب أحكيها

[1] أنظرها في ديوان حافظ إبراهيم 1/77-97 ومنها القسم الخاص بـ "عمر وخالد بن الوليد" ص 84-87.

لعـلّ فـي أمّـة الإسلام نابتة تجلـو لحاضـرها مـرآة ماضـيها
حـتى تـرى بعـضَ مـا شادت أوائلها مـن الصُـروح، ومـا عانـاه بانـيها
وحسـبُها أن تـرى مـا كان من "عُمرٍ" حـتى يُنـبّهَ مـنها عيـنَ غافـيها

وفي مرورنا بأجزاء هذه القصيدة -التي تدل على أن حافظاً قد قرأ سيرة "الفاروق" وأحاط بكل تفاصيلها من مختلف المصادر – نقف عند القسم الذي عقده حافظ للكلام على "عمر وخالد بن الوليد" فـي 29 بيـتاً، وطبيعة موضوع القصيدة لا تتيح للشاعر أن يخرج عليه إلى التفصيل في حياة خالد وأعماله وبطولاته مما يعدّ استطراداً لا يناسب المقام، وخير الكلام ما كان مراعياً لمقتضى الحال.

بدأ حافظ حديثه هذا بقوله (الديوان 84/1)

سـل قاهـر الفرس والرُومان هل شفَعت لـه الفـتوحُ، وهـل أغـنى تَوالـيها؟
غـزا فـأبلى، وخـيل الله قـد عُقـدت باليُمـن والنصـر والبُشـرى، نواصـيها

ثـم يمضي حافظ فيتحدث عن شجاعة خالد ومعاركه مع الفرس والروم، وأنه ظفر في ثلاثين موقعةً سجلتها له يدُ الفتح:

مـا واقـعَ الـروم إلا فـرَّ قارحُهـا ولا رمـى الفـرس إلا طـاشَ رامـيها
عشـرون موقعـةً مـرّت محجّلـةً مـن بعـد عشـرٍ، بـنانُ الفـتح تُحصيها
وخـالدٌ فـي سـبيل الله مُوقدُهـا وخـالدٌ فـي سـبيل الله صـاليها

وبعد ذلك الجهاد، وتلك الجهود، وحين تولى الخلافةَ أبو حفص عمر:

أتـاه أمـرُ "أبـي حفـص" فقـبّله كمـا يقـبّلُ آيَ الله تالـيها
واسـتقبل العـزلَ فـي إبّـان سـطوته ومجـدِه، مسـتريحَ الـنفس هاديهـا
ألقـى القـيادَ إلـى "الجـرّاح" ممتـثلاً وعـزّة الـنفس لـم تُجـرح حواشـيها
وانضـمّ للجـند يمشـي تحـت رايـته وبالحـياة، إذا مالـت، يفدّيهـا
ومـا عَـرتْه شـكوكٌ فـي خليفـته ولا ارتضـى إمْـرَةَ "الجـرّاح" تَمْويهـا

إنـه لموقف رائع ونادر، سجّله التاريخ للقائد المظفّر "خالد" بأحرف من نور، وهو يستقبل أمر العـزل عن القيادة، من أمير المؤمنين، بكل الرضا وبتمام الانضباط والطاعة، ولم يُسئ الظنّ بعمر، بـل إنه – حين أدركته الوفاة فيما بعد – أوصى عمر بأولاده من بعده، وكان حزن عمر أيضاً عليه

حين وفاته كبيراً، وترك النساء يبكينه:

فخالد كان يدري أن "صاحبه" قد وجّه النفس نحو الله توجيها
لذاك أوصى بأولاد له "عُمراً" لمّا دعاه إلى الفردوس داعيها
وما نهى "عمرٌ" في يوم مصرعه نساء مخزومَ أن تبكي بواكيها

وقد اعتذر حافظ إبراهيم عن صنيع الخليفة بخالد، وقد خاف افتتان المسلمين به "وفتنةُ النفس أعيتْ مَن يداويها"، وهو الخليفة العادل الذي لم يتوان عن جلْد أحد أبنائه وإقامة الحدّ عليه لشربه الخمر، ولم تأخذ به رأفة في دين الله:

تالله لم يتّبع في "ابن الوليد" هوىً ولا شفى غُلّةً في الصدر يَطويها
لكنه قد رأى رأياً فأتْبعه عزيمةً منه لم تُثلَم مواضيها
وما أصاب ابنُه والسَّوطُ يأخذه لديه من رأفةٍ في الحدّ يُبديها
إن الذي برأ "الفاروق" نزّهه عن النقائص والأغراضِ تنزيها
فذاك خُلْق من الفِردوس طينتُه اللهُ أودعَ فيها ما ينقّيها

تلك هي أبرز الجوانب التي تناولها حافظ إبراهيم في "عمريّته" مما يتصل بالفاروق عمر، وقد لاحظنا أن حافظاً لم يكن مؤرخاً وصّافاً -على غرار أحمد شوقي- بل كان إلى جانب ذلك أيضاً شاعراً غنائياً ووجدانياً، يمزج التاريخ بالفن، والواقع بالخيال والصور، وهذا ما أبعده عن جفاف العرض ورتوب السّرد، وقرّبه من العاطفة والوجدان، في أسلوب موسيقي محبّب، ونظم متماسك موقَّع، مع رصانة العبارة، وفصاحة التركيب.

والشاعر الثالث المؤرّخ هو أحمد محرَّم (1877-1945م)[1] صاحب "الإلياذة الإسلامية" التي تضمّ السّيرةَ النبويةَ كلّها شعراً شبيهاً بشعر الملاحم، موزعاً على موضوعات وأقسام جزئية يحمل كل منها عنواناً مناسباً، من أول الدعوة الإسلامية حتى عام الوفود، وفود رجال القبائل على النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة معلنين الدخول في الإسلام وذلك سنة 9هـ، وكتبه عليه السلام إلى الملوك، والسّرايا العسكرية إلى مختلف الجهاد، وعلى كل سريّة أمير يتولى قيادتها.

تقع هذه الإلياذة الشعرية في 455 صفحة، ويبدأ القسم الأول منها بعنوان "مطلع النرر الأول من أفق الدعوة الإسلامية" يقول فيه أحمد محرم:

[1] أحمد محرم شاعر مصري غلب على شعره الاتجاه الوطني مع النزعة الإسلامية، وهو امتداد لمدرسة التقليد. عرف في شعره بقوة الديباجة وجزالة اللفظ، وغلبت عليه حرارة العاطفة وصدق الإيمان. ومن آثاره: ديوان أحمد محرم، وديوان مجد الإسلام (أو الإلياذة الإسلامية)، وقد طبعت الإلياذة هذه سنة 1963م بعد وفاة الشاعر ببضعة عشر عاماً.

امــلأ الأرض يــا محمــدُ نــورا ... واغمــر النــاسَ حكمــةً والدهــورا
حجبتْك الغيــوب ســراً تجلّــى ... يكشــف الحجــبَ كلّهــا والســتورا
عــبَّ ســيلُ الفســاد فــي كــلّ وادٍ ... فــتدفّقْ علــيه حــتى يغــورا
جئــت تَرمــي عُــبابَهُ بعُــبابٍ ... راح يطــوي ســيوله والــبحورا
يُــنقذ العــالم الغــريقَ ويحمــي ... أُمــمَ الأرض أن تــذوق الثــبورا[1]

وليس من شأننا هنا أن نقف عند هذه الإلياذة الضخمة ونفصّل القول في مضمونها وخصائصها وبنيتها وماهية الأحداث فيها، ومدى تحقق شروط "الإلياذة" عامةً فيها، ونكتفي بالقول مُوجزين: إنها تضـم عـدّة آلاف من الأبيات الشعرية التي اقتصرت على مجريات السيرة النبوية وما صاحبها أو كان فيها من أحداثٌ مختلفة تتصل بالهجرة من مكة إلى المدينة، والغزوات: (بدر، أحد، الخندق، فتح مكة، خيبر، حُنين، بنو النضير، الحديبية، تبوك...) والأمور المرتبطة ببعض القبائل والأشخاص من الصحابة وغيرهم: (الخزرج، الأنصار، المهاجرون، المنافقون، اليهود، حمزة بن عبد المطلب، سعد ابــن معــاذ، الشاعر كعب بن زهير، أمهات المؤمنين... الخ) ومسجد الضّرار، وكتب النبي ﷺ إلى الملــوك، و الوفــود المختلفة، والسّرايا التي تنتهي بسرية الشاب أسامة بن زيد، ويذكر فيها مرض النبي (ص) ووفاته، وتولي أبي بكر الخلافة[2].

وقــد راعى أحمد محرّم التسلسل التاريخي للأحداث وما إليها في المواضع التي تحتاج إلى ذلك أو تساعد عليه، وهو في إلياذته هذه لا يكتب ملحمةً كملحمة هوميروس ولا يعالج حرباً معينة، وإنما هــو يــنظم سيرة الرسول (ص)، فيها الحرب وغير الحرب، وقد قرأ تلك السيرة في التاريخ قراءة جيدة واعية ثم حوّل هذا التاريخ شعراً أو نظماً على نحو ما عُرف من أراجيز ابن عبد ربه، ولسان الدين بن الخطيب. إلا أن أحمد محرم استخدم البحور الشعرية المعروفة كالمتقارب والكامل والوافر والخفــيف والبسيط، ونوّع الرويّات في كل قصيدة ولم يلتزم روياً واحداً، ومهّد لقصائد الإلياذة كلها بمقدمــات نثرية تاريخية تلخص الموضوع الذي نظمه بعد ذلك شعراً، وتُظهر التطابق الصحيح بين التاريخ والشعر من حيث المضمون.

ومــن الظلم للشــاعر أن نــتّهم إلياذته بالجفاف، وأن نتابع من وصفها بأنها من متون الحفظ والــتدريس أو أنها من الشعر التعليمي، فالحق أن أحمد محرم كان في كثير من الأحيان يخرج عن إطــار التاريخ الصرف والسّرد المباشر إلى واحات ظليلة يكون فيها للخيال والعاطفة الغنائية نصيبٌ كبير يقرّب شعره من الشعر الغنائي ويمزجه بالشعر التاريخي والحكم والتأملات، مما لا يكون عادةً

[1] الإلياذة الإسلامية، ص 3.
[2] مما يجدر ذكره هنا أن أحمد محرم أفلتت من يده فرصٌ كان يمكن أن تغني إلياذته كحادثة الإسراء والمعراج. التي تعد كنزاً عظيماً لصنع مادة قصصية مثيرة.

في الأراجيز التاريخية الخالصة، كما سنرى.

أما مكان خالد بن الوليد في هذه الإلياذة التاريخية وأخباره ومعاركه فمن الطبيعي أن يقتصر الشاعر على ما كان منها في عصر النبوة أولاً، وأن تكون موزعةً ومتناثرة بحسب التسلسل التاريخي ثانياً، ويفصل بينها أحداث وأخبار أخرى لغير خالد.

وقد تناول أحمد محرم في إلياذته الجوانب التالية من حياة خالد:

(معركة أحد والرّماة، ودور خالد فيها، غزوة مؤتة وإنقاذه الجيش حين تولى القيادة، فتح مكة وهدمه للأصنام كالعُزّى، اشتراكه في غزوة الطائف مع النبي (ص)، دومة الجندل والأُكيدر، السرايا التي أُرسل على رأسها)

ففي قصيدة "الرُماة" التي جاءت في أعقاب الحديث عن "غزوة أحد"، وعلى وزن البحر البسيط، يصف أحمد محرم هذه الحادثة، ولحاق المسلمين بالمشركين لانتهاب الغنائم، ومفارقة معظم الرماة أماكنهم من أجل ذلك، وكان ذلك من أسباب تخاذلهم وتفرقهم حين فاجأهم خالد وعكرمة بن أبي جهل بالهجوم واستشهد عدد من المسلمين من جراء ذلك، وثبت النبي (ص) ومعه جماعة من أصحابه:

أين تولّتْ جنود الشّرك مدبرةً ... خفَّ الرماةُ وظنّوا الأمر قد وجبا؟
يخالهم من يراهم ساعةَ انطلقوا ... سهامُهم حين جاش البأسُ فالتهبا
أصابها خالد منهم، وعكرمةٌ ... أمنيةً لم تُصب من ذي هوىً سببا
فاستنفرا الخيلَ والأبطال وانطلقا ... في هَبْوةٍ تزدهي الأرماحَ والقُضُبا
هم خلّفوا رممَ القتلى مُطرّحةً ... وغادروا الجندَ، جندَ الله، والسَّلَبا[1]

ويعرض أحمد محرم لإسلام خالد مع صاحبيه: عمرو بن العاص، وعثمان بن أبي طلحة، في قصيدة طويلة على البحر الكامل ورويّ الميم، وقدوم هؤلاء الثلاثة على رسول الله (ص) وذلك بعد أن أرسل الوليد بن الوليد إلى أخيه خالد بن الوليد رسالةً يطلب منه فيها الدخول في الإسلام:

أقبِلْ أخي وتلافَ أمركَ، لا تكن ... ممّن إذا وضح السبيلُ تعامى
كم موطنٍ جَلَلٍ لوَ انّكَ لم تَغب ... عنه لكنتَ إذن أجلَّ مقاما
يكفيك ما ضيّعت، ليس بحازمٍ ... من لا يزال يضيّع الأيّاما[2]

[1] ديوان مجد الإسلام، أو الإلياذة الإسلامية ص 86-87.
[2] المصدر نفسه، 262.

فخــرج خالد إلى المدينة المنورة يريد الإسلام، ولقي في طريقه عثمان بن أبي طلحة، فعرض عليه الإسلام فقبِله، ثم لقيا عَمْرو بن العاص فوافقهما أيضاً، وقدموا على النبي (ص) فأسلموا:

وفــدوا كــراماً يؤمـــنون بـــربّهم ورســوله بــيض الوجــوه وِســاما
نفضــوا الهــوانَ عــن الجباه فأصبحوا شُـــمّ المعَــاطس يــرفعون الهامــا
أفيعــبدون مـــع الغــواةِ حجــارةً؟ أم يعــــبدون الواحـــدَ العلاّمـــا؟
كُشـف اللـثامُ عــن اليقين، ولن ترى كــالجهل ســتراً، والغــرورِ لــثاما[1]

ويغتــنم الشــاعر هــذه الفرصــة ليسلك سبيل الحكمة والنصح في شعر غنائي جميل، وليشيد بالإسلام ديناً قيماً جاء لهداية الناس:

لـو طـاوع الـناسُ الطبيب لما اشتكى مـــن يحمـــل الأدواء والآلامـــا
اعــرف لــربّك حقّـــه، فلحكمـــة خلــق العقـــول وأنشـــأ الأحلامـــا
أرأيـــتَ كالإســـلام ديـــناً قـــيّماً ســاس الأمـــور ودبّـــر الأحكامـــا؟
الله أحكــــم أمـــــره، وأقامــــــه للعالميــــن شـــــريعةً ونظامـــــا[2]

ولا ينســـى أحمـــد محرم –وهو في هذه النشوة الغامرة– أن يشير إلى ما أصاب المشركين من دهشـــة وهلـــع إزاء هذا الحدث العظيم، وإلى المستقبل الذي ينتظر خالداً في الحروب والمشاهد التي قضت على الشرك والمشركين:

إنــي أخــال البيــتَ يشــرق وجهُــه وإخـــال مكـــة تـــرفع الأعلامـــا
يابـــن الولـــيد، لـــك الأعـــنّةُ كلُّهـــا فـــالْقَ المقانـــبَ، وادفـــع الأقوامـــا
ســترى المشــاهد تــرجفُ الدنــيا لها وتـــرى الحصـــون تَمـــيدُ والآطامـــا
بشّـــرْ حُمـــاة الشـــرك مـــنك بوقعـــةٍ تُوهـــي القـــوى، وتزلـــزل الأقدامـــا[3]

وهذه غزوة مؤتة التي يأتي الحديث عنها سنة 8 هـ في حياة الرسول (ص)، وبعد دخول خالد فـي الإسـلام، وكان النبي (ص) قد سيّر ثلاثة آلاف رجل بقيادة زيد بن حارثة لمقاتلة الروم الذين خرجوا بجيشٍ عَرَمْرَم وسلاح كثير، وكانت هزيمتهم منكرة على يد خالد بن الوليد الذي استطاع أن

(1) ديوان مجد الإسلام 263.
(2) المصدر نفسه 264.
(3) المصدر نفسه 264. المقانب: جماعات الخيل زهاء الثلاثمائة. والآطام: الحصون.

يداور الروم بالكرّ والفرّ، بعد مقتل القواد الثلاثة تِباعاً: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وعاد خالد بالجيش.

ويقص أحمد محرّم هذه الواقعة في قصيدة طويلة على البحر البسيط ورويّ اللام، بلغ عدد أبياتها 66 بيتاً نقتطف منها الأبيات التالية:

يا زيدُ أدّيت حقّ الله فامض على ... نهج الأُلى انتقلوا من قَبْلُ ، وانتقلِ

وأنت يا جعفرُ المأمولُ مشهدُه ... خذ اللواء وجاوز غاية الأمل

دلفتَ تمشي على الأشلاء مقتحماً ... والقوم منجدلٌ في إثر منجدِل

انهض بعبئك عبدَ الله مضطلعاً ... بكل ما تحمل الأطواد من ثِقَلِ

خذ عند ربك دار الخُلد تسكنها ... قدسيّة الجوّ والأرواح والظُّلَلِ[1]

وعندما تسلّم خالد قيادة الجيش في مؤتة اختلف ميزان القوى، واستطاع خالد إنقاذ المسلمين بحنكته ودرايته:

وراح يُبدع من كيد الوغى نمطاً ... طاشت مراثيه بالألباب والمُقَلِ

أذاقهم من ذعاف الموت ما كرهوا ... ما كَفَّ عن عَلَلٍ منه ولا نَهَلِ

ولا ينسى الشاعر أن يصوّر –في هذه المناسبة– ما حلّ بالعرب والمسلمين في عصره من خنوع واضطهاد، فيبتهل إلى ربه أن يحمي حوزة الإسلام ويعلي رايته:

أدعوك يا ربّ للإسلام مبتهلاً ... وأنت تسمع دعوى كلّ مبتهِلِ

نام المحامون عنه، فهو مضطهَدٌ ... يشكو الأذى في شعوبٍ خُضّعٍ ذُلُلِ

صرحٌ من العزّ والسلطان ما برحتْ ... تهوي صياصيه حتى عاد كالطّلل[2]

ولن نستطيع هنا –في هذه العجالة– أن نشهد المواقف كلها مع خالد بن الوليد في تلك الإلياذة الإسلامية، كفتح مكة في شهر رمضان سنة 8 هـ واشتراك خالد فيه، وقد نظم أحمد محرم في هذا الفتح قصيدة طويلة في 68 بيتاً على رويّ الفاء والبحر البسيط، بدأها بقوله: (ص 278)

ديارَ مكّةَ، هذا خالدٌ دلَفا ... فما احتيالُكِ في الطّود الذي رجَفا

لمّا دعاه بسيف الله سيّدهُ ... زاد السيوفَ به في عزّها شرفا

---

[1] المصدر نفسه 268–270 ومؤتة: موضع معروف عند الكرك في المملكة الأردنية اليوم.

[2] المصدر نفسه 271 والصياصي: الحصون. والطّلل: ما ظلّ باقياً من البناء المتهدّم.

وأرسل النبي (ص) -وهو في مكة- خالداً مع بعض أصحابه لهدم صنم "العُزّى"[1] أعظم أصنام قريش، على مسافة نحو 30 كم من مكة، فهدمها وعاد مأجوراً.

وقد خصّ أحمد محرم هذه الحادثة بقصيدة على البحر الوافر ورويّ الهاء في عشرين بيتاً، وأولها: (ص302).

إلى العُزّى فقد بلغتْ مداها ... وإنّ على يديك لَمُنْتَهاها

أزِلْها خالد، واهدم بناءً ... أقيم على جوانبها سفاها

وهكذا تتوالى أخبار خالد ومواقفه بعد ذلك في مطاوي السيرة النبوية، ولا سيما اشتراك خالد مع النبي (ص) في غزو مدينة الطائف، موطن قبيلة ثقيف، وينظم محرّم في ذلك 29 بيتاً بعنوان "غزوة الطائف" (ص312-314) أوّلها:

ثقيفُ انظري، أينَ قصدُ الطريقْ؟ ... وكيف يُلقّى النجاةَ الغريقْ؟

مشى البأسُ في هَوْلِه المستطيرِ ... له لهبٌ ساطع كالحريقْ

وفي شهر رجب من سنة 9 هـ يرسل النبي (ص) جيشاً لغزو الروم في تبوك، ومن هناك أرسل خالد بن الوليد إلى "دومة الجندَل" بين دمشق والمدينة المنورة لغزو الأُكيدر الكندي، فأسره خالد وجاء به إلى النبي (ص) فأسلم هو وقومه، ثم ارتدّ في خلافة أبي بكر الصديق مع المرتديّن فبعث إليه خالداً فقتله (328):

أخالد إنك ذو نجدةٍ ... فهيّا إلى دومة الجندلِ

إلى معشرٍ كفروا بالكتاب ... وحادوا عن المذهب الأمثل

وبعد عام الوفود سنة 9 هـ وكُتب النبي (ص) إلى الملوك (هرقل، كسرى، النجاشي...) يختم محرّم إلياذته بوقفة طويلة عند السرايا التي كان النبي الكريم قد أرسلها إلى مختلف الجهات في الجزيرة العربية للدعوة إلى الإسلام وخوض الحرب إذا اقتضى الأمر. وكان خالد بن الوليد ممن وقع عليه الاختيار ليكون على رأس ثلاث سرايا، مضى الحديث عن اثنتين منها: يوم هدم العُزّى، ويوم دومة الجندل. والثالثة إلى بني جذيمة في ناحية "يَلَمْلَم"، وقد حدثت فيها بعض الملابسات والإشكالات التي جعلت خالداً يتصرف مع بني جذيمة تصرفاً أسيء فهمه، مما لا سبيل إلى تفصيله

---

[1] لما علم سادنها بمقدم خالد علّق سيفه واستند إلى الجبل الذي هي فيه، وجعل يقول:

أيا عُزّ، شُدّي شدّةً لاسوى لها ... على خالدٍ ألقي القناع وشمّري

أيا عُزّ، إن لم تقتلي المرءَ خالداً ... فبوئي بإثمٍ عاجلٍ أو تنصّري

(حاشية ديوان مجد الإسلام ص 302)

هنا. وقد نظم أحمد محرم ذلك كلّه في عشرين بيتاً على روي الباء والبحر البسيط، بدأها بقوله (ص 395):

بنـي جذيمـة مـا في الأمر من عجبٍ جـرى القضـاءُ على ما كان من سبب

أظلّكـم خـالد، لا شـيء يبعـثه إلا الجهـاد، يـراه أعظـم القُـرَبِ

وبذلـك تنتهـي رحلتنا مع خالد بن الوليد من خلال ما تضمنه "ديوان مجد الإسلام، أو الإلياذة الإسلامية" لأحمد محرم. وقد قدّمنا من قبل بعض الآراء التي تنصف هذه الإلياذة، وتبعد عنها طابع السرد الجاف، وتُدنيها من الشعر الغنائي، ممزوجة بالصيغ المتنوعة في توجهها، والتأملات العميقة، والـربط بالحاضـر الكئيـب للعـرب والمسـلمين، والـتطلع إلى مستقبل وضّاء، ونهضةٍ مشرّقة (ص 121):

أتـبقى قلـوب الـناس فـي ظُلماتهـا تَظاهَــرُ أكــنانٌ علــيها وأقفــالُ؟

هـو الـنورُ، نـور الله، يمـلأ أرضه فـتلقى الهـدى فـيه عصـورٌ وأجيالُ

أتـى مُطلِـقُ الأسـرى يحـرّر أنفساً لهـا مـن سـجاياها قـيود وأغـلالُ

ونقـف أخـيراً عند شاعر رابع من سورية هو بديع المعلّم، الذي نظم ملحمة ضخمة في بضع مـئات مـن الأبـيات بعنوان "ملحمة اليرموك[1]" على البحر الخفيف، وكلّها أيضاً على رويّ الدال المكسورة، وهي ليست خاصة بخالد بن الوليد وإن كان له دور أساسيّ في تلك المعركة الخالدة، التي سبقتها ممّهدات ومقدّمات، وتبعتها نتائج مهمة وتدابير حازمة. ويأتي ذكر خالد هنا في المواطن التي شارك فيها، وكان له آثار واضحة أو مشهورة، منها اجتيازه الصحراء وبادية السّماوة وتدمر:

وإذا خـالد يقـود السّـرايا ثـم تلقـي لـه لـواءَ الإيـاد

شـقّ قلـب الصـحراء وهـي تشظّى مـن لهيـب الرمضـاءِ عـبر الـرماد

الميامـين طـول سـير الفيافـي حمّلـتها الـتاريخَ فـوق الجـياد

رفعـت مشـعل الحضـارات زهـواً ومشـت عـبر لـيلها المـتآد

ومنها مبارزة خالد لقائد الفرس "هرمز" وتغلّبه عليه:

ومشـى "خـالد" إلـيه كليـثٍ يتشـظّى مـن ثـورة واعـتداد

بعـد لأي تعانقـا بحسـام حيـث تـبدو كفـاءة الأنـداد

[1] نشرت "ملحمة اليرموك" على عدة حلقات في أعداد من المجلد 42 من مجلة "التمدن الإسلامي" بدمشق.

عاجل الخصمَ "خالد" بحسام ... ورماه من فوق ظهر الجواد

ومنها الأعمال الجليلة التي قام بها خالد خلال معركة اليرموك:

يا حسام اليرموك أيُّ مطايا ... أنت أرقصتَها بيوم التنادي؟

بارك المجدُ خصلةً من نبيٍّ ... صُنتَها تحت خوذة باعتداد

ولسانُ حال خالد يقول، وهو أبعد ما يكون عن الغرور، معترفاً بنعمة الإسلام:

من ترى "خالد" يكون؟ وماذا ... شأنُه لولا النبيُّ الهادي

عشتُ عمراً. فنصفُه كنتُ ميتاً ... منذ إسلامي ابتدا ميلادي

وبعد شيء من الاستطراد يعود الشاعر إلى مناجاة خالد وتخيّل حوار بينه وبين خالد حول تلقيب النبي (ص) له بسيف الله، واعتزازه بهذا اللقب، ودعاء النبي الكريم له بالنصر في كل زحوفه ومعاركه:

ودعا لي بالنصر في كل زحفٍ ... أي زادٍ في الذَّوْد يشبه زادي؟

وأخيراً كان لخالد في ملحمة الشاعر بديع المعلّم عدد من المآثر يوم اليرموك، كتوحيد صفوف الجيش، وتشتيت شمل العدو، وحصد رؤوس أفراده، بعد أن حال بينهم وبين النجدات القادمة إليهم:

خالد وحّد الصفوف جميعاً ... إذ دعاهم إسلامهم لاتّحاد

أعمل العزل في صفوف عدوٍّ ... بين شتّى مُشاتهم والجياد

ثم عزل الرومان من كل صوب ... لم تصلهم بقيّة الإنجاد

منجل الموت قائم يحصد الهام ... فتهوي بمنجل الحصّاد...

إن "ملحمة اليرموك" تعدّ من الشعر التاريخي، القائم على السرد المباشر وتأريخ الحوادث، وقد يعطي الشاعر عمله هذا طابعاً غنائياً وجدانياً بين حين وآخر، وهو على كل حال قريب جداً من أعمال سابقيه في "دول العرب وعظماء الإسلام" و "العمريّة" و "الإلياذة الإسلامية" ولعل تسمية الشاعر بديع المعلم لعمله هذا بالملحمة آتية من طولها أولاً ومن أنها تتحدث عن معركة حربيّة ثانياً. ثم إنه لم يلتزم التسلسل التاريخي للأحداث التزاماً دقيقاً، بل قد يؤخر أو يقدّم، وقد يستطرد فيخرج عن الموضوع، كما فعل حين ناجى النبي (ص) ومدحه، وحين راح يشيد بالإسلام، وهارون الرشيد، وموقعة مؤتة،... الخ.

__ب) وأما الاتجاه الآخر لذلك الصدى، صدى خالد بن الوليد في الشعر العربي،__ فهو ذلك الذي خصّ خالداً بقصائد مطوّلة مستقلّة وكاملة تقتصر على شخصيّته وحدها، وجلائل أعماله وعظيم

خصاله. ويختلف هذا الصدى عن قسيمه السابق في أن قصائده أعمال شعرية فنية، تكامل بناؤها، وحملت عناوينها اسم خالد أو لقب "سيف الله"، وفي أنَّ واحدة منها ليست من الشعر المعاصر وإنما هي تعود إلى تلك المرحلة الانتقالية بين أواخر العصر العثماني وبداية عصر النهضة، على خلاف بين الباحثين ومؤرخي الأدب العربي في تحديد نهاية الحكم العثماني، وبدء عصر النهضة الحديثة – تلك هي قصيدة الشاعر الشيخ أمين الجندي (1766-1841م)[1] التي بلغ عدد أبياتها 65 بيتاً[2]، ومطلعها:

نفحات السّعود تُدني بعيدي ... من ثرى روضة المقام السعيد

وهي قصيدة مدحية على البحر الخفيف، سار فيها الجندي على طرائق المدائح النبوية عند البوصيري ومن جاء بعده، إلا أن تلك هي في مديح النبي عليه السلام، وقصيدة الجندي في مدح خالد بن الوليد، ولم يخرج عن موضوعه هذا من حيث المحور الأساسي فيها. وقد بدأها بالتحننّ إلى لقاء الأحباب وأهل المودة:

فبقلبي من التشوّق نارٌ ... من تنائي الأحباب ذاتُ وقودِ

---

[1] الشيخ أمين الجندي من أعيان مدينة حمص. مولده ووفاته فيها. تردد كثيراً إلى دمشق فأخذ عن علمائها، وعاشر أدباءها. سجنه والي حمص أيام السلطان محمود العثماني إثر وشاية بأنه هجاه، ثم أفرج عنه بعد مدة قصيرة بعد مقتل والي حمص على يد بعض الثوار. توفي الجندي سنة 1257هـ/ 1841م.

[2] القصيدة في ديوانه ص 14-18 وللجندي في الباب الثالث من ديوانه، وهو "في القدود اللطيفة والأناشيد الظريفة" نصّ شعري قصير وصف بأنه "عروض (لرسلك سلام يا سيدي)، حجاز" يقول فيه (ص 297):

خالد يا بن الوليد ... يا فتى العزم الشديدِ
أنت سيف الله مُردي ... كل جبارٍ عنيدِ

•

قد سما عز انتصاري ... فيك يا حامي الديارِ
قد علا حقّ الجوار ... يا ملاذاً للطريدِ

•

أنت حصنٌ للعليل ... أنت غوث للدخيلِ
أنت سيف للرسول ... أنت ذو الفضل الحميدِ

•

سيف حق فيه ربعتْ ... عصبة في البخس بيعتْ
من قضاء الله صيغتْ ... ذاته، لا من حديدِ

•

صلّ يا ربّ الأنامِ ... على مصباح الظلامِ
وعلى آلٍ كرامِ ... وصحاب وجنودِ

لستُ أدري ما حيلتي في لقاهُم ... ومتى أشتفي بنَيْلِ ورود

ثم يذكر بعض الأماكن المقدسة متعلقاً بها مثل: الحطيم، والركن، وسلم.. ليصل منها إلى معهد الأصحاب وهي مدينة حمص، حيث يرقد سيف الله خالد بن الوليد. وينطلق من ذلك إلى مدح خالد بسجاياه وجلائل أعماله ومكانته عند رسول الله (ص):

سيفُ مولاه بالفتوحات، حامي ... حوزة الدين بالحسام الحديد

ما شكا عضْبُه الظما يوم حرب ... مذ رواه من نَهْل حبل الوريد

وسل الروم يوم فتح دمشقٍ ... كيف أفناهمُ بعزمٍ شديد

فتح النصف عَنْوةً وجرى الصلح ... مع ابن الجرّاح أكرم صيد

وبعد هذا كله يموت على فراشه دون أن يُرزَق الشهادة:

وغدا يومَ شربِ كأس المنايا ... آسفاً كيفَ؟ بعد قهر الأسود

يلتقي الموتَ وهو فوق فراش ... يشتكي دَمْعَ أهله للخدود

غادرتْه أنْ لو يكون طريحاً ... في ظلال السيوف تحت البنود

وفي الأبيات الأربعة والعشرين الباقية من القصيدة يحمّل الشاعر زائر ضريح خالد رجاءً بأن يذكره في حضرته، لأن "الجندي" كان في ذلك الوقت بعيداً عن حمص:

بعُدت داره وشطّ مزاراً ... ودهتْه خطوب دهرٍ عنيد

ثم يتوجه بالمناجاة إلى خالد نفسه، شاكياً إليه ذنوباً أثقلته، عسى أن يفرّج الله عنه ببركة ذلك القائد ذي المقام الرفيع عند ربّه، وعند النبي الكريم:

سيّدي، إنني محبّك راجٍ ... أن أنال الخلاص يوم الوعيد

أثقلتْني الذنوبُ حتى رمتْني ... في قيود الهوان والتنكيد

ويختم "الجندي" قصيدته ببضعة أبيات يُظهر فيها تواضعه ويطلب قبول العذر على تقصيره في المديح، ويصلّي ويسلّم على النبي (ص) كما هو الحال في القصائد النبويّة:

لستُ بالمادح المُجيد، ولكن ... جُلُّ قصدي ولاؤكم للشَّريدِ

فاجبروا كسره بنظرة عطفٍ ... واسلكوا فيه للعلا والصعود

وصلاةٌ مع السلام دواماً ... للذي حفّكم بعزٍّ مديد

وعلى آله، ومن أتت منهم صحبه غاية الرجا المقصود..

فهذه القصيدة الرائدة ضمّت نفحات شعرية موفقة على ما فيها من بعض الضرورات، وهي ذات طابع ديني بحكم اختصاص صاحبها ومألوف عصره، وقد جمعت بين السرد التاريخي البسيط وبين التأمل والحكم، مع الاقتصار على ما لَهُ علاقة بخالد بن الوليد باختصار وجيز على طريقة المدائح النبوية، مع وصف ضعف حاله وذنوبه، وحبه للنبي (ص) ولخالد.

ونحن لا نطلب منه فوق هذا، وهو الفقيه الذي يمثل عصره وبيئته كما تمثل قصيدته ثقافته.

وفي النصف الأول من القرن العشرين، نظم الشاعر عمر أبو ريشة (1908-1990م) قصيدة بعنوان "خالد بن الوليد"[1] وذلك سنة 1938م وهو يومئذ في نحو الثلاثين من العمر، وبلغ عدد أبياتها 69 بيتاً على البحر الخفيف، وقد حاول أبو ريشة أن يربط فيها بين الماضي التليد والحاضر الطريف، وبدأ بهذا المطلع (ص231):

لا تنامي يا راويات الزمان فهو لولاك موجة من دخان

تتوالى عصوره وبها منكِ ظلالٌ طريّةُ الألوان

أبداً تبسم الحياة عليها بسمة المطمئن للحدثان

إنه يناجي راويات الزمان اللواتي يصدقن في أحاديثهن، ويروين الأخبار على توالي الأيام فيمنحنها نداوة وطراوة، ويبثها الشاعر شجونه وبنات صدره. ويستمدّ منها إلهامه ومعانيه، لينطلق إلى عوالم فسيحة ذاتية ووجدانية، وتاريخية وقومية، تتفق والحالة التي تمرّ بها الأمة العربية في ذلك الحين، والحرب العالمية الثانية تدق طبولها وتقصف بوادر رعودها وبرقها، والشاعر مستوفز الأحاسيس توقظه الذكرى، فيهمي الشعر على لسانه: (ص232):

راويات الزمان هل شعر الرملُ بنفض الغبار عن أرداني؟

وانفلاتي من الغيوب بأقدام غريبٍ نائي الحمى حيرانِ

ما له في وجومه يغمز الشعر فيهمي مَثالثاً ومثاني؟

ويصل الشاعر بعد هذا التقديم إلى "موقعة أحد" وما كان من استعداد قريش وبني مخزوم بالسلاح والخيل ليثأروا لهزيمتهم في "موقعة بدر" وساعدهم على ذلك انشغال الرّماة المسلمين بجمع الأسلاب والغنائم، وثبت النبي (ص) في القتال وهو يصيح بأصحابه أن يعودوا إلى القتال (ص233):

[1] نشرت هذه القصيدة في ديوان "من عمر أبو ريشة- شعر" المطبوع في بيروت سنة 1947م ص 231-240 كما نشرت ثانية في دواوينه الأخرى التي ظهرت فيما بعد.

ما أرى؟ هذه ذوائب مخزوم ... وهذي خيامهم والمغاني

سدلوا الأُزر مغضَبينَ وشدّوا ... الخُمرَ واستلأموا ليومِ رهانِ

يطلبون النبي في "أحدٍ" والثأرُ ... طاغٍ، لم يَثْنِهم عنه ثانِ

وثب الهول وثبةً فلّت البَيْضَ ... وشَظَّتْ عواليَ المُرّان

وعدا المؤمنون في غفلة النصر ... وراء الأسلاب كالعقبان

فدوت صيحةُ النبي، فثابوا ... فإذا هم في قبضة العدوان

ويشعر المسلمون بالحرج والخجل لما كان منهم، مما فسح المجال لخالد بن الوليد أن يداهمهم من الخلف. ويعقب الشاعر هنا على ذلك بالحديث عن خالد وعبقريته في القتال، حيث يبعد به الخيال إلى ما تخبئه الأيام لخالد من الهدى والدخول في الإسلام، وتكفيره عن ذنوبه السابقة بصدق الإيمان وصدق الجهاد في الفتوح والدفاع عن حوزة الدين (ص235-237):

أطرق المؤمنون، والأملُ العاتب ... يَندى على الجباه العواني

إنه ابن الوليد زغردةُ النصر ... وأنشودة الجهاد الباني

مرّ في ناظريَّ طيفاً بعيداً ... عبقريُّ النضال ثبتَ الجَنان

وكأني أراه يضرب شرق الأرض ... بالغرب، مُشرق الإيمان

وأرى كبرياءه دمعةَ التكفير ... مسفوحةً على القرآن

صدق العهدَ فالفتوح تَوالى ... وصدى خالد بكل مكان

وبعد ذلك يتحدث أبو ريشة عن مآثر خالد في الفتوح، وشيوع صدى بطولاته في البلاد، وانتصاراته على الروم في اليرموك وغيرها. ولا يغفل الوقوف عند قضية القضايا وهي عزل عمر لخالد عن القيادة خوفاً من أن يُفتنَ به الناس، وانصياع خالد لهذا الأمر الصادر عن الخليفة الجديد، أعني الفاروق عمر، بصدر صاف وقلب سليم (ص238):

فتنةٌ خيفَ أن يَشيع بها الزهوُ ... فتُلوي بالقائد الفتّان

فنحاه الفاروق، فانضمَّ للجند ... فخوراً بعزّة الإذعان

لم تزعزعِ من عزمه إمرةُ الفاروق ... بل فجّرته فيضَ تفاني

وإذا راضت العقيدة قلباً ... فمن الصعب أن يكون أناني

وفـي أحـد عشر بيتاً بعد ذلك، وقبل ختام القصيدة يتوجه أبو ريشة بالخطاب إلى القائد الدفين تحت التراب، عساه يصغي إلى حديثه (ص239):

يـا مسجّى فـي قـبة الخلد، يا خالد ... هـل مـن تلفّـتٍ لبياتـي

وهـنا يحلـو له أن يـوازن بين ماضي الأمة الزاهر، وحاضرها الذليل في أبيات عالية القوة والغليان، ومع ذلك لا يبعد عن التفاؤل والرجاء:

أنـا مـن أمـةٍ أفاقت علـى العـزّ ... وأغفَـتْ مغموسـةً فـي الهـوانِ

لا تقـل ذلّـت الـرجولة يـا خـالد ... واستسـلمت إلـى الأحـزان.

حمحمـات الخـيول فـي ركبك الظافر ... مـا زلـن نشـوة الآذان

قـم تلفّـت تـرَ الجـنودَ كمـا كـانوا ... منـار الإبـاء والعـنفوان

مـا تخلّـوا عـن الجهـاد ولكـن ... قـادهم كـلّ خائـنٍ وجـبان

ويخـتم القصيدة بالعودة إلى "راويات الزمان" يناجيها لتغسل عن كاهله عبء الذكريات الثقيلة، أو لتوقظ النائمين من غفوتهم حتى تتفتح عيونهم للنور، وتستمتع بمجالي الحياة الجميلة.

تعـد هذه القصيدة من أجمل ما قيل في خالد بن الوليد، وقد لاحظنا أن عمر أبو ريشة لم يقف موقف المؤرخ الواصف لحياة خالد، بل كان همه منصرفاً إلى المعنى الشعري الذي يجد له مرتكزاً فـي الصـورة والخيال، فيرسمه بدقة وتدبّر وتلاوين مناسبة للمقام، ولا يهتم بالتفصيلات التاريخية كثـيراً، ولا بتسلسلها، بل باللقطات الشعرية، ولذلك أغفل عدة مواقف في حياة خالد، واكتفى ببعض مـنها ممـا يعيـنه على بناء قصيدته موفراً لها الموسيقا في اللفظ، والجدّة في الصور، والجمال في الألوان والظلال[1].

ومن القصائد المعاصرة التي يجدر بنا ذكرها هنا قصيدة: "أوراق مطوية من مذكرات سيف الله المغمـد"[2] للشـاعر المصري أحمد عنتر مصطفى. وهو في قصيدته هذه يحاول استغلال شخصية القـائد خـالد بـن الوليد "لإبراز المفارقة بين روح الجهاد المتوقدة التي كانت تضطرم بين أضلاع المجاهد القديم، وروح الضعف والانكسار التي تسري في أوصال خلفه". والشاعر يبرز هذه المفارقة بـدءاً مـن عـنوان القصـيدة "فخالد الذي يتحدث عنه ليس "سيف الله المسلول" وإنما هو "سيف الله المغمد"... إنه ليس ذلك البطلَ المنتصر الذي لم يهزم في حرب قط، وإنما هو خالدٌ معاصر مهزوم،

---

(1) لم نُطل الوقوف عند قصيدة عمر أبو ريشة هذه في "خالد بن الوليد"، ونحيل القارئ على البحث الوافي المنشور في هذا العدد من "التراث العربي" عن "خالد بن الوليد في مرآة عمر أبو ريشة".

(2) نُشرت في مجلة "الآداب" عدد نوفمبر 1972م، ص 38.

بلغت الهزيمة نخاعه، حتى إنه ليشرب نخب انتصار عدوه:

أوّاه يا مخزوم

الشوك في الحلقوم

والقائد المهزوم

يشرب نخب الروم

ولكن خالداً -وإن حمل وحده وزر هذه الهزيمة- ليس هو المسؤول عنها وإنما هو ضحيتها وشهيدها. إنما المسؤول هو ذلك الواقع المهزوم المنهار الذي يحيط بخالد، والذي تحولت شعلة الجهاد التي كانت تتأجج بين جنبيه إلى روح تخنّث وميوعة. فماذا يفعل خالد وحده وسط هذا الواقع الفاسد، وهو الذي تحمل وحده كل الجراح وكل الغصص؟:

وحين ترين رماحي بكف الصبايا تحوك، تطرز صوف التريكو

بأمسية من أماسي الشتاء مع المدفأة

وتغدو سهامي مراود كحل أمام المرايا، وبين الجفون تقلّبهن امرأة

فتستصرخين دمي العاصفا

وتنكسرين وتنحسرين كأغنيةٍ في الضمير تراخت ولمّا تجد عازفا

فلا تنكري همتي... فإن بظهري بقايا رماحهم الواعدة.

وظلّ سنابك خيلهم المرجأة.

والأليم بعد ذلك أن يكون من يدين خالداً هو ذلك الواقع المنهار الذي تحوّلت فيه الرماح إلى إبر تطريز بين يدي فتياته، والسهام إلى مراود كحل. ويستغل الشاعر هنا -ببراعة- ملمحاً تراثياً وهو سخرية أهل المدينة بالجيش العائد من مؤتة بقيادة خالد الذي رأى أن أفضل الأوضاع بالنسبة لهذا الجيش- الذي تولى قيادته بعد استشهاد زيدو جعفر وابن رواحة -أن يعود به سالماً إلى المدينة، فكان أهل المدينة يشيرون إلى الجيش العائد ويقولون "ها هم الفرّار" ولكن الرسول عليه السلام كان يردّ عليهم: بل "الكُرّار بإذن الله":

تلطمني العيون في قريش منذ عدت

ينكرني شبابها الغريق في الملاهي

وفي غشاوة الفخار والتباهي

وينظمون حول قصتي الأشعار

ويهتفون -كلما مررتُ بين رفقتي المشعثين- "ها هم الفُرّار"

أموت قبل الموت في حروفهم مكفناً بالعار"(1)

وخاتمة المطاف في هذه الجولة عن القصائد المطوّلة التي اختص بها القائد خالد بن الوليد، هي قصيدة الشاعر المهجري الياس قنصل (1914-1981) وهي أطول قصيدة مستقلة قيلت في خالد بن الوليد(2)، إذ بلغ عدد أبياتها 105 أبيات على البحر الطويل ورويّ الدال، ومطلعها:

رفعتَ لمجد العُرب ذكراً مخلّدا ... وكنت لدين الله سيفاً مجرّدا

وقد بدأها بأبيات تحدث فيها عن مآثر خالد في صيانة الإسلام وتدمير معاقل الطغيان، ودحره للفرس والروم، وحسن معاملته لأهالي البلاد المفتوحة. وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن شخصية خالد وفضائله النفسية وسجاياه، وخبرته بالقتال، وآرائه السديدة، وجراحاته السبعين في المعارك:

تجانس فيك الغيظ والعطف والتقى ... كفاحك في الإسلام بالعنف والندى

تمدك بالرأي المرجّح خبرةٌ ... تحلّ على آثارها ما تعقّدا

إذا ضرب الأعداءُ للكأس موعداً ... ضربتَ بساح السيف والرمح موعدا

تدويك عن "سبعينها" تشهد الوغى ... ولستَ تبالي أن تضاعفها المُدى

ويعرّج الشاعر على الصلة الوثقى لخالد بأصحابه الكرام الذين يبجلونه ويسيرون في ركابه طائعين تحت لوائه المظفر:

صحابك بين الفتح والحكم معشر ... تبارت سجاياهم جهاداً وسؤددا

بأخلاقهم ساسوا النفوس فأذعنت ... وأمسى طريق النبل فيها ممهّدا

ويسوقه ذلك إلى الحديث عن حسّاد خالد وكاشحيه الذين خابت مساعيهم ولم ينالوا منه شيئاً:

وحاول أن يغلو بشتمك كاشح ... مهمّته أن يستريب وينقدا

وضلّ بما يرجو وأدبر خائباً ... وعاد يغشّيه الهوانُ منكّدا

ويقف قنصل بعد ذلك عند إسلام خالد وقد أعرض عن إغراءات الأقربين له بالتراجع عما اعتزمه، كما يقف وقفة قصيرة عند دور خالد في حروب الردة، وبعض المشكلات التي واجهته خلالها. ثم تحدث عن قضائه على هرمز الفارسي وجيشه، وتحريره للشعوب التي استضاءت بنور

---

(1) الأبيات المختارة لأحمد عنتر مصطفى، مع تحليلها والتعليق عليها هنا، كل ذلك مأخوذ من كتاب "استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر" لمؤلفه الفاضل د. علي عشري زايد، ص 160-162.

(2) نشرت قبل وفاة الشاعر بسنتين، في مجلة "الفيصل" في العدد 23 بتاريخ جمادى الأولى 1399 هـ/ أبريل 1979 صفحة "104-105".

الإسلام.

ويتجه بعد ذلك إلى الشام مجتازاً الصحراء والمفاوز بما يشبه الأسطورة حتى خاض معركة اليرموك المظفّرة، وكانت النتيجة تنحيته عن القيادة، فارتضى حكم الخليفة الفاروق وبقي جندياً يحارب في صفوف المسلمين، كما بقي سرّ تنحيته غامضاً ومجهولاً:

وأنجدت جيش الفتح في الشام قاطعاً ... صحارى يجول الموت فيها معربدا
تسابق في الجري النهار مفكّراً ... وتقضي الليالي الكالحات مسهّدا
ونازلت أقيال العداة مفاجئاً ... وغادرتهم جيشاً شتيتاً مُهَدْهَدا
وأصبحت اليرموك للعرب عالماً ... جديداً، وعهداً بالإباء ممجّدا
ونحّتك عن رأس القيادة رغبةٌ ... ستبقى على التفسير سراً ملبّداً
فلم تتظلّم وارتضيتَ بحكمها ... وكنت قديراً أن تندّ وتحردا

ولا ينهي الياس قنصل قصيدته قبل أن يعلن عن أمنيته وتلهفه لظهور قائد جديد لهذه الأمة العربية التي توالت عليها الحادثات والمحن، وهي في أمسّ الحاجة إليه في هذه الظروف الصعبة:

ألا قائد ثانٍ لأمة يعرب ... يحرك فيها عزمها المتجمّدا؟
ألا قائد ثانٍ يداوي اعتلالنا ... ويجعل دنيا العُرب صفاً موحّدا
إلام نغضّ الطّرفَ عن ربوة العلا ... ونلبث في سفح الكلال تردّدا
أما حان أن نجري على نحو خالد؟ ... أما حان أن نرضي النبيّ محمدا؟

وهكذا تنتهي قصيدة الياس قنصل التي تحتاج إلى وقفات أطول لا يتسع لها المجال. وقد انطلق فيها قنصل انطلاقة شاعر لا مؤرخ. واختار الوقوف عند شخصية خالد من جوانب اختارها هو، ولم يحرص على استقصائها جميعاً. وهذا ما يسعى إليه الشعر والفن. وخاتمة قصيدته تَشِي بغرضه من نظمها وهو التطلع إلى قائد جديد للعرب يتحلى بتلك السجايا والخصال التي عرض الياس قنصل لبعض منها، وينقذ الأمة مما حلّ بها من التردي والانحطاط والضعف، على كثرة الزعامات والرياسات في هذا العصر الأنكد.

لقد كانت قصيدة الياس قنصل في "خالد بن الوليد" لقطات فنية موفقة، بعيدة عن السّرد التاريخي الجاف، وقد بث الشاعر فيها كثيراً من الصور الجميلة، والحِكم المستمدة من سيرة خالد نفسه مثل:

ومن رام حجب الشمس بالكف لم يقم ... حواليه إلا السّخْر مما تعمدّا
ومن كان في عرف الشمائل فرقدا ... يظلّ، وإن ضجّت أعاديه- فرقدا

***

تلك هي جملة أصداء خالد وسيرته وأعماله في شعرنا العربي، قديمه وحديثه، ولم نقصد فيها إلى الاستقصاء والتتبع الدقيق، مراعاة للمقام، وإنما أردنا أن نجلي الطرائق والخطوط العريضة التي ميزت تلك الأصداء التي كانت عالية قوية حيناً، وخافتة ضعيفة حيناً آخر، وتأريخاً سردياً مرةً، وفناً شعرياً راقياً مرة أخرى، بحسب ثقافة الشاعر وبراعته أو بحسب العصر وتقاليده الأدبية والنقدية، لكن هذه الأصداء -على كل حال- قد حرّكت أذهان الشعراء، وهاجت نفوسهم. ودفعتهم إلى القول وإلى خوض هذا الميدان وربطه بالحاضر المعيش للأمة العربية التي تفتقر اليوم إلى قائد يسطّر الأعاجيب، ويفعل الأساطير لبعث أمجاد هذه الأمة، وبناء حاضرها، والإعداد لمستقبلها.

□

المصادر والمراجع:

(1) الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث: عمر الدقاق – حلب 1977م.

(2) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر: علي عشري زايد- طرابلس 1978م.

(3) الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني- القاهرة 1939م.

(4) الأعلام: خير الدين الزركلي- القاهرة 1954- 1959م.

(5) الأعمال الشعرية الكاملة: أمل دنقل- بيروت، القاهرة 1970م.

(6) الأوائل: أبو هلال العسكري- تح. محمد المصري، وليد قصاب- دمشق 1975م.

(7) البراعم: عمر يحيى- حلب 1936م.

(8) تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر: عبد القادر بدران- بيروت 1979م.

(9) حافظ إبراهيم، شاعر النيل: عبد الحميد سند الجندي- مصر 1959م.

(10) خالد بن الوليد: بكر موسى- القاهرة 1392هـ/ 1972م.

(11) خالد بن الوليد: عمر أبو النصر- بيروت 1359 هـ/ 1934م.

(12) دراسات في الشعر العربي المعاصر: شوقي ضيف- القاهرة 1959م.

(13) دول العرب وعظماء الإسلام: أحمد شوقي – بيروت 1981م.

(14) ديوان حافظ إبراهيم: صححه وشرحه أحمد أمين، والزين، والأبياري- القاهرة 1937م.

(15) ديوان شوقي: أحمد شوقي- تح: أحمد محمد الحوفي- القاهرة 1979م.

(16) ديوان الشيخ أمين الجندي: بيروت 1321هـ.

(17) ديوان عبد الله البردوني: المجموعة الأولى (من أرض بلقيس)- بيروت 1986م.

(18) ديوان مجد الإسلام، أو الإلياذة الإسلامية: أحمد

محرم- تصحيح الجبوشي- القاهرة 1963م.
(19)شعر، أقتمه إلى الفن، عمر أبو ريشة- حلب 1936م.
(20)شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام: النّعمان القاضي- القاهرة 1965م.
(21)الشعراء الأعلام في سورية: سامي الدهان- بيروت 1968م.
(22)شوقي، شاعر العصر الحديث: شوقي ضيف- مصر 1957م.
(23)شوقي، شعره الإسلامي: ماهر حسن فهمي- مصر 1959م.
(24)عيون الأخبار: ابن قتيبة- القاهرة 1383هـ/ 1963م.
(25)من الضائع من معجم الشعراء للمرزباني: تح. إبراهيم السامرائي- بيروت 1984م.
(26)من عمر أبو ريشة، شعر: عمر أبو ريشة- بيروت 1947م.
(27)معجم البلدان: ياقوت الحموي- بيروت 1955- 1957م.

المجلات:

1-الآداب- بيروت: نوفمبر 1972م.
2-التمدن الإسلامي- دمشق: المجلّد 42.
3-الفيصل- الرياض: ع 23/ جمادى الأولى 1399 هـ/ أبريل 1979م.
4-الموقف الأدبي- دمشق: ع 374/ حزيران 2002م.

□□□

خالد بن الوليد
في مرآة "عمر أبو ريشة"

محمد قجة

تمهيد:

لسنا *الآن في سياق بحث تاريخي يتناول من خلاله عمر أبو ريشة سيرة القائد العربي الكبير "خالد بن الوليد". ولكننا أمام لوحة فنية متميزة صنعها عمر أبو ريشة بوحي من سيرة القائد العربي "خالد".*

وموضوع الشخصيات التاريخية أثير لدى الشاعر "أبو ريشة". فلقد أفرد في دواوينه خمس قصائد تتناول السيرة النبوية بصورة أو بأخرى.

ففي مجموعته الأولى "شعر أقدمه إلى الفن" قصيدة دالية عنوانها "لمحة" تتناول السيرة النبوية في ثمانين بيتاً وتعود إلى عام 1935[1] ومطلعها:

أوقفي الركب يا رمال البيد ... إنه تاه في مداك البعيد

وفي ديوانه الثاني "من عمر أبو ريشة" قصيدتان في الموضوع نفسه. الأولى همزية تاريخها 1941 من 100 بيت بعنوان "محمد"، ومطلعها[2]:

أي نجوى مخضلة النعماء ... رددتها حناجر الصحراء

والثانية ميمية من 51 بيتاً بعنوان "يا رمل" في ذكرى المولد النبوي، ومطلعها[3]:

يا رمل ما تعب الحادي ولا سئما ... ولا شكا في غوايات السراب ظما

(1) عمر أبو ريشة شعر أقدمه إلى الفن، ص 179، مطبعة العصر الجديد، حلب 1936.

(2) عمر أبو ريشة من عمر أبو ريشة، ص 112، مطبعة الكشاف، بيروت، 1947.

(3) عمر أبو ريشة، من عمر أبو ريشة، ص164، مطبعة الكشاف، بيروت، 1947.

وفي مجموعة "أمرك يا رب" قصيدتان تتصلان بالسيرة النبوية. الأولى نونية من 65 بيتاً بعنوان "من ناداني" ومطلعها[1]:

رد لي ما استرد مني زماني   وأراني ما الحلم كان أراني

والأخرى لامية من 102 من الأبيات عنوانها "أنا في مكة" ومطلعها[2]:

لم تزالي على ممر الليالي   موئل الحق يا عروس الرمال

وفي هذه القصائد جولات هامة وتفصيلية في السيرة النبوية وأبرز الشخصيات في تلك المرحلة، والموضوعات المؤثرة كالمعارك والفتوحات، وما ينتهي إليه أبو ريشة من إسقاطات معاصرة.

كما تناول أبو ريشة الموضوع التاريخي في بعض مسرحياته، وبخاصة مسرحية "ذي قار"[3].

وهناك موضوع أثير آخر لدى عمر أبو ريشة هو الحديث المطول عن الشعراء الذين يحبهم. فلقد أفرد لكل من المتنبي والمعري وديك الجن والريحاني وبشارة الخوري وشوقي وحافظ إبراهيم وأحمد الصافي النجفي قصيدة تخصّ كل واحد منهم. وتحدث عن الشعراء المعاصرين في مسرحية "محكمة الشعراء". وأفرد قصيدة لسيف الدولة الحمداني[4].

* * *

وفي محاولة منا لتفسير هذا الولع بالموضوع التاريخي لدى عمر أبو ريشة لابد لنا من إلمامة ببواكير نشأته في أسرة عربية ذات اهتمام ثقافي وتراثي وصوفي. فقد درس القرآن الكريم وشهد الأذكار الصوفية وقرأ الشعراء القدامى وحفظ لهم. وأضافت إليه الأسفار خبرة نوعية من خلال عمله في السلك الدبلوماسي، وإلمامه بعدد من اللغات كالفرنسية والإسبانية والتركية والإنكليزية.

هذا المزيج من المكونات الثقافية جعل من عمر فناناً متميزاً يبدع في صوغ اللغة، وتركيب الصورة، وتكوين الموسيقا، في تناغم قدير يمسك بناصية الكلاسيكية والرومانسية في وقت معاً. فترى لديه عذوبة الرؤية ورمزية الأداء، ونبرة الإيقاع، والقدرة على توليد الصور.

نشأ الشاعر والبلاد تخرج من إطار الحرب العالمية الأولى مقسمة ممزقة والاحتلال الفرنسي البغيض جاثم فوق الأعناق. وصور البطولة الوطنية تعبر أمامه من خلال الثوار ضد هذا الاحتلال، فنجده يلجأ إلى الماضي المجيد باحثاً عن رموز البطولة ليستحضرها ويُسقط ظلالها على الواقع.

وكان شبح مأساة فلسطين يزداد هولاً واقتراباً، والشاعر يرى كيف يتخاذل الحكام، وكيف

---

(1) عمر أبو ريشة، أمرك يا رب، ص23، دار الأصفهاني، جدة، 1984.
(2) عمر أبو ريشة، أمرك يا رب، ص37، دار الأصفهاني، جدة، 1984.
(3) عمر أبو ريشة، ذي قار، المكتبة الحلبية 1931.
(4) عمر أبو ريشة، مجلة الحديث، ص 94، السنة 14، حلب.

يعسف الاحتلال، وكيف تحاك المؤامرات.

* * *

كـــان عمر أبو ريشة في الثلاثين من عمره حينما نشر قصيدة "خالد" فتاريخ القصيدة يعود إلى عـــام 1938 كما تشير كل طبعات الديوان[1]. وإذا نحن استثنينا قصائد السيرة النبوية، فإن خالداً هو الشخصية التاريخية الوحيدة في العصر الإسلامي الأول، التي خصّها أبو ريشة بقصيدة كاملة.

وخـــالد، هو أشد قائد عسكري عرفه التاريخ الإسلامي، وهو القائد الذي لم يُهزم قطّ، حتى وهو علـــى شـــركه. وخـــالد من نخبة قريش وفتيانها وفرسانها، ويلتقي نسبه مع الرسول الكريم في الجد السابع[2] وذلك على النحو التالي:

1-محمـــد بـــن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب.

2-خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الملك بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب.

ويـــروي مصـــعب الزبيري في كتابه "نسب قريش" [أن خالداً كان مباركاً، ميمون النقيبة، دعي "ســـيف الله" وقال الرسول حين إسلامه: "رمتكم مكّة بأفلاذ كبدها" وولاه الرسول أعنة الخيل وجعله فـــي مقدمته. وكان خالد أثيراً عند أبي بكر، وقد هزم أهل الردة وقتل مسيلمة، وفتح الحيرة والسواد، وأمّره أبو بكر على الشام حتى عزله عمر][3].

فـــي هـــذا النص المجتزأ لمصعب الزبيري يمكننا تحديد المحاور الهامة في حياة خالد ودوره الحاسم في أكثر هذه المحاور، وذلك على النحو التالي:

1-ولـــد خالد لأسرة عظيمة في قريش كانت لها القبّة والأعنّة. ووالده الوليد بن المغيرة نزلت فـــيه الآيـــات الكـــريمة: "ذَرني ومن خلقتُ وحيداً، وجعلتُ له مالاً ممدوداً، وبنين شهوداً، ومهّدتُ له تمهيداً، ثم يطمع أن أزيد، كلاّ إنه كان لآياتنا عنيداً، سأرهقُه صَعوداً..."[4].

وكان الوليد من أثرياء قريش وزعيم مخزوم.

2-نشـــأ خـــالد في بيئة مترفة، وتوفّر له المال والجاه والفروسية، وظهرت عليه ملامح النبوغ العسكري والقيادي المبكر.

3-شارك خالد وهو مُشرك في عدد من الأعمال ضد المسلمين، أهمها "معركة أحد" ودوره في تعديل نتيجة المعركة ضد المسلمين، ثم في الخندق والحديبية وعمرة القضاء[5].

---

(1) عمر أبو ريشة، ديوان عمر أبو ريشة، ص537، دار العودة/ بيروت، 1988.

(2) ابن هشام، سيرة ابن هشام، ص 143، القاهرة، 1356هـ.

(3) مصعب الزبيري، نسب قريش، ص320، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1982.

(4) سورة المدثر، الآيات من 11 حتى 17، وبقيّتها حتى الآية 27.

(5) إن المعلومات التاريخية في هذا الجزء مستقاة أساساً من تاريخ الطبري. وكتب الصحابة وبخاصة الإصابة للعسقلاني.

4-بعد إسلامه شارك خالد خلال حياة الرسول في اثني عشر عملاً عسكرياً لعل أبرزها غزوة مؤتة وفتح مكة ودومة الجندل.

5-كـان لخـالد الدور الحاسم في قمع حركة المرتدين الخطيرة والواسعة وخاض في ذلك سبع معـارك كانـت أقسـاها معركة "اليمامة" ضد مسيلمة وبني حنيفة. وأسهم هذا الدور في ترسيخ الإسلام في الجزيرة العربية وانطلاقه إلى آفاق أبعد.

6-خـاض خـالد ثماني معارك في العراق حطّم خلالها الغطرسة الفارسية وألقى الرعب في قلـوب الجـيوش الفارسية، مما سهّل لسعد بن أبي وقاص مهمة النصر في "القادسية" بعد ذلك. وأبرز معارك خالد في العراق كانت في الولجة والحيرة والأنبار.

7-بلـغ خالد ذروة المجد العسكري التاريخي في معركة اليرموك الفاصلة الحاسمة التي كانت تحريـراً لـلأرض العربـيّة مـن الاحتلال الأوربي الذي دام ألف عام بأشكاله الإغريقية والرومانـية والبيزنطـية. وخـاض قبل اليرموك وبعدها أكثر من عشر معارك في جبهة الشام.

8-تتحدث الروايات التاريخية باضطراب واختلاف عن قضية عزل خالد عن قيادة جبهة الشام مـن قبل عمر. ولسنا الآن بصدد الغوص في هذه الروايات، فهذا يحتاج إلى بحث مستقل مستفيض.

9-أخـيراً يتوفى خالد ويُدفن في حمص حيث مثواه الأخير. برغم إشارة بعض المصادر القليلة إلى غير ذلك.

* * *

ونتساءل الآن: ما الذي توقف عنده أبو ريشة وهو يرسم لوحته الفريدة بعنوان "خالد".

هل اتبع أبو ريشة نسقاً تاريخياً يَرْصُد الأحداث وينقلها إلينا بأمانة المؤرخ الموضوعي؟

هل ألمّ أبو ريشة بكل جوانب حياة خالد تفصيلاً؟

هل استوقفتْهُ حادثة دون أخرى؟

لقـد تـناول أبو ريشة موضوعه بريشة الفنان، وليس بلغة المؤرخ. ولكنه الفنان المنغمس في قضـايا أمـته، المؤمن بتراثها وبطولاتها، الفنان الذي يرى الواقع العربي الممزق، وسياط الاحتلال تكوي جوانب الوطن، ومؤامرة الصهيونية والاستعمار العالمي تهمّ بقضْم "فلسطين" وما بعدها.

تقـع قصـيدة خالد في 69 بيتاً من البحر الخفيف ومن رويّ "النون" ويمكننا تقسيم القصيدة فنياً إلى الأجزاء التالية:

أولاً: مقدمـة فلسـفية تاريخية عامة تتألف من ستة أبيات، يخاطب من خلالها الشاعر "راويات الـزمان" طالـباً مـنها أن تمـنحه الرؤية التي يتمكن من خلالها أن يُنطق شفتيه بالغناء، وأن يردد

قلبه الصلاة[1]:

لا تنامي يا راويات الزمان ... فهو لولاك موجةٌ من دخان

تتوالى عصوره وبها منكِ ... ظلال طريّة الألوان

أبداً تبسم الحياة عليها ... بسمةَ المطمئنّ للحَدَثان

أسمعيني حفيف أجنحة الإلهام ... من أفقك القصيّ الداني

وانثري حولي الأساطير فالروح ... على شبه غصة الظمآن

حسبُهما أن أردّها لك من قلبي ... صلاةً، ومن شفاهي أغاني

هذه المقدمة الفلسفية تصلح أن تكون تمهيداً لأيّ نص شعري تاريخي لدى عمر أبو ريشة، ونلاحظ فيها نسق المفردات المتناغمة المتلاحقة: [الزمان –العصور– الحياة– الحدثان– الأساطير– الصلاة– الأغاني]...

وهذه المفردات على بساطتها نقلنا من خلالها الشاعر إلى أفق التأمل التاريخي الإنساني، لينتقل عبرها إلى المدخل الثاني من قصيدته.

ثانياً: يدخل أبو ريشة في عصر النبوة من خلال مخاطبته "روايات الزمان" مرة ثانية. ومن جديد تتماوج مفرداته الغنية بأدائها لتنقلنا إلى الموضوع: [الرمل –الغبار– الأجيال– الطيوف– الغيوب– الوجوم– النبيّ– الفتح– الصحراء– موطني الأجرد– المجد...] وتتألف هذه القطعة من ثمانية أبيات.

وعبر هذه اللوحة ينسج الشاعر طريقة ليدخل في عصر النبوة، متسائلاً مع روايات الزمان إذا كانت الأجيال تذكر نفحات المجد التليد، وذكريات البطولات في عصر النبوة... ونرى الإلحاح على مفردات: الرمل –الصحراء– الأجرد... الخ. يؤكد من خلالها أبو ريشة همومه التاريخية[2]:

راويات الزمان هل شعر الرمل ... بنفض الغبار عن أرداني

وهبوب الأجيال في يقظة الذكرى ... وتهويمة الطيوف الرواني

وانفلاتي من الغيوب بأقدام ... غريب نائي الحمى حيران

ما له في وجومه يغمز الشعر ... فيهمي مثالثاً ومثاني

نفحات النبيّ، والفتح، والعلياء، ... والعزّ، والندى، والبيان

---

(1) عمر أبو ريشة، الديوان، 537-538.

(2) عمر أبو ريشة، الديوان، 538-539-540

رعشات في أضلعي ماجت الصحراء ... فيها وماج فيها افتتاني
صدق الحب أن موطني الأجرد ... روضي وجدولي ودناني
يُنبت المجد قبل أن ينبت الورد ... ويعطي الثمار قبل الأوان

ثالثاً: يصل أبو ريشة إلى سلامة موضوع "خالد"، وها نحن أمام لوحة فريدة تصور معركة "أحد" في ستة وعشرين بيتاً.

هل تستحق معركة أحد نسبة 40% من القصيدة؟! بينما سنجد أن أحداثاً برمتها قد تغاضى أبو ريشة عن ذكرها كحروب الردة وفتوح خالد في العراق.

أبو ريشة هنا ليس مؤرخاً يعرض الأحداث ويحلّلها ويفسّرها. إنه الفنان الذي يبحث عن "حبكة" يبني عليها رؤيته للموضوع والحدث، وقد وجد هذه الحبكة في معركة "أحد" التي كان دور خالد سلبياً فيها تجاه المسلمين، فحاول أبو ريشة أن يجعل من لقاء "أحد" بين الرسول الكريم وبين خالد المشرك نقطة الانطلاق التي زعزعت شخصية خالد المشرك ووضعت أولى خطواته على طريق الإيمان، وفجرت فيه طاقات القائد العسكري المبدع الذي لم يعرف له التاريخ الإسلامي مثيلاً.

وهذه اللوحة عن معركة "أحد" بأبياتها الستة والعشرين، تنقسم بدورها إلى أربعة أقسام:

أ-نحن أولاً في مكة، وبنو مخزوم مع قريش يستعدون للثأر من هزيمتهم في معركة بدر. ومخزوم هم أصحاب القبّة والأعنّة، أي أنهم المسؤولون عن الاستعداد للحرب. وهاهو أبو ريشة يمضي إليهم في مرابعهم يصور لنا استعدادهم قبل المعركة[1] في خمسة أبيات:

ما أرى؟! هذه ذوائب مخزوم ... وهذي خيامهم والمغاني
ما لهم زيّغ الحلوم يُعدّون ... كريم الهشيم للنيرانِ
سدلوا الأُزرَ مغضبين وشدوا ... الخُمر، واستلأمُوا لِيَوْم رهانِ
يطلبون النبي في "أحد" والثأر ... طاغ، لم يثنهم عنه ثانِ
وامتطوها مذاكياً تخطف الأرض ... وعضّاتها على الأرسان

خرج الموكب من مكة... فيه ذوائب مخزوم، وقد تحركوا بنزق وعصبية وغيظ، أعدوا الخيام وهشيم النيران، وشدوا الخُمر على وجوههم والأزر على أجسادهم، ولبسوا لأمة الحرب من الدروع، وموجة الحقد والثأر في نفوسهم تجعلهم يدفعون الخيول لتخطف المسافات وصولاً إلى ساحة المعركة.

ومن جديد نرى براعة الشاعر عمر أبو ريشة في صياغة مفرداته وإلباسها وحي معانيه.

[1] عمر أبو ريشة، الديوان، 540-541-542-543-544-545.

مفردات تلائم عصر القصيدة التاريخي، ويصفها الشاعر المبدع في إطار عصره الحديث: [ذوائب – خيام – الهشيم – الأزر – الخمر – استلأموا – الثأر – مذاكيا – الأرسان...].

ب–في الأبيات الثلاثة التالية يضعنا الشاعر في أرض معركة "أحد" بطرفيها: المسلمون يدافعون عن الحق ويحمونه بسيوفهم. والمشركون بأحقادهم وخلفهم النساء الجاهليات يُثرن تلك الأحقاد:

أحدٌ لاح حين لاح عليه ... عالمٌ ضمن هيكل إنساني
زرع الحق في كتاب مبين ... وحماه بكل عضب يماني
كيف يطوى الحسام والجاهليات ... هيام الأوثان بالأوثان

جـ–بدأت المعركة في "أحد". ويسير الشاعر مع الخطّ الزمني التاريخي فيعرض لنا في ثمانية أبيات كيف أن الرماة المسلمين تخلّوا عن مواقعهم جرياً وراء الغنائم. إنها النفس البشرية بين القمة والقاع، وكيف أن القائد البارع "خالداً" وهو المشرك في جيش قريش استطاع أن يلتقط اللحظة المناسبة، فانعطف إلى الجبل بعد أن تركه الرماة وحوّل هزيمة قريش إلى نصر، ونصر المسلمين إلى نكسة مؤلمة.

وأبو ريشة يرسم لنا لوحته بتصاعد وتناسق، ففي أربعة أبيات تندلع المعركة وينزل الرماة وينادي النبي فلا يسمعون نداءه إلا بعد فوات الأوان، وتنقلب نتيجة المعركة.

وفي الأبيات الأربعة التالية حديث عن خالد، البطل المثير للإعجاب... وهذه الأبيات الأربعة لعلها المحور الفنّي الذي وصل إليه أبو ريشة... المحور الذي يصور لحظة اللقاء بين الرسول الكريم وقد حاصره القرشيّون المشركون، وبين خالد وقد همّ بالاعتداء على الرسول الكريم، فلم يتمكن وكبا به الجواد، وتعثرت قدماه.. فأشرقت في نفسه بارقة إعجاب وعجب، وداعبت نفسه هواجس رحمانية.

إنها نقطة المحور في القصيدة. وهنا سر تركيز عمر أبو ريشة على معركة "أحد" وحديثه المطول عنها في 26 بيتاً.

وثب الهول وثبة فلّت البيض ... وشظّت عوالي المرّان
وعدا المؤمنون في غفلة النّصر ... وراء الأسلاب كالعقبان
فدوت صيحة النبيّ فثابوا ... فإذا هم في قبضة العدوان
وإذا المشركون عاصفة هوجاء ... تدمي جوانب الميدان

• • •

وفتاهم ذاك المطوح بالهام ... مثير الإعجاب في الفرسان

دفع المهر مغضباً، فكبا المهر أمام النبي بعد جِران
فانتفى سيفه، وهمّ، فلم يقوَ ولم تنطلق له قدمانِ
فارتضى بالسّجال، وارتد حرّان وفي النفس هاجسٌ رحماني

هذه اللغة المنتقاة، وهذا القاموس الفريد الذي ينسج من الكلمات رداءاً متميّزاً: هذا القاموس لا نجده في الشعر الآخر لعمر أبو ريشة، شعر المرأة، شعر التأمل، شعر الوطن... إن قاموسه التاريخ مترف بالمفردات التاريخية في إطارها الحديث الساحر: [الهول –البيض– المرّان– الأسلاب– العقبان– الميدان– الفرسان– المهر– جِران– سيف].

د–ويقف أبو ريشة بعد المعركة يصوّر لنا الوضع النفسي للمسلمين وقد تحول نصرهم إلى نكسة، وقتل منهم سبعون من خيرتهم. ويستثمر هذا الموقف ليؤكد وقوفه على النقطة المحورية التي تمثلت في اللقاء بين الرسول الكريم وبين خالد المشرك.

وإذا كان خالد قد "ارتد حرّان وفي النفس هاجس رحماني" فما هو الوضع الإنساني في معسكر المسلمين وقد تشتت شملهم في "أحد"؟ نحن أمام عشرة أبيات يختم بها أبو ريشة صورة معركة "أحد". وهو ببراعة فائقة يقدم لنا صورة إيجابية للبطل خالد في معركة "أحد" على الرغم من أنه كان السبب المباشر في هزيمة المسلمين وتغيير نتيجة المعركة.

لنلاحظ كيف قدم لنا خالد هذه الصورة الإيجابية في الأبيات العشرة التالية:

أطرق المؤمنون والأمل العاتب يندى على الجباه الحواني
كل نفس في السرّ سائلة: من أين ذاك الفتى العجيب الطعان
لم يلح قبل في كنانة مخزوم سنان كمثل هذا السنان
لا تزيغوا، صاح النبي، فلولا الزيغ لم تطرقوا على الخذلان
الهوى الدنيوي والهدف العلوي في النفس ليس يلتقيان
أعلمتم من الفتى المتثنّي بوشاح البطولة الأرجواني؟!
إنه ابن الوليد زغردة النصر وأنشودة الجهاد الباني
مرّ في ناظري طيفاً بعيداً عبقري النضال ثَبْتَ الجَنان
وكأني أراه يضرب شرق الأرض بالغرب مُشرق الإيمان
وأرى كبرياءه دمعة التكفير مسفوحة على القرآن

لقد عرض أبو ريشة في تلك الأبيات للنقاط التالية:

-براعة خالد وذكاؤه في اغتنام الفُرَص وعبقريته العسكرية.

-إعجاب المسلمين ببطولة خالد برغم أنه عدو.

-انكفاء خالد أمام الرسول وبداية قلقه النفسي.

-الرؤيا النبوية للمستقبل حول دور خالد الريادي في الفتوحات.

-الصفح النبوي المبكر عن خالد "دمعة التكفير مسفوحة على القرآن".

رابعاً: كان في القصيدة العربية التقليدية ما يدعى "حسن التخلص". وهو أن يتقن الشاعر الانتقال من موضوع إلى آخر في قصيدته من خلال رابط خفي أو ظاهر يصل الموضوعين.

وفي قصيدة عمر أبو ريشة نقلة بارعة بعد لوحة معركة "أحد" فلقد انتهت اللوحة والرسول الكريم يرنو عبر المستقبل فيرى خالداً يضرب شرق الأرض بالغرب مُشرق الإيمان.

وها نحن في المقطع الجديد من القصيدة أمام انعطافة تقول:

"صدق العهد".

أي عهد؟. إنه رؤيا الرسول الكريم لمستقبل خالد، وها قد صدق العهد.

في ستة أبيات يلخص أبو ريشة كل المجد العسكري لخالد في الفتوحات من غير أن يشير بالاسم إلى حروب الردة ومعارك العراق. ولكنه يتوقف عند "اليرموك" ذروة المجد العسكري لخالد ولانتصارات المسلمين.

ما العهد الذي صدق؟. إنها الفتوحات تتوالى، وخالد فيها محور البطولات، وصداه يملأ الآفاق، والمآذن تصدح باسم الله في كل مكان. والروم المتغطرسون بحاجة إلى صفعة تجلوهم عن البلاد التي احتلوها. وها هي كفّ خالد السحرية تسحق جيش الروم في اليرموك، وها هي أفواج اليرموك تجري بجثث الروم المعتدين[1]:

صدق العهد، فالفتوح توالي ... وصدى خالد بكلّ مكان

أينما حلّ فالمآذن ترجيع ... أذان المهيمن الديّان

وبدا الروم في ضلال مناهم ... شوكة في معاقد الأجفان

فأتاهم بحفنة من رجال ... عندها المجد والردى سيّان

ورماهم بها، وما هي إلا ... جولةٌ، فالتراب أحمر قانِ

---

[1] عمر أبو ريشة، الديوان، 545-546.

وضلوع اليرموك تجري نعوشاً حاملات هوامد الأبدان

خامساً: يصل الشاعر إلى موضوع حسّاس هو عزل عمر لخالد عن القيادة العامة في الشام، وليس هذا مجال البحث في تاريخية الموضوع ومدى دقته وملابساته.

ولكننا أمام رؤية شاعرية فنية حاول من خلالها أبو ريشة أن يقدم الرجلين "عُمر وخالداً" في صورة إيجابية. فالخليفة عمر يعزل خالداً لئلا يفتتن به الناس.

والقائد خالد يتلقى العزل بنفس رضية مؤمنة. ولا يشير الشاعر إلى أي أسباب أو ظروف أو أقاويل رددها الرواة حول هذا الموضوع.

لدينا تسعة أبيات في هذا المقطع تتحدث عن افتتان المسلمين ببراعة خالد، وعن شهرته التي جعلته موضع حديث الناس رجالاً ونساء، وهذا ما دفع الخليفة إلى عزله.

هذا العزل لم يؤثر -كما يرى أبو ريشة- في نفسية خالد، بل نراه ينطلق في فتوحاته في بلاد الشام مؤكداً أنه المؤمن الذي لا يتزعزع إيمانه أمام أيّة حادثة[1]:

هلل المؤمنون واهتزت البشرى تروي حناجر الركبان

فإذا خالد على كل جفن خطرات من الطيوف الحسان

سمر الغيد في الليالي الكسالى وهوى الصيد في الزحام العوان

فتنة خيف أن يشيع بها الزهو فتلوي بالقائد الفتّان

فنحاه الفاروق، فانضمّ للجند فخوراً بعزة الإذعان

وتراءى أبو عبيدة في الفيحاء يحمي قيادة الفرسان

وفتى النّبل خالد يقحم الأسوار في نخبة من الفتيان

لم تزعزع من عزمه إمرة الفاروق بل فجرته فيض تفاني

وإذا راضت العقيدة قلباً فمن الصعب أن يكون أناني

لنلاحظ كيف تلونت مفردات الشاعر بالإعجاب والفرح والثقة وهو يتحدث عن خالد البطل الأسطورة: [هلل المؤمنون -البشرى- خطرات- الطيوف الحسان- الغيد- الصيّد- فتنة- الفتان- النبل- نخبة].

لقد تمكن أبو ريشة من السير مع الصورة تصاعداً حتى نقطة الحسم الفكري:

---

[1] عمر أبو ريشة، الديوان، 546-547-548.

وإذا راضت العقيدة قلباً فمن الصعب أن يكون أناني

لقد شغل موضوع عزل عمر لخالد شاعرنا أبو ريشة، فنراه يتناول الموضوع في مكان آخر غير هذه القصيدة المطولة. فيكتب ثلاثة أبيات بعنوان: "أنا لا أقاتل من أجل عمر". ونراها في ديوانه "أمرك يا رب"[1].

يا من رأى فارس اليرموك يخلفه أبو عبيدة والهيجاء تستعر
دعا سريته الغضبى وقال لها وبسمة الكبرِ في خدّيه تنتشر
إنّا نقاتل كي يرضى الجهاد بنا ولا نقاتل كي يرضى بنا "عُمر"

سادساً: نعود إلى القصيدة الأولى المطولة، لنرى كيف يقف أبو ريشة مع خالد في موقف مناجاة واستحضار، مسقطاً همومه على هذا الموقف وفي أحد عشر بيتاً يطوف بنا أبو ريشة في متاعب أمته المعاصرة مقارنة بأمجادها الغابرة، فينادي خالداً من وراء العصور لعله يرى ما نحن فيه من تشرذم. ولكن الشاعر يبقى في حماسه وثقته بشعبه، وهو لا يُظهر اليأس، وإنما يسترشد بحماسة الجند برغم خور القادة والحكام. وهو يحسن ربط البطولات القديمة بإسقاطاته المعاصرة. والشاعر يصرح لخالد بأنه لا يخاف البغي والطغيان، وأنه لن يسكت عما تعانيه أمته، فبطولات الماضي ما تزال تنبض في عروق الحاضر، وإيحاءات معركة بدر لا تزال في الأذهان بكلّ معانيها وقدسيّتها[2]:

يا مسجّى في قبة الخلد، يا خالد هل من تلفتٍ لبياني
لا رعاني الصبا إذا عصف البغي وألقى فمي ضريح لساني
أقسم المجد أن أقطّع أوتاري عليه بأكرم الألحان
أنا من أمة أفاقت على العزّ وأغفت مغموسة في الهوان
عرشها الرثّ من حراب المغيرين وأعلامها من الأكفان
والأماني التي استماتت عليها واجمات تكلّمي يا أماني
لا تقل: ذلّت الرجولة، يا خالد واستسلمت إلى الأحزانِ
حمحمات الخيول في ركبك الظافر مازلن نشوة الآذان

[1] عمر أبو ريشة، أمرك يا رب، ص73.
[2] عمر أبو ريشة، الديوان، 548-849-550.

كم طوت هذه المرابع أفلاذ ... قلوب "بدرية" الخفقان

قم، تلفت، ترَ الجنود كما كانوا ... منار الإباء والعنفوان

ما تخلّوا عن الجهاد، ولكن ... قادهم كل خائن وجبان

سابعاً: في الأبيات الثلاثة الأخيرة يعود الشاعر إلى مقدمته الفلسفية التاريخية، فيناجي "راويات الزمان" مرة ثانية:

راويات الزمان، مالي أناجيك ... ومالي أغصّ بالأشجان

اغسلي الذكريات عني، فمالي ... باحتمال العبء الثقيل يدان

أوْ فَسيلي مَراوداً تنثر الكحل ... ضياءً في مقلة الوسنان

إنه لا يستسلم برغم أشجانه وغصصه، وهو يرجو راويات الزمان أن تدفع عنه ذكريات الماضي لأنه لا يقوى على احتمال هذه الذكريات في واقعه المؤلم الممزق.

ولكنه يعود فيتفاءل بأن راويات الزمان، سوف تُشرع مراودها لتكحل بها الأجفان الوسنى المتعطشة إلى غد مجيد.

• • •

لقد كتب أبو ريشة هذه القصيدة قبل ثلثي قرن، ولا تزال المعاني فيها نابضة بالحياة، وقد غدت المرارة أكبر، وغدا العدوّ أشرس، وغدت الآمال تتضاءل، ولكنها لا يمكن أن تخبو، وليس لها أن تخبو.

إنها لوحة فنية رائعة قدّمها أبو ريشة من خلال هذه الشخصية المحورية الخالدة، شخصية "خالد بن الوليد".

□□□

خالد بن الوليد وحروب الردة

هاني المبارك

***ترددت** كثيراً قبل أن أمسك القلم لأخط كلمات عن حياة خالد بن الوليد وعن مواقفه خلال حروب الردة، وهو بطل هذه الحروب وعمادها والسيف الذي أعاد الوحدة إلى جزيرة العرب، إنه بطل حروب توقف على نتيجتها مصير أمة، ومصير دولة ناشئة أسسها رسول الله (ص)، ومن هنا تأتي أهمية هذه الشخصية العسكرية النادرة في سيرتها، والتي حملت بين*

جنباتها صفات أن أوفيه حقه أو بعض حقه. وقفت مستغرباً كيف وُجدت أقلام تجرأت على توحيد بعض سهام النقد إليه؟ فقلت من أنا؟ ومن هؤلاء حتى نتجرأ على النيل من هذه الشخصية وتذكرت قول خالد قبيل وفاته: "ليس في جسمي موضع شبر إلا وفيه طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بنبل، وهاأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء". وكذلك ستكون سهام النقد الناجمة عن حقد أو حسد أو تعصب غير مؤثرة في سمعة خالد بل ستكون مع أصحابها:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها ... فلم يَضِرْها وأوهى قرنَهُ الوَعِلُ

لهذا كله تركت التردد وأمسكت القلم لأتحدث عن دور خالد في حروب الردة وعن تلك الفترة العصيبة من تاريخ أمتنا وقد كادت وحدة الجزيرة العربية أن ينفرط عقدها بعد وفاة رسول الله (ص) بحث لم يبقَ على الولاء لتلك الدولة من مناطق جزيرة العرب إلا الحجاز، بل وحتى الحجاز كانت بعض القبائل المجاورة له تتهيأ للإغارة عليه.

وبرغم ما ذكرته عن عظمة شخصية خالد وعبقريته الفذة والنادرة بين تاريخ القادة في العالم من أصحاب العبقريات العسكرية أقول سلفاً إنني أتحدث عن إنسان من البشر وليس عن ملك من الملائكة، ولكل إنسان أخطاء وهفوات لكن عظمة الرجال تظهر حين تضيع هفواتهم وسط إعصار عظمتهم وضخامة أعمالهم.

لقد التقت عزيمة القيادة السياسية المتمثلة يومئذ بالخليفة الأول أبي بكر الصديق، مع عبقرية القيادة العسكرية المتمثلة ببطل العرب والإسلام خالد بن الوليد وذلك في حروب الردة، فحقق ذلك نتائج رائعة في حفظ وحدة الدولة ودفع بها في طريق الدعوة لرسالتها لأهل الأرض في زمن لا يمكن معه تحقيق ذلك إلا بوصول الدعاة إلى كل مكان.

بدأت الردة في أواخر حياة الرسول (ص) وذلك بِردَّة الأسود العنسي في اليمن وردَّة مسيلمة الكذاب في اليمامة.

أما الأسود العنسي فقد اغتاله أبناء اليمن المسلمون الذين قوي تمسكهم بالإسلام بعد أن أرسل إليهم رسول الله (ص) معاذ بن جبل ليعلمهم أمور دينهم وبمقتل الأسود قضي على حركة الردة في اليمن. وحدث مثل ذلك في عُمان حيث قوي إيمان المسلمين وقوي مركزهم بعد أن أرسل رسول الله (ص) إليهم عمرو بن العاص، فضعفت حركة الردة وتزعزع مركز المرتدين الذين كانوا قد التفوا حول لقيط بن مالك الأزدي.

وكذلك تراجعت حركة الردّة التي ظهرت في منطقة الإحساء، أو ما كان يعرف باسم البحرين، متمثلة بالمنذر بن النعمان وذلك حين تصدى لها العلاء بن الحضرمي ومجموعة من المسلمين الذين لم يتزعزع الإيمان بالدين الجديد في نفوسهم، كما لم يتزعزع ولاؤهم لمركز الدولة في المدينة المنورة.

أما مسيلمة الكذاب فقد عظم خطره بعد أن التفت حوله جموع بني حنيفة في منطقة اليمامة وزاد خطره بعد تحالفه مع المتنبئة سجاح وتأييد أتباعها من بني تغلب لحركة الردة ــ كما سيأتي فيما بعد

انتقل الرسول (ص) إلى الرفيق الأعلى، وخطر مسيلمة وسجاح يهدد كيان الدولة العربية الإسلامية بالتجزئة، ويهدد عقيدة التوحيد بالزوال، ويشجع أصحاب القلوب الضعيفة بإيمانها على الردة والامتناع عن الطاعة للمدينة المنورة، وللخليفة فيها أبي بكر، والخضوع لقبيلة قريش، حتى قال قائلهم:

أطَعنا رسول الله إذ كان بيننا ... فيا لَعِبادِ الله ما لأبي بكر؟

أيورثها بكراً إذا مات بعده؟ ... وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

وهكذا عادت العصبية القبلية ترفع رأسها من جديد ولما يدخل الإيمان إلى قلوب معظم أبناء القبائل العربية خارج الحجاز حتى صار قائلهم يقول: كذاب ربيعة خير من صادق مضر. ورأت بعض القبائل أن دفع الزكاة إلى المدينة المنورة يمثل خضوعاً لقريش مما كانت تأباه نفوس القبائل العربية قبل الإسلام عصبية لكرامتها وعزة لنفوسها.

لقد أثبتت الأحداث أن اختيار المسلمين لأبي بكر خليفة للرسول (ص) في حكم الرسول الإسلامية الفتية الجديدة كانت اختياراً موفقاً وكان الحاكم الجديد أهلاً لحمل المسؤولية وتعبئة جميع

إمكانات الأمة للوقوف بوجه خطر حركة الردة والتمرد بعزم يندر مثيله، إنه خطر كبير هدد وجود الدولة وكيانها وهدد عقيدتها ووحدتها، بعد أن تعددت مناطق الردة، وكثرت القبائل المتمردة والرافضة لحكم المدينة المنورة. فجاء عزم الخليفة وإرادته الصلبة التي ما عرفت التردد والضعف، وجاء أيضاً سيف الله خالد بن الوليد، ليقف في وجه أعداء الوحدة في العقيدة والوحدة في الدولة؛ فالردة لم تكن ردّة دينية فقط بل هي أيضاً حركة تمرّد سياسي تهدف إلى الانفصال وتجزئة الدولة.

وليس هنا مجال البحث في أسباب حركات الردة فهو موضوع يحتاج إلى كلام طويل وبحث خاص، ويمكننا لاستكمال الصورة هنا أن نلخص تلك الأسباب بما يلي:

1 ـ ضعف إيمان القبائل المرتدة والمتمردة، فإن معظم القبائل التي ظهرت الردة بين صفوفها كانت قد اعتنقت الإسلام في فترة متأخرة، أي في أواخر حياة الرسول (ص). فهي لم تعش تجربة الإيمان والعيش الطويل مع رسول الله (ص)، على عكس ما كان الحال بالنسبة لأهل الحجاز.

2 ـ العصبية القبلية التي يمثلها قول من قال لمسيلمة: والله إني أعلم أنك كذاب وأن محمداً صادق، لكن كذاب ربيعة خير من صادق مضر.

صحيح أن أبا بكر أرسل أحد عشر جيشاً إلى جميع مناطق التمرد والردّة والخطر في شبه جزيرة العرب، مستهدفاً القضاء على حركات الردة، سواء أكانت ردة كاملة عن الإسلام، أو كانت ردة جزئية بامتناعها عن دفع الزكاة. لكن اعتماده في هذه الجيوش كان بالدرجة الأولى على من اقترن اسمه باسم حرب الردة وهو سيف الله خالد بن الوليد الذي شكل ما يشبه العمود الفقري، والدعامة الأساسية لتلك الجيوش التي انطلقت من المدينة المنورة. وعهد الخليفة أبو بكر إلى خالد بحمل المسؤولية الأولى في هذه الحروب، إنها عبقرية القائد السياسي أبي بكر في اختياره للرجل المناسب في وقت عصيب لحمل أخطر مهمة يتوقف عليها بقاء الدولة أو زوالها. وكذلك كان نجاحه في تنظيم هذه الجيوش والتنسيق بين تحركاتها وسرعة الاتصال بقادتها وإمدادها، كل ذلك كان له دور كبير في نجاحه في تنظيم هذه الجيوش والتنسيق بين تحركاتها وسرعة الاتصال بقادتها وإمدادها، كل ذلك كان له دور كبير في نجاحها في تحقيق مهماتها وإحراز الانتصارات المتتالية وإعادة الوحدة للدولة العربية الإسلامية.

لقد ظن المتمردون المرتدون أن الفرصة مواتية جداً لتحركاتهم عندما سمعوا بوفاة رسول الله (ص)، وبتسلم أبي بكر لمنصب الخلافة، وبإرساله جيش أسامة بن زيد إلى أطراف بلاد الشام، مما أوهمهم بضعف المسلمين في الحجاز. وإذا بهم يُفاجَئون بقوة شخصية أبي بكر مما يندر مثيله في مثل هذه الأحوال الخطيرة التي تكاد تعصف بالدولة وتقضي على وحدتها.

وهنا تظهر لنا خطورة المهمات التي عهد بها الخليفة إلى خالد بن الوليد، حيث تم توجيهه إلى أخطر تلك الحركات وأكثرها قوة وأتباعاً وهي حركة طليحة الأسدي في بُزاخة، وحركة مالك بن نويرة في البُطاح، وحركة مسيلمة الكذاب في اليمامة، وتؤيده حركة المتنبئة سجاح من بني تغلب في

العـراق. وهكـذا نـرى أن خالداً بن الوليد حمل العبء الأكبر والأهم في حروب الردة وفي قتال المرتدين، وبلغة اليوم الانفصاليين المتمردين على الدولة.

كانت الخطة العسكرية التي وضعها الخليفة أبو بكر تقوم على تقسيم قواته إلى عدد من الجيوش كان أقواها الجيش الذي يقوده خالد بن الوليد، لأن هذا الجيش سيحارب أخطر حركات الردة المتمثلة بحـركة طليحة ومالك ومسيلمة وسجاح. بينما أُرسلت بقية جيوش المسلمين في مهمات مساندة لخالد أو لمواجهـة بعـض المرتديـن الثانويين. وتقوم الخطة على ضرب قوات المرتدين، كلّ منهم على انفراد، قبل أن تتحالف وتتجمع فتشكل خطراً كبيراً يصعب القضاء عليه.

خالد وطليحة:

كانـت الخطـة العسكرية تقضي بأن يبدأ خالد بقتال طليحة الأسدي في منطقة بُزاخة بين جبلي أجـأ وسلمى إلى الشمال الشرقي من المدينة المنورة. ومنها ينتقل إلى البطاح لتأديب مالك بن نويرة ومنها إلى اليمامة لضرب أخطر هؤلاء المرتدين المتمردين مسيلمة الكذاب.

كـان أبـو بكر قد أوصى ألا يحارب أحداً قبل أن يدعوهم إلى الإسلام، أي يدعوهم للعودة عن الـتمرد والـردة وإعلان الولاء للدولة وخليفتها، وأن يحرص على هداهم فمن أجاب قبل منه ومن رفض قاتله ونكل به.

أمـا طليحة فكان زعيماً لقبيلة بني أسد، وقد بدأ عداؤه للإسلام وللرسول (ص) في وقت مبكر، وكشـف عـن هـذه العداء بعد غزوة أحد بثلاثة أشهر مستغلاً هزيمة المسلمين وخسارتهم في تلك الغزوة فعزم على مهاجمة المدينة المنورة، لكن الرسول (ص) أرسل قوة من فرسان المسلمين فرقت جموعه، وقضت على مشروعه، وغنمت ماشية قبيلته المتآمرة.

ثم شارك مع قوة من قبيلته بني أسد في غزوة الخندق أو الأحزاب ــ وعاد مع رجاله خائباً بعد انسحاب قريش وأحلافها.

وفـي السـنة السـابعة للهجرة حاول عرقلة هجوم المسلمين على خيبر لكنه أخفق، وانسحبت قبيلـته. وفـي السنة التاسعة للهجرة جاء وفد من بني أسد يعلن إسلام قبيلته، وهكذا انتهى عداء بني أسـد وزعيم طليحة بإسلامهم في عام الوفود، فكان إسلامه مع قبيلته إسلاماً سياسياً لم يصل بهم إلى الأعمـاق حيث ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ (سورة الحجرات 49 الآية 14)

وبـدأ يكشـف عن ردته عندما سمع بمرض الرسول (ص) فادعى طليحة أنه نبيّ، وازداد ردة وتمرداً بعد وفاة الرسول (ص) وتلقى تأييداً لردته وتمرده من قبيلتي غطفان وطيئ.

كانـت بدايـة لقاء جيش خالد بن الوليد مع المرتد المتمرد طليحة الأسدي حين لقي رجال من طليعة جيش خالد أخاً لطليحة فقتلوه ــ وهو حبال ــ وتصدى لهم طليحة وأخوه سلمه فقتلا ثابت بن أقـرم وعكاشـة بـن محصن. وتألم خالد لما أصاب رجاله على أيدي هذه المتمرد الخطير، لكنه لم

يتعجل السير نحو جموع طليحة بل عمد إلى التريث وتأخير اللقاء الحاسم مستفيداً من خبراته العسكرية، محاولاً كسب بعض القبائل المؤيدة لطليحة، وبدأ بقبيلة طيئ وكانت وسيلته إليها أحد وجوه القبيلة وهو عدي بن حاتم الذي نجح بإقناع مجموعة كبيرة من قبيلته بالعودة إلى حظيرة الإسلام والولاء للدولة والرجوع عن الردة والتمرد وجاء بعدد من فرسانها وعددهم حوالي خمسمائة فارس والتحقوا بقوات خالد، كذلك نجح عدي بن حاتم في إعادة بني جديلة عن ردتها وتمردها إلى الطاعة والإسلام والتحق منهم حوالي ألف مقاتل بجيش خالد.

وهكذا اطمأن خالد بن الوليد إلى وضع القبائل المجاورة، كما كان مطمئناً إلى وضع قواته نظاماً وطاعة وانضباطاً وحماسة، فتقدمت وهو على رأسها نحو طليحة الذي كانت تتجمع قواته في منطقة بُزاخة، وهي مؤلفة من بني أسد ومن لحق بهم من بني فزارة وغيرها. وتبعاً لوصية الخليفة عرض خالد على طليحة شروطه، وهي العودة عن الردة والتمرد إلى الإسلام والطاعة ورفض طليحة شروط خالد فكان لابد من الحرب. وكان خالد قد نظم قواته بحسب القبائل فعقد راية طيئ لعدي بن حاتم، وعقد راية الأنصار لثابت بن قيس، وعقد الراية العامة لزيد بن الخطاب.

بدأ القتال بحماسة من المسلمين واستماتة منهم، بعد أن رأوا قائدهم خالد بن الوليد يقتحم أشد المواقع خطورة، وهو ينادي بأعلى صوته: الله، الله، مشجعاً ومحرضاً على القتال متنقلاً على فرسه من الميمنة إلى الميسرة فانصرف بنو فزارة وخرجوا من صفوف المرتدين المتمردين، وعلى أثر ذلك فر طليحة وزوجه باتجاه بلاد الشام ملتجئاً إلى بني كلب، وعاد بنو عامر وبنو سليم وهوازن إلى الإسلام والولاء والطاعة للخليفة في المدينة المنورة.

ووقع قائد بني فزارة بالأسر وهو عيينة بن حصن، فأرسله خالد إلى المدينة المنورة فتاب بين يدي أبي بكر وأعلن إيمانه وعودته إلى حظيرة الإسلام فقبل منه ذلك وحسن إسلامه.

بقي خالد شهراً في بُزاخة يطهّر المنطقة من المتمردين المرتدين ويلاحق بصورة خاصة أولئك الذين غدروا بالمسلمين وقتلوا منهم، وذلك تنفيذاً لتعليمات الخليفة أبي بكر الذي كتب إلى خالد بعد انتصاره على طليحة في بُزاخة يقول: "لِيَزدكَ ما أنعم الله به عليه خيراً... جِدَّ في أمر الله ولا تَنِيَنَّ، ولا تظفرنَّ بأحد من المشركين قَتَلَ من المسلمين إلا قتلته ونكلت به غيره... وهكذا أخذ خالد يعامل المتمردين المرتدين بمثل ما فعلوه بالمسلمين من قتل وحرق ورمي من شواهق الجبال. ومع ذلك فقد تجمعت فلول من قوات طليحة من غطفان وبني سليم وطيئ وهوازن وأسد، حول امرأة تسمى أم زمل سلمى بنت مالك بن حذيفة وحرضتهم على قتال جيش خالد فقاتلها المسلمون وأبدى خالد جرأة عظيمة في قتالها فعقر جملها وقتلها وهزم جموعها وتم له النصر عليها.

وبذلك أنهى خالد بن الوليد المرحلة الأولى، بالقضاء على حركة طليحة بن خويلد الأسدي وبدأ يستعد للمرحلة الثانية وهي:

حركة مالك بن نويرة التميمي:

كـان مـالك بن نويرة زعيم بني يربوع وهم فرع كبير من قبيلة بني تميم ومركز عشيرته في البُطاح ـ بين جبل سلمى واليمامة. وكان قد تزوج من ليلى بنت المنهال المعروفة باسم أم تميم التي اشـتهرت، بجمالهـا حتى قيل إنها أجمل بنات الجزيرة العربية، وحين اعتنق بنو تميم الإسلام عيّنه رسـول الله (ص) زعيماً على عشيرة بني حنظلة وكلفه بجمع أموال الزكاة منهم، وعندما سمع بوفاة الرسول (ص) ارتد عن الإسلام، وأعاد أموال الزكاة المجموعة لديه إلى دافعيها من بني حنظلة.

تـابع خالد مع قواته المسير نحو بني تميم وزعيمهم مالك بن نويرة في البطاح وأذّن المسلمون كمـا أمرهم أبو بكر واستجاب بعض بني تميم فأعلنوا الطاعة والعودة إلى الإسلام، ورفض آخرون إلا الإصرار على التمرد والردة وعلى رأسهم مالك الذي وقع بالأسر مع الكثيرين من بني تميم.

تقـول إحـدى الـروايات التاريخية إن مالكاً والأسرى قتلوا نتيجة اختلاف في فهم معنى كلمة أدفـئوا أسراكم. وقد قالها خالد لجنوده في ليلة شديدة البرد، وأدفئوا بلغة كنانة تعني اقتلوا، فقام الجند بقتل الأسرى وقتل ضرار بن الأزور مالك بن نويرة، وكان ضرار كنانياً.

وتقـول رواية أخرى بأن خالد بن الوليد حاور مالك بن نويرة بعد أسره حول متابعته للمتنبئة سـجاح عندما مرت بمنطقته، وبامتناعه عن دفع الزكاة، وبقوله عن رسول الله (ص): إن صاحبكم يـزعم.. كـل ذلـك أغضب خالداً فأمر بضرب عنقه فقام ضرار بن الأزور بقتل مالك بن نويرة. وأرجـح صحة الرواية الثانية فقد أثار مقتل مالك مشكلة حين اختار خالد الزواج من أرملة مالك أم تميم، فتحدث بذلك بعضهم وتحركت الألسنة تنتقد عمل خالد بل وصل بعضهم إلى اتهام خالد بأنه قتل مالكـاً ليتزوج بزوجته. وفي مثل هذه الأحوال عادة يلعب الخصوم والحساد دوراً في تزوير الحقائق وتضـخيم الوقائع وتشويه الأحداث، للوصول إلى تحقيق أهدافهم وإرضاء نفوسهم. وهذا الأمر نجده فـي جمـيع المجتمعات قديمها وحديثها وخاصة بالنسبة لأصحاب الشهرة من عظماء الرجال وكبار القـادة، حيث نجد المعارضين والحسّاد والخصوم يصطادون في الماء العكر وينسى هؤلاء أن أولئك العظمـاء بشر ويخطئون كما يخطئ البشر وليسوا ملائكة معصومين، وأن ما قام به خالد يومئذ إنما هـو تصـرف لا يخـالف عادات العرب لا في الجاهلية ولا في الإسلام. أما الأمر السيئ المخالف لأخـلاق العـرب فإنما هو الاختلاق والكذب والتشهير في غير حق، كالذي قام به بعضهم ففسروا الحـادث كمـا صورته لهم نفوسهم ـ الحاقدة أو الجاهلة ـ ونسي هؤلاء أنهم أمام شخصية اتصفت بـالورع والتقى وبالرجولة والبطولة وأنه منح أمته من الأعمال والبطولات ما يعجز عن مثله مئات الرجال الأبطال بل ألوفهم. والدليل على ما أقول أن سيرة خالد قبل حروب الردة وبعدها تثبت ذلك، فقد كان متمسكاً بأخلاق الإسلام، وقد شارك في قيادة الجيوش التي حررت بلاد الرافدين وبلاد الشام وقـاد معـركة الـيرموك. ولم يعرف عنه أي خلق مخالف لما تقتضيه أخلاق الإسلام وتعاليمه، بل رأيـناه يعزل من قبل الخليفة عمر بن الخطاب عن القيادة وهو في قمة المجد العسكري فينفذ الأمر

مع الجيش يقاتل كجندي في سبيل الله. ويأتي من يحاسبه من قبل الخليفة عمر على أموال صرفها فيظهر من التحقيق أنها من أمواله الخاصة وتثبت براءته.

وما تذكره بعض الأقلام وتتحدث به بعض الألسنة من تنكيله وتمثيله بمالك بعد قتله وقطع رأسه وحرقه بالنار، فهي صورة بعيدة كل البعد عن أخلاق خالد بن الوليد وقد خاض عشرات المعارك وقتل وأسر الكثير من أعدائه الفرس والروم، فما سمعنا أنه قام بعمل غير أخلاقي يتنافى مع وصايا رسول الله (ص) وخليفته أبي بكر في معاملة القتلى والأسرى، مما يدعونا إلى رفض تلك الروايات والتي يعود معظمها إلى تأثر أصحابها بأهواء من حقد وحسد أو من حب في شهرة تكسب على حساب النيل من عظمة عظيم أو بطولة بطل وبئس الرجال ينال شهرة عن هذا السبيل.

إن تاريخ الدول والشعوب الأخرى مليء بأحداث مخزية وصور سوداء، لكنهم يظهرون من تاريخهم الوجه الجميل ويضربون صفحاً عن الصور السوداء والمخزية وما أكثرها في تاريخهم. أما أن نخترع أحداثاً سوداء وصوراً مخزية اختراعاً، وليس لها وجود إلا في أذهان من فسر بعض الحوادث على هواه وزور واختلق ليسيء إلى تاريخ أمته المجيد، فهذا أمر غريب لا نجد له مثيلاً لدى الأمم التي تغار على تاريخها وسمعة ماضيها وأبطالها وعظمائها. قبل أن نترك قضية مالك بن نويرة وحادثة قتله على تمرده وردته ونزداد اطمئناناً إلى سلامة عمل خالد بن الوليد لا بأس من أن نطلع على حوارين حدثا بين خالد ومالك، وبين عمر بن الخطاب وأخ لمالك. أما الحوار الأول. فقد كان قبيل ضرب عنق مالك حيث قال خالد معاتباً ومؤنباً مالكاً على متابعته للمتنبئة سجاح عند مرورها بمنطقته، ثم أنبّه على رفضه تأدية الزكاة قائلاً: ألم تعلم أن الزكاة قرينة الصلاة؟ فقال مالك: إن صاحبكم كان يزعم ذلك. عندئذ غضب خالد وقال: هو صاحبنا وليس بصاحبك؟ وصاح بضرار بن الأزور قائلاً: اضرب عنقه، ففعل.

والحوار الثاني: كان بين عمر بن الخطاب ومتمم بن نويرة ــ أخي مالك ــ فقد قال عمر لمتمم: لوددت أني رثيت أخي زيداً بمثل ما رثيت به مالكاً أخاك ــ وكان زيد بن الخطاب قد استشهد في حروب الردة ــ فقال متمم: يا أبا حفص، والله لو علمت أن أخي صار حيث صار أخوك ما رثيته، فقال عمر: ما عزاني أحد بمثل تعزية متمم. وهذه شهادة أخ مالك بأنه مات على ردة وتمرد لا على إسلام وطاعة.

إن صورة خالد بن الوليد ستبقى، ويجب أن تبقى، منزهة بعيدة عن كل ما يشوه جمالها وعظمتها ويسيء إلى عبقريتها وبطولاتها، لما له من مواقف مجيدة ورائعة في رسم تاريخ أمتنا العربية، إنه نموذج نادر يريد أعداء الأمة تشويه صورته البطولية لئلا يكون قدوة لشباب العرب في تضحياتهم وإخلاصهم وجرأتهم واستماتتهم في الذود عن أرض الوطن والحفاظ على عقيدة الأمة ومقدساتها.

ومن الجدير بالذكر أن الحقد والحسد والضغينة والخلاف تلعب دوراً كبيراً في الدس وتشويه الحقائق للإساءة إلى الشخص المقصود بالحسد والحقد عليه. ومن الملاحظ أن الرجل الذي حمل

على خالد لزواجه من أرملة مالك هو أبو قتادة، وهو نفسه الذي حمل على خالد عند فتح مكة وجاء إلى رسول الله (ص) وأخبره أن خالد بن الوليد قتل بني خديجة دون رحمة برغم استسلامهم. وكان أبـو قـتادة يتربص بخالد ويحمل له في نفسه كراهية وحقداً دنيئاً ومع ذلك لم يجد ما يشفي غليله لا عـند الرسول (ص) ولا عند أبي بكر الذي عاتبه لأنه ترك الجهاد وأمره بالعودة ليلتحق بقوات خالد بـن الوليد. وما أظن ولا أعتقد أن رسول الله (ص) كان يغض النظر عن خالد إذا ما تجاوز حدود الشرع وكذلك بالنسبة لخليفته أبي بكر، وهو من عرفناه شدة في موقفه من الدفاع عن الدين وتعاليمه ولا تأخذه في الحق لومة لائم.

خالد ومسيلمة الكذاب:

كـان مسيلمة بن حبيب من بني حنيفة الذين يقيمون في اليمامة شرقي منطقة نجد وكان قد وفد مـع رجـال من قومه على رسول الله (ص) في السنة التاسعة للهجرة، وقد أسلم الرجال الذين جاء معهـم بعد اجتماعهم بالرسول (ص) وسماعهم منه. وعند عودتهم إلى اليمامة أدعى مسيلمة النبوة، وصار يأتي قومه بكلام مسجع يقلد فيها آيات القرآن الكريم، ثم أحل لقومه الخمر والزنا وأعفاهم من الصـلاة طمعاً فـي كسبهم إلى جانبه مدعياً أنه شريك محمد (ص) في النبوة، وكتب إلى الرسول (ص) بـأن له نصف الأمر ولقريش نصف الأمر. فكتب رسول الله (ص)إليه: من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين. ثم استفحل خطر مسيلمة وردته وتمرده بعد وفاة الرسول (ص)، وقد رأينا أن خليفة رسـول الله (ص) أبا بكر عهد إلى خالد بن الوليد لضرب مسيلمة بعد أن ينتهي من طليحة الأسدي، ومالك بن نويرة.

وفعلاً ما أن انتهى خالد من قمع حركة طليحة الذي فر بعد هزيمته إلى بلاد الشام، وقمع حركة مـالك بقتله وهزيمة قومه في معركة البُطاح، حتى اتجه لتنفيذ تعليمات الخليفة أبي بكر والتي حملها إلـيه شـريك بـن عـبدة الفزاري وفيها يدعوه إلى تقوى الله، والعناية بمن معه من المسلمين، وأن يستشـير فـي أموره وجوه المهاجرين والأنصار، ويعاتبه بلطف وبتلميح دون تصريح لزواجه من أرملـة مـالك بـن نويـرة، وينبهه إلى خطر بني حنيفة وأن يباشر الأمر معهم بنفسه وأن يرهبهم ويستعمل معهم ما يستحقونه من قسوة وشدة.

كـان الخلـيفة أبـو بكر قد أرسل جيشين لمساعدة جيش خالد بن الوليد في معركته القادمة مع مسـيلمة الكذاب الذي كان يقود بني حنيفة، وهو من أخطر المتمردين المرتدين. وكان الجيش الأول منهما بقيادة .عكرمة بن أبي جهل والجيش الثاني بقيادة شرحبيل بن حسنة.

وصـدف أن حـاول عكـرمة بقواته أن يتصدى لمسيلمة قبل وصول خالد، لكنه شعر بضعفه وخسـارته أمـام قـوات مسيلمة فانسحب منتظراً قدوم خالد الذي كان اسمه يلقي الرعب في قلوب أعدائـه. وصـل خالد مع جيشه في الوقت المناسب والتحقت به قوات عكرمة وشرحبيل وبلغ عدد

قواتـــه جميعاً حوالي 12 ألف مجاهد يواجه بها قوات مسيلمة التي بلغ عددها حوالي 40 ألف مقاتل تعسكر في منطقة تعرف باسم عقرباء.

نظم خالد قواته استعداداً لمعركة خطيرة حاسمة مع أخطر مرتد متمرد، واستفاد خالد من وجود عدد من بني حنيفة ظلوا على إسلامهم فقاموا بمحاولات للتأثير على بني قومهم وشق صفوف رجال مسـيلمة، ومن هؤلاء عمير بن ضابي اليشكري وكان من فرسان اليمامة وأسيادها وما عرف قومه بإسلامه، فتحدث مع أهل اليمامة محذراً من هؤلاء الرجال الذين حاولوا التأثير على قومهم ثُمامة بن أثال من وجوه بني حنيفة، قال لقومه: اسمعوا مني، وأطيعوا أمري ترشدوا، إنه لا يجتمع نبيّان بأمر واحد، إن محمداً (ص) لا نبي بعده، ولا نبي يرسل معه،... إنه جاء لقتالكم رجل يسمى سيف الله...

وأعطـــى خالد راية الجيش لزيد بن الخطاب، وأعطى راية المهاجرين لسالم مولى أبي حذيفة، وعين على الخيل البراء بن مالك، وأعطى راية الأنصار لثابت بن قيس.

وكـــان مسـيلمة يخطب ويتحدث مع بني قومه محذراً من الهزيمة حيث تصبح نساؤكم سبيات، فقاتلوا من أحسابكم وامنعوا نساءكم...

وبـــدأت معركة رهيبة بين قوتين غير متكافئتين عدداً، لهذا كان هجوم بني حنيفة شديداً زعزع صفوف المسلمين حتى وصل المرتدون إلى خيمة خالد، واستشهد عدد من كبار القادة من أمثال زيد بن الخطاب، وعظمت حماسة المسلمين واستماتوا وثبتوا في مواقعهم حتى أن بعضهم نزلوا في حفر وأقسموا ألا يخرجوا منها، ومن هؤلاء ثابت بن قيس حامل لواء الأنصار.

كان خالد خلال المعركة يقتحم صفوف أعدائه محاولاً الوصول إلى مسيلمة داعياً قادة المرتدين إلـــى المـــبارزة ومـــا خرج واحد منهم إلا قتله، إنه حقق أمام المسلمين صدق رسول الله (ص) في تســميته بســيف الله، وسيف الله لا يهزم. وبدأ المرتدون بالتراجع ثم ولّوا الأدبار. وبدأ خالد بهجوم عـــام وضـــع المســلمون سيوفهم في رقاب الفارين الذين التجأوا إلى حديقة مسوَّرة عرفت منذ ذلك الوقت بحديقة الموت.

يأتي بعض عبقرية خالد العسكرية من بعد نظره وتقديره وحسن اختياره لرجاله، فقد اعتمد في معظـم معاركه على رجال كانوا نماذج في الشجاعة والجرأة وسرعة الحلّ لما يواجههم من أزمات ومشـــاكل وكـــان الواحـــد من هؤلاء يعد بالمئات من المقاتلين، من أمثال القعقاع بن عمرو التميمي وأخـــيه عاصـــم ومن أمثال هؤلاء في معركة حديقة الموت، البراء بن مالك ــ وهو شقيق أنس بن مـــالك ــ وكان البراء قد حضر جميع المشاهد مع رسول الله (ص) عدا غزوة بدر، وكان مضرب المـــثل في الجرأة والإقدام، ومن صور شجاعته ما كان منه في حرب مسيلمة وجموعه من المرتدين المتمرديـــن في معركة حديقة الموت، حيث كان مسيلمة وأصحابه قد لجأوا إلى تلك الحديقة وأغلقوا أبوابهـــا واحـــتموا بأسوارها، فقال البراء لأصحابه ارفعوني وألقوا بي في الحديقة من فوق سورها فحملـــوه علـــى تروسهم ورفعوها على رماحهم وألقوا به من فوق السور فوقع في الحديقة، ولم يزل

يقاتل حتى فتح أحد أبوابها واندفع المسلمون منه، وبدأ قتال مرير انتهى بانتصار المسلمين بقيادة خالد بن الوليد وهزيمة المرتدين ومقتل نبيهم الكذاب مسيلمة.

ومن الصور الأخرى لمعركة حديقة الموت صورة مسيلمة حيث ذكرت الروايات التاريخية أن مسيلمة لجأ أثناء القتال داخل الحديقة بعد اقتحام المسلمين لها إلى ثلمة في جدار وكان في حالة شديدة من الخوف، مما أصاب قواته من الهزائم والخسائر فرآه وحشي العبد الحبشي الأسود قاتل حمزة في غزوة أحد، فسارع إليه وأطلق حربته فأصابته وخرجت من الطرف الآخر منه. وأسرع إليه أيضاً أبو دجانة سماك بن خرشة فضربه بالسيف وقضى عليه.

يقول وحشي بأنه خرج مع المسلمين إلى اليمامة وأخذ معه الحربة التي قتل بها حمزة ــ عم الرسول (ص) ــ فلما رأى مسيلمة سدد إليه حربته ودفعها نحوه فوقعت فيه، وشدَّ عليه رجل من الأنصار وهو عبد الله بن زيد بالسيف، والله أعلم أينا قتله فإن كنت أنا قد قتلته أكون قتلت خير الناس بعد رسول الله (ص) وهو عمه حمزة، وقتلت شر الناس وهو مسيلمة الكذاب.

بعد معركة حديقة الموت:

كان مجّاعة بن مرارة أحد رجال بني حنيفة قد وقع في الأسر بيد المسلمين، فأخذ خالد بن الوليد وخرج معه يتجول في ساحة المعركة في حديقة الموت، ليتعرف بواسطته على جثة مسيلمة الكذاب، وربما ليزداد يقيناً بمقتله، فلما وصلا إلى مسيلمة قال مجّاعة: هذا صاحبكم. فقال خالد: قبحكم الله على اتباعكم هذا.

ومما ورد في أخبار خالد خلال حربه لمسيلمة أن مجّاعة أوقع خالداً بخديعة وذلك حين عزم خالد على غزو حصون اليمامة ولم يكن فيها سوى النساء والصبية والشيوخ. لكن مجّاعة أوهم خالداً بأن تلك الحصون ممتلئة بالمقاتلين من بني حنيفة وطلب منه مصالحة عنهم، فصالحه خالد، ثم ذهب مجاعة ليأخذ الموافقة من في الحصون على ذلك الصلح، وطلب من النساء أن يلبسن الدروع والخوذ وأن يظهرن من الحصون فما نظر خالد إليهن ظن أنهن رجال مقاتلون كما قال له مجاعة، وتم الصلح ودعاهم خالد إلى الإسلام فأسلموا جميعاً. وتقول هذه الرواية التاريخية إن الخبر حين وصل إلى الخليفة أبي بكر عاتب خالداً على أنه خدع من قبل مجاعة، كما عاتبه على سرعة زواجه وهو وسط جهاد ودماء وشهداء. فكان جواب خالد لأبي بكر في رسالة بعث بها مع أبي برزة الأسلمي جاء فيها: أما بعد فلعمري ما تزوجت النساء حتى تم لي السرور وقرَّت لي الدار... وأما حسن عزائي على قتل المسلمين فوالله لو كان الحزن يبقى حياً أو يرد ميتاً لأبقى حزني الحي وردَّ الميت، ولقد أقحمت في طلب الشهادة حتى يئست من الحياة وأيقنت بالموت... وأما خدعة مجاعة إياي فلم يكن لي علم بالغيب، وقد صنع الله للمسلمين خيراً، أورثهم الأرض وجعل لهم عاقبة المتقين.

وأعتقد أن خالد بن الوليد كان يقدر أوضاع المجاهدين من المسلمين الذين كانوا في حالة شديدة من التعب، فهم على درجة كبيرة من الإنهاك بعد حروب متواصلة خاضوها مع قوات طليحة في

بـزاخة ثـم مع قوات مالك بن نويرة في البطاح، ثم خاضوا معارك رهيبة مع قوات مسيلمة انتهت بمعـركة ــ حديقـة المـوت، ولهذا فإنه كان يبحث عن حل يتيح لقواته فرصة للراحة ــ وهذا من صـفات القائد العسكري الناجح ــ فجاء عرض مجاعة لعقد صلح مع بني حنيفة خاصة وأنهم عادوا إلـى الإسلام فكان لابد من تلبية مطالبهم، إنه تفكير قائد عسكري فذ يبحث عن مصلحة قواته لتكون دائمـاً جاهزة لتلبية ما يطلب منها والحكمة تقول: إذا أردت أن تطاع فسل المستطاع. وخالد يعلم أن أمام قواته مهمات خطيرة وكبيرة عليها أن تقوم بتنفيذها، فأمام هذا الوضع كان لا بد لخالد بن الوليد أن يقـبل بذلـك الصلح المشرف الذي يتيح لقواته فرصة للراحة وينسجم مع شريعة الإسلام بعد أن أعلن بنو حنيفة عودتهم للإسلام بعد مقتل النبي الكذاب مسيلمة.

ويؤكـد ما ذهبت إليه ما ورد في رسالة أخرى أرسلها خالد بن الوليد إلى الخليفة أبي بكر بعد عقـده الصـالح المذكور مع بني حنيفة يقول فيها:... أقسم بالله إني لم أصالحهم حتى قَبِلَ من كنتُ أقوى به، وحتى عجف الكراع، وهلك الخف، ونهك المسلمون بالقتلة والجراح،...

إنهـا صورة مؤلمة للحالة التي وصل إليها المسلمون من التعب والإنهاك والجراح. ولهذا تقول الرواية: إن أبا بكر سُرَّ بعد قراءته لهذه الرسالة.

نهاية المتنبئة سجاح:

سـجاح بنت الحارث بن سويد كانت تعود بنسبها من جهة أبيها إلى بني يربوع، ومن هنا كانت على قرابة مع مالك بن نويرة، بينما تعود بنسبها من جهة أمها إلى بني تغلب الذين كانوا يقيمون في بـلاد الرافديـن، وهذا ما جعل الرواة يقولون بأنها كانت نصرانية أي على دين بني تغلب. وعندما بـدأت حركات الردة خاصة بعد وفاة رسول الله (ص) وسمعت بردة طليحة ومسيلمة، بدأت بإعلان نـبوتها وتـبعها عدد كبير من بين تغلب ومن بني يربوع وسارت إلى منطقة نجد حيث أرسلت إلى مالك بن نويرة تقترح عليه مهاجمة المدينة المنورة معاً. ثم اتفقا على مهاجمة بعض القبائل المعادية لبنـي تمـيم وتغلـب. لكن قواتها أخفقت في صدامها مع بعض القبائل في منطقة نجد فاتجهت مع أتباعها نحو اليمامة واجتمعت هناك بمسيلمة الكذاب وعرض عليها نصف الأرض، ثم عرض عليها الـزواج فقبلـت به زوجاً وجعل مهرها وضع صلاتين مما فرضه محمد (ص) وهما صلاة الفجر وصلاة العشاء. ثم لما بلغها سير خالد بن الوليد بقواته نحو منطقة اليمامة بعد أن قضى على حركتي طلـيحة ومـالك بن نويرة، عادت إلى منطقة بلاد الرافدين وبقيت بين قومها من بين تغلب ثم عادت إلى الإسلام وحسن إسلامها. وتوفيت في عهد الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان في مدينة البصرة، وقيل بل كانت وفاتها في مدينة الكوفة.

فـي خـتام هذا البحث أستطيع القول إن لخالد بن الوليد الفضل الكبير في توطيد أركان الدولة العربـية الإسلامية وحفظ وحدتها، فهو القائد العسكري الأول في حروب الردة وصاحب اليد الطولى في قمع حركات المرتدين، التي كانت حركات تمرد وانفصال. فقد كان بحق سيف الله المسلول، دلّ

على عبقرية عسكرية نادرة اكتسب علومها من فطرة نشأ عليها منذ صغره ثم من خبراته التي حصل عليها في معاركه السابقة قبل إسلامه وبعده، ومن ميزات في شخصيته، منها جرأة منقطعة النظير، وإيمان يجعله يضحي بحياته في سبيله. أكثر الله من أمثاله في أمتنا العربية التي تعاني اليوم من كثرة التحديات والأعداء، وتحتاج إلى قادة كخالد بن الوليد سيف الله.

□

مصادر البحث ومراجعه

(1) تاريخ الطبري: ج 3، الطبعة الأولى المطبعة الحسينية المصرية (في أخبار سنة 11 هـ)

(2) البداية والنهاية: لابن كثير، ج 5، الطبعة الثالثة دار الفكر 1998 (في أخبار سنة 11 هـ)

(3) الكامل في التاريخ: لابن الأثير الجزري، ج 2، (في أخبار سنة 11 هـ، من ص 128 حتى 147)

(4) أعلام النساء: عمر رضا كحالة، ج 2، الطبعة العاشرة مؤسسة الرسالة 1991

(5) خالد بن الوليد: الجنرال. أ. أكرم، ترجمة العميد الركن صبحي الجابي ـ دمشق 1976

(6) حروب الردة د. شوقي أبو خليل، الطبعة الأولى دار الفكر، دمشق 1984 م.

□□□

وللمرأة دور نضالي في معركة اليرموك

الدكتور محمود الربداوي*

***في** البدء لا يملك المرء إلا أن يبدي إعجابه بالجهود العظيمة التي بذلها (الجنرال أكرم) الضابط المدرّب المؤرخ في كلية الأركان الباكستانية (كلية كويتا) الذي ألف كتابه (خالد بن الوليد: سيف الإسلام) وترجمه إلى العربية العميد الركن صبحي الجابي، فعندما شعر*

الجنرال أكرم بأن في التاريخ الإسلامي إنجازات عسكرية عظيمة، ومعارك قامت بها جيوش المسلمين، وقادة كانوا موهوبين في إدارة استراتيجية الحروب، ووجد أن إنجازات هؤلاء القادة ما زالت صورتها الحقيقية المتألقة لم تعط حقها من البحث الجاد، أخذ على عاتقه أن يوقف محاضراته في كلية الأركان، وأن يرحل إلى البلاد العربية التي كانت ميدان الحملات المظفرة التي أنجزها قادة غيّروا وجه التاريخ بانتصاراتهم على القطبين الوحيدين الفرس والروم في عالم السياسة والحرب في القرون الوسطى، وهذه المنجزات التي حققوها هي التي أخرجت العرب من عصر الظلمات إلى عصر النور، وهي التي ننعم بالعيش على مكتسباتها الآن، بعد أن انتشر العرب خارج جزيرتهم، وملكوا أصناع المعمورة وورثوا تركة حضارتين من أعظم الحضارات التي قامت في آسيا وأوروبا، غير ن الصورة الحقيقية لتحرك هذه الجيوش العربية وتفاصيل المعارك وجزئيات ميادين القتال لم يتضمنها كتاب عصري واحد، صادق المعلومة، مبرأ من الهوى و(الشوفونية) وإنما ما زالت هذه التفاصيل- وحريٌ بجيل الألفية الثالثة أن يعرفها لكي لا ينقطع التواصل بين الماضي والحاضر استعداداً لانطلاقة المستقبل- أقول هذه التفاصيل ما زالت مغيبة، وما زالت دفينة متفرقة في بطون أسفار التاريخ والأدب، وهذا الذي حفز رجلاً غيوراً هو الجنرال أكرم أن يتجشم عناء الارتحال والبحث والتنقيب في الجزيرة العربية والعراق والأردن وبلاد الشام ليتقرى واحدة من مسيرات الأبطال العرب ممثلة بخالد بن الوليد. تتبع تحركات خالد من المدينة إلى اليمامة إلى

* رئيس تحرير مجلة التراث العربي.

القادســية إلى اليرموك، إلى دمشق، ثم استقر آخر أيامه في حمص حيث وافته منيته في مطلع العقد الثالــث الهجــري الــذي مضى عليه أربعة عشر قرناً، فلكي لا ينسى الجيل الحاضر – بفعل مرور أربعة عشر قرناً– أمجاد تاريخه نكتب له هذه الصفحات. ولما كانت منجزات ابن الوليد لا تتسع لها الصــفحات ولا المؤلفات لذلك سنقتصر على صورة جزئية من جزئيات اليرموك، ذات دلالة كبيرة تحفــز الــرجل والمرأة على أن يدرك أن هذه الأمة العربية العظيمة أمة ليست بعقيم، وإنما هي أمة ولــود، مصداق ذلك هذه الصور (الاستشهادية) التي يُقدمها الشباب والشابات دفاعاً عن الأرض التي أورثهم إياها خالد وعمر، الأرض الحافلة بالمقدسات للمسلمين والنصارى.

لقــد كتــب عــن خــالد بن الوليد الكثير من المؤلفات، ولكن الكتابة عن أيام معركة (اليرموك Hieromax) قليلة نسبياً، وما كُتب عن تلك الأيام معاد مكرَّر، وبقيت هناك جوانب أخرى مغيّبة لم تتطرق إليها المؤلفات، وحتى موقع اليرموك من جغرافية الوطن العربي لا يعرفه الكثيرون من أبناء العــرب، وعلــى الرغم من موقع نهر اليرموك بين سورية والأردن إلا إن نسبة قليلة جداً جداً ممن يعــرف، بالضــبط، أين دارت رحى المعارك الفاصلة بين العرب والروم، وأين تركزت حركة الكر والفر بين الجيشين من ضفتَيْ الوادي الذي يبلغ طول تعرجاته وروافده من (الهرير والعلاّن والرقّاد) حوالــي خمسين كيلومترا، وأين تقع من شط الوادي مخاضة (الياقوصة، أو الواقوصة) التي شهدت الموقــف الحاســم من الانتحار القسري الذي تساقط فيه ما يقرب من أربعين ألفاً من فرسان الروم ورجّالتهم.

الــنقطة التي أراها جديرة بالبحث ولمّا تُبحث من قبل إلا لماماً تتمثل بالدور العظيم الذي قامت بــه نســاء المســلمين فــي اليرموك، وهو دور مشرِّف على غاية من الأهمية، على الرغم من أن المــراجع التاريخيــة مــرّت عليه مروراً سريعاً، ولم تُوفه حقه من التحليل. والذين كتبوا عن هذه المعركة إما مؤرخ لا يعرف استراتيجية الحرب، وإما عسكري يعرف فنون الحرب ولكنه لا يعرف تــاريخ نشــوء الأمم والأحداث المفصلية التي تلعب دوراً بالغ الأهمية في تغيير الهويات الجغرافية وجنسيات الأعراق المسيطرة عليها.

تجمع المصادر على أن أول من فتح باب الحرب في اليرموك غلام حدَث من الأزد يرغب في الاستشــهاد، فحمــل علــى الروم وهو ينشد رجزاً، فقتل أربعة من جنود الروم، وقُتل في مبارزته للجــندي الخــامس، وعــندها شدَّ الروم على المسلمين فكشفوا ميمنتهم، فتراجع المسلمون إلى التل المــرتفع الــذي ارتــأى أبو سفيان على القائد العام أبي عبيدة أن تُخيّم نساء المسلمين فيه. فقال أبو عبــيدة: نعم ما رأيت، فأمرهن بذلك، ففعلنَ وعلون على التل، وحصنَّ أنفسهن مع أولادهن، ومعهن الأولاد والأطفــال. قــال أبو عبيدة لهن: خذن بأيديكن أعمدة البيوت والخيام، واجعلنَ الحجارة بين أيديكــن، وحرّضن المؤمنين على القتال... فقالت النساء: أيها الأمير، أبشِر بما يسرك.[1] وأن ينتشر

[1] تاريخ دمشق: ابن عساكر، ج145/2. وفتوح الشام للواقدي، 202.

الجـيش الــذي أصــبح قائده العام خالد بن الوليد بين أذرعات ونهر الهرير[1]، وهذا التل المرتفع- بــتقديري- هــو أحد تلّين لا ثالث لهما في هذه البقعة من سهل حوران: تل الأشعري الذي يقع في الضفة الشرقية لنهر اليرموك[2]، يمكّنه ارتفاعه من الإشراف على ضفتَيْ الوادي. ويطل على السهل الــذي ينتشــر فــيه الجيشــان، فيراقــب حركتَيْ الكرّ والفر لإطلالته على السهل الذي فرضت فيه المعــركة، والــتل الثاني تل الخمّان، وربما أشار أبو سفيان باختياره لتخييم النساء فيه؛ لأنه جاء في مشــورته على المسلمين أن يجعلوا (أذرعات)[3] وراء ظهورهم ليتمكن مخيَّم الجيش الإسلامي من ســهولة التواصــل مع دار الخلافة في المدينة لتسلّم الإمدادات والبريد، وله خصوصية أخرى وهي عزل النساء والأولاد عن بؤرة المعركة ونقاط تحرك المتحاربين. وبالمناسبة، جديرٌ بي أن أذكر أن جــيوش المســلمين- في القرن الهجري الأول- كانت فيالق، هي بدورها تتألف من سرايا- بالمعنى الواســع للسرية- والسرايا قوامها وحدة القبيلة ببطونها وأفخاذها، تأتمر بإمرة شيخ القبيلة الذي يتلقى تعليماته من القائد الأعلى للجيش، ودرج المحاربون على اصطحاب أسرهم معهم في الغزو والجهاد؛ لأن ذلــك أدعــى لصــمود المحارب الذي يدافع عن عقيدته أولاً، وعن أسرته المعسكرة خلفه ثانياً. ولذلــك فقــد اصطحب المحاربون أسرهم في غير ما غزوة قبل قدومهم إلى اليرموك، وقد سجل لنا الــتاريخ العربي بطولات نسائية مشرِّفة في هذه الغزوات داخل الجزيرة العربية وخارجها. وهذا ما حصــل فــي معــركة اليرموك التي يمكن أن نلخص الدور الذي قامت به المرأة الرديف للمحارب بالمهمات التالية.

1-**الوقوف أمام المنهزمين** من المحاربين العرب، وتشجيعهم للدفاع عن الحرمات والذراري. وهذا هو جوهر الغاية من مرافقة النساء لرجالهن في الغزوات والحملات- كالذي شاهدناه في الأيام الأولــى من معركة اليرموك عندما تراجعت جيوش المسلمين حتى وصلت إلى التل الذي تعتصم فيه النســاء. يقــول الواقدي: "ونظرت النساء خيل المسلمين راجعة على أعقابها، فنادت النساء: يا بنات العــرب! دونكــن والــرجال، ردوهم من الهزيمة حتى يعودوا إلى الحرب، قالت سعيدة بنت عاصم الخولانــي: كنــت في جملة النساء، يومئذ على التل، فلما انكشفت ميمنة المسلمين صاحت بنا عفيرة بنــت غفــار، وكانــت من المترجلات الباذلات ونادت: يا نساء العرب، دونكن والرجال، واحملن أولادكــنّ على أيديكنّ، واستقبلنهم بالتحريض؛ فأقبلت النسوة يرجمن وجوه الخيل بالحجارة، وجعلت ابــنة العاص بن منبّه تنادي: قبّح الله وجه رجل يفرّ من حليلته؛ وجعل النساء يقلن لأزواجهن: لستم لنا ببعولة إن لم تمنعوا عنا هؤلاء الأعلاج؛ قال العباس بن سهل الساعدي: كانت خولة بنت الأزور، وخولــة بنت ثعلبة الأنصارية، وكعوب بنت مالك بن عاصم، وسلمى بنت هاشم، ونعم بنت فياض، وهند بنت عتبة بن ربيعة، ولُبنى بنت جرير الحميَريّة، متحزّمات وهن أمام النساء والمزاهر معهن،

---

(1) تسمي المراجع الحديثة التي لم تعرف المنطقة هذا النهر نهر الحرير تأثراً بكتابات الأجانب، وهو ليس بنهر وإنما هو سيل يجف صيفاً.

(2) يقع تل الأشعري على بعد خمسة كيلومترات من سقوط نهر الحرير في بداية شق حفرة الهدام اليرموك في نقطة تسمى (الطّباح).

(3) يطلق عليها في المصادر الرومية اسم (Edrey).

وخولة تقول هذه الأبيات:[1]

يا هارباً عن نسوةٍ ثقاتْ لها جمالٌ ولها ثباتْ
تسلّموهن إلى الهناتْ تملك نواصينا مع البناتْ
أعلاجُ سوقٍ فُسُقٍ عتاة ينلن منا أعظم الشتاتْ

قال: ورجعت النساء تحرّض الفرسان على القتال، فرجع المنهزمون رجعة عظيمة عندما سمعوا تحريض النساء، وخرجت هند بنت عتبة وبيدها مزهرها ومن خلفها نساء من المهاجرين وهي تقول الشعر الذي قالته يوم أُحُد، وهو هذا:

نحن بنات طارقْ نمشي على النمارقْ
مشيَ القطا الموافقْ قيدي مع المرافقْ
ومن أبي نُفارقْ إن تغلبوا نمالق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق
هل من كريم عاشق يحمي عن العواتق؟!

قال: ثم استقبلتْ خيل ميمنة المسلمين فرأتهم منهزمين، فصاحت بهم: إلى أين تنهزمون؟ أين تفرون من الله ومن جنته وهو مطلع عليكم؟ ونظرت إلى زوجها أبي سفيان منهزماً، فضربت وجه حصانه بعمودها، وقالت له: إلى أين يابن صخر؟ ارجع إلى القتال، وابذل مهمتك، حتى تمحّص ما سلف من تحريضك على رسول الله (ﷺ). قال الزبير بن العوام: فلما سمعتُ كلام هند لأبي سفيان ذكرت يوم أُحُد ونحن بين يديْ رسول الله (ﷺ)، قال: فعطف أبو سفيان عندما سمع كلام هند، وعطف المسلمون معه، ونظرتُ إلى النساء، وقد حملن معهم، وقد رأيتهن يسابقن الرجال وبأيديهن العُمُد بين أرجل الخيل، وقد رأيت منهن امرأة وقد أقبلتْ إلى علجٍ عظيم، وهو على فرسه، فتعلقتْ به، وما زالت به حتى نكسته عن جواده وقتلته، وهي تقول: هذا بيان نصر الله المسلمين.[2] وكان هذا الموقف من النساء من المواقف الرائعة التي أسهمت في حسم معركة يتقابل فيها جيشان غير متكافئين عدداً وعدة، ولكن مثل هذا السلاح المعنوي رجّح ميزان الجندي العربي فزاد في بسالته، فعاود الهجوم بعد الانهزام؛ لكيلا يشعر بالإهانة والمذلة أمام نساء القبيلة، ولذلك قال منهال الدوسي: "فلقد كانت النساء أشد علينا غلظة من الروم، فرجع المسلمون عن الهزيمة ونادى بعضهم بعضاً،

[1] فتوح الشام، الواقدي، 206، وتاريخ دمشق، ابن عساكر، ج152/2.
[2] فتوح الشام، الواقدي، 206-207.

وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر"[1].

وكانت النساء لا تستغل في الرجال عاطفة الأبوة، وظاهرة الدفاع عن الحُرمات، وهي قيمة أخلاقية ابتدأت في الجاهلية وتنمّت في الإسلام، وإنما لجأت النساء إلى استفزاز الرجال وتحريضهم بلمس العقائد الدينية التي أصبحت بعد انتصار الإسلام وانتشاره في العقدين الأولين من القرن الهجري الأول الدافع الأساس للجهاد، والمرغّب الأصل في الشهادة لنصرة الدين، وخاصة أن المسلمين يحاربون جيشاً يغايرهم تماماً في العقيدة فتلجأ المرأة لا إلى دالّة الزوجية وإنما للنخوة الدينية كالحالة التي رأيناها عندما هاجم بطارقة الروم قلب الجيش الإسلامي وميمنته. حيث كان لواء القلب بقيادة يزيد بن أبي سفيان، ولواء الميمنة بقيادة عمرو بن العاص فتكاثر الروم عليهما، فتراجع المسلمون حتى التصقوا بالتل الذي عليه النساء، وأحاطوا بالتل، فصاحت امرأة: أين أنصار الدين؟ أين حماة المسلمين؟ وكان الزبير بن العوام جالساً عند زوجته أسماء بنت أبي بكر، قال: يا أسماء ما لهذه المرأة تصيح: أين أنصار الدين؟ فقالت له عفرة بنت عثمان: يابن عمة رسول الله (ﷺ) انهزمت ميمنة المسلمين، حتى ألجأهم الروم إلينا، وأحاط بنا الأعلاج وهذه نساء الأنصار مستصرخة بأنصار الدين، فقال الزبير: والله إني أنا من أنصار الدين، ولا يراني الله جالساً في مثل هذا الوقت، قال: ثم طرح الخرقة عن عينه واستوى جالساً على متن جواده، فأخذ قناته وجعل يطعن فيهم طعنا متداركاً حتى ردهم على أعقابهم"[2]

ولم تقتصر هذه المواقف الشجاعة على أن تحرّض المرأة زوجها الذي لها عليه من الدالة ما يسمح بمثل هذا التحريض المشوب باللوم، ولكنْ تعداه إلى مواقف أنثوية أكثر شجاعة حيث تقف امرأة أمام خالد بن الوليد لتذكره بأنه القائد العام لجيش المسلمين، والقائد قدوة لجنوده، فإن ثبت في المعركة ثبت رجاله، وإن وهن انهزم رجاله. وصف الواقدي حملة القائد الرومي (قناطر) بأنها من أشد الحملات مما زعزعت صفوف جيش المسلمين، مما اضطر خالد إلى إعادة ترتيب صفوف جنده، فإذا هو يعبئ ألويته أقبلت إليه امرأة اسمها ذرعة بنة الحارث منحدرة عن التل، حتى وقفت بين يديه، وقالت: "يابن الوليد، أنت من العرب الكرام، وإنما الرجال بأمرائها، فإن ثبتوا ثبتت الرجال معهم، وإن انهزموا انهزمت الرجال معهم، فقال لها خالد: ما كنتُ من المنهزمين، وما كنا إلا نقاتل في الأعلاج، فقالت: قبّح الله وجه عبد نظر إلى أميره ثابتاً وهو منهزم"[3]

2-وقد يقلّل الباحث المنصف من دور النساء في المعركة إذا صوَّر دورهن مقصوراً على مجرد رد المحاربين المنهزمين، وتحريض المقاتلين على العودة إلى صميم المعركة تارةً باستثارة الحافز الديني، وتارة بحافز الدفاع عن الحرمات وحماية الأطفال، وإنما الحق أن يبيّن دورهن في العمليات القتالية نفسها، والاشتباك مع المحاربين الآخرين من جنود الأعداء، وقبل توضيح ذلك

(1) فتوح الشام، الواقدي، 208.
(2) فتوح الشام، الواقدي، 213.
(3) فتوح الشام، الواقدي، 209.

حـــريّ بنا أن نقول إن المصادر التاريخية سواءٌ عند العرب أم عند غير العرب لم تتحدث مطلقاً عن أي دور للمـــرأة الرومانية، لا في المعركة ولا على هامشها، على حين تحدثت مصادر الطرفين عن مشـــاركة المرأة العربية في الأعمال الحربية إن في العمليات (اللوجستية) أو في الاشتباكات القتالية. ولـــيس ذلـــك بغريب على المرأة المسلمة ذلك لأنهن، في فترة مبكرة من تاريخ الإسلام، شهدنَ مع رسول الله المشاهد الحربية، فهن يداوين الجرحى، ويسقين الماء، ويبرزن للقتال، ويقول عبد الله بن قرط: "ولم أر امرأةً من نساء قريش قاتلت بين يدي رسول الله (ﷺ) ولا في اليمامة مع خالد ما قالت نســـاء قـــريش يوم اليرموك، حتى دهمهنّ القتال، وخالط الرومُ المسلمين، فضربن بالسيوف ضرباً وجـــيعاً، وذلـــك فـــي خلافة عمر بن الخطاب (رض)، وكان قد انضمت النساء المهاجرات لغيرهن وقامـــت الحرب على ساق، وتنادى النساء بأنسابهن وأمهاتهن وألقابهن، وجعلن يقاتلن قتال الموت، ويضـــربن وجوه الخيل بالعمد، ويلوّحن بالأطفال، وجعل النساء بعضهن يقاتل المشركين، وبعضهن يقاتل المسلمين حتى رجعوا إلى قتال المشركين"[1].

وممـــا يلحق بإدارة (تكتيك) المعركة ذلك الموقف النفسي العظيم الذي وقفته النساء المخلصات مـــن المهاجرات والأنصاريات عندما هجم الروم على مخيّم النساء وكان فيه مجموعة من نساء لخم وجـــذام وخـــولان، وهي قبائل عربية كانت تعيش في الجولان ومشارف الشام، وتتذبذب في ولائها للـــروم أولاً، حتى ملكهم جبلة بن الأيهم الغساني قاد جيشاً من متنصرة الشام وحارب المسلمين في يـــوم اليرموك. أعود إلى الموقف النفسي الرائع الذي وقفته نساء المهاجرين والأنصار عندما لمسنَ ضـــعف نفســـيات تلك النساء وخورهن وانهزامهن، فلاحظت المهاجرات أنه من الحفاظ على وحدة الصـــف العربي، وتماسك الجبهة النسوية العربية أن تخرج هذه النسوة الضعيفات العقيدة، المتذبذبات الـــولاء من الصف، فروت المصادر الموثوقة أن المحنّكات الحكيمات من نساء المؤمنين من بينهن خولـــة بنـــت الأزور، وأم حكـــيم بنـــت حكيم بنت الحارث، وسلمى بنت لؤي "وجعلنَ يضربن في وجوههـــن ورؤوسهن بالعُمُد، ويقلنَ: اخرجنَ من بيننا، فأنتن توهنَّ جَمْعنا" قال الذين شهدوا المعركة ورأوا بـــأم أعيـــنهم هذا الموقف: "فرجعت نساء لخم وجذام يقاتلن قتال الموت، وقاتلت أم حكيم بنت الحارث أمام الخيل بالسيف، وما نسمع يومئذ صوت واحدة من النساء غير صوت واعظة تعظ، وأما أم حكـــيم فإنهـــا جعلت تنادي: يا معاشر العرب احصدوا الغلف بالسيوف وأما أسماء بنت أبي بكر فإنهـــا قرنـــت عـــنانها بعنان زوجها الزبير بن العوام، فما كان يضرب إلا ضربت مثله" قال شاهد العيان: فانقضَّ المسلمون إلى القتال على أعدائهم حين رأوا النساء يقاتلن قتال الموت، ويقول الرجل لمـــن يلـــيه: إن لم نقاتل نحن هؤلاء.. وإلا فنحن أحق بالخدور من النساء فلله در نساء قريش يوم اليرموك."[2]

ومـــن هذه المواقف الاشتباكية الرائعة ما حدثنا به أبو عامر، وهو جندي شاهد المعركة وقاتل

---

(1) فتوح الشام، الواقدي، ص 218.

(2) فتوح الشام، الواقدي، 218.

فـيها، قال: "وحملتْ خولة بنت الأزور على علج من الأعلاج كان قد حمل علينا، فاستقبلته وجعلتْ تشالشه- أي تضربه ويضربها بالسيف- فضربها العلج بسيفه على قصتها فأسال دمها، وسقطتْ إلى الأرض، فصـاحت عفـيرة بنت عفان، حين نظرتها صريعة، ونادت: فُجع، والله، ضرارٌ في أخته، فـأخذتْ رأسها على ركبتها، والدم قد صبغ شعرها كالشقائق- شقائق النعمان وهو زهر ورقة أحمر داكـن- فقالـت لها: كيف تجدك؟ قالت: أنا بخير إن شاء الله تعالى، ولكني هالكةٌ لا محالة، فهل لك عليَّ بأخي ضرار؟ فقالت عفيرة: يابنة الأزور، ما رأيته، فقالت خولة: اللهم اجعلني فداءً لأخي، ولا تفجـع بـه الإسلام، قالت عفيرة: فجهدتُ أن تقوم معي فلم تقم، فحملناها إلى أن أتينا بها موضعها، فلمـا كان الليل رأيتها وهي تدور تسقي الرجال، وكأن ليس بها ألم قط، ونظر إليها أخوها والضربة فـي رأسـها، فقالَ لها: ما بك؟ فقالت: ضربني علجٌ قتلته عفيرة، فقال لها: يا أختاه: أبشري بالجنة، فقد أخذتُ لك بثأر الضربة مراراً، وقتلتُ منهم أعداداً"[1].

3-وثالثة المهمات التي كانت منوطة بالنساء في الحرب هي العمليات (اللوجستية) صحيح هـذا المصطلح العسكري حديث، ولكنه من مستلزمات الحرب قديماً وحديثاً ومستقبلاً؛ لأن العمليات اللوجسـتية ضرورة لا بد منها للجيوش، وقد كانت النساء تقوم بنصيب وافر منها. فكانت تدخل إلى المعـركة لإخـلاء الجرحى والمصابين، ونقلهم من ساحة المعركة إلى معسكر النساء، وإسعاف من كانـت جـروحه تـنزف، فـي زمـن لم تكن هناك سيارات إسعاف، ولا مستشفيات ميدانية، فدور المستشـفى تقوم به نساء خبيرات مدربات في معارك سابقة، على معالجة الجروح وإيقاف النزيف، ومداواة العيون، وخاصة في اليوم الذي عُرف في معركة اليرموك باسم (يوم التعوير) ذلك لأن رماة القـوس والنشـاب في صفوف الروم كانوا قد حفروا خندقاً وتواروا فيه، وأُعطوا التعليمات بإطلاق سـهامهم ونبالهم على المحاربين المسلمين عندما يقتربون من خندقهم في حالة تراجع جيش الروم، وهـذا مـا كان فعلاً، فما إن اقترب منهم المسلمون حتى أخذوا يطلقون ما في أقواسهم وجعبهم من السـهام، وكـانوا مـن المهارة بحيث يصوّبون نبالهم إلى عيون المسلمين فتصيبها، وقد أُصيب من المسـلمين عيون سبع مئة محارب في يوم التعوير، ومنها العين الوحيدة التي كانت لأبي سفيان في معـركة اليرموك، فرجع من المعركة أعمى، بعد أن كانت عينه الأولى قد ذهبت في غزوة الطائف، فكانـت مهمـة النسـاء معالجة العيون والجروح البسيطة لعل المحارب يستأنف القتال بعد تضميد جراحه.

ومـن الأعمـال اللوجستية المنوطة بالنساء إعداد الطعام وتهيئة المؤونة والماء، والفائض من السـلاح ومخلفات الغنائم، والخيول المكتسبة في المعركة وتقديم العلف لها ولخيول المسلمين البديلة المهـيأة لمـن فقد فرسه، ولتسلّم الإمدادات التي تأتي من دار الخلافة في المدينة، واختبار جاهزيتها ووضعها في تعبئة معينة بإشراف القائد العام.

ومـن الأعمـال العسـكرية التي ساهمت بها النساء العربيات حراسة المعسكرات على الحدود

(1) *فتوح الشام، الواقدي، 218.*

الفاصلة بين الجيشين. وتُجمع كتب التاريخ على أن أشد أيام المعركة هولاً تواقف فيها الجيشان من الفجر حتى العشاء وسقوط العتمة، رجع المسلمون إلى معسكر راحتهم، بعد جهاد شاق في ذلك اليوم، لذلك لم يعيِّن أبو عبيدة أحداً من المسلمين لحراسة الجيش؛ لما نالهم من التعب. بل إنه تولى الحرس بنفسه ومعه جماعة من المسلمين، قال: فبينما هو يدور إذ رأى فارسين قد لقياه وهما يدوران بدورانه، فكلما قال: لا إله إلا الله، قالا: محمد رسول الله، فقرب أبو عبيدة منهما فإذا هما الزبير بن العوام وزوجته أسماء بنت أبي بكر الصديق. فسلم عليهما وقال: يابن عمة رسول الله (ﷺ) ما الذي أخرجكما؟ قال الزبير: نحرس المسلمين، وذلك أن أسماء قالت لي: يابن عمة رسول الله (ﷺ) إن المسلمين مثقلون بأنفسهم في هذه الليلة بما لحقهم من التعب في الجهاد طول يومهم، فهل لك أن تساعدني على حرس المسلمين؟ فأجبتها إلى ذلك، فشكرهما أبو عبيدة، وعزم عليهما أن يرجعا، فلم يفعلا ولم يزالا كذلك إلى الصباح."[1]

وعلى هامش ذلك اليوم يقال: إن خالد بن الوليد قد انقطع في يده تسعة أسياف كلما انقطع سيف استبدل به سيفاً جديداً، وقُتل في يوم التعوير نحو من أربعين ألف رومي أو يزيدون، أما الذين كانوا مربوطين بالسلاسل- وهذه القصة حقيقية، كنا لا نصدّقها عندما نقرؤها في كتب التاريخ ونحن أطفال- فقد وطئتهم الخيل فانحطم أكثرهم، وتقدمت جيوش المسلمين فوق جثثهم، ويقول المؤرخون إن النساء كانت تحارب أمام الرجال في ذلك اليوم.

وباختصار لقد ركبت المرأة الفرس، وتقلدت السيف، وخاضت الصفوف في المعركة فحققت مع الرجل النصر على الروم، الذين كانت قيادتهم تربطهم بالسلاسل لكيلا يفروا، فخسروا المعركة إلى الأبد، ودخلت أرضُ اليرموك، وما حولها من أراضي حوران والجولان في حوزة المسلمين إلى الأبد، وهي أرض خصبة التربة تتفجر فيها عيون الماء، كانت قديماً تسمى (أهراء روما) وهي الآن تموّن جنوب سورية بالغلال والخضار والثمار، وكأن القرآن الكريم وصف الروم عندما قال: ﴿كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك أورثناها قوماً آخرين، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا مُنظَرين﴾[2].

هذا الذي أكتبه الآن بعضٌ من بطولات المرأة العربية المسلمة فيما حفظته لنا كتب التاريخ عن معركة اليرموك، وعن جنود خالد بن الوليد وجندياته، وشتان بين دوافع الجنديات المسلمات والجنديات الإسرائيليات والأمريكيات والأدوار الترفيهية التي تقوم بها هؤلاء الأخيرات.

وصورة المرأة العربية في واحدة من معارك المسلمين تعطينا نموذجاً عن جانب من جوانب نضال المرأة، النضال السياسي والعسكري والاجتماعي، وما حاولتُ رسم هذه الصورة إلا لأخذ العبرة والعظة، وإن كنت لست واعظاً، كما أنني لا أريد باستعراض صور الماضي للرجوع إلى الماضي والتقوقع فيه، وإنما حسبي أن أقتبس من الماضي صوراً مشرقة أضعها بين أيدي أبناء هذا

(1) فتوح الشام، الواقدي، ص 220.

(2) سورة الدخان، 26-30.

الجيل الحاضر وبناته، وتحت بصر شباب العصر وشاباته ليكون كل واحدٍ منهم عصامياً لا عظامياً، تقدمياً لا رجعياً، شعاره قول الشاعر:

إن الفتى من يقول: ها أنذا ... ليس الفتى من يقول كان أبي

وتقول الفتاة:

لسنا، وإن أحسابنا كرُمتْ ... يوماً على الآباء نتّكلُ

نبني كما كانت أوائلنا ... تبني، ونفعل مثل ما فعلوا

□

المصادر والمراجع:

1-تاريخ دمشق، ابن عساكر، ج2، ص 141 فما بعد.

2-خالد بن الوليد، شوقي أبو خليل، دمشق، ص 62 فما بعد.

3-سيف الله خالد بن الوليد، الجنرال أ.أكرم، ترجمة العميد الركن صبحي الجابي، منشورات هيئة التدريب في القوات المسلحة العربية السورية، دمشق 1976.

4-الطريق إلى دمشق، أحمد عادل كمال، دار النفائس، بيروت، 1405.

5-فتوح الشام، الواقدي (محمد بن محمد)، القاهرة، 1954.

المراجع الأجنبية:

Decline and Fall of the Roman Empire, Edward Gibban, London, 1954.

□□□

معارك خالد و نتائجها

د.نبيل صافي*

***خالد** خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي ولد في السنة التاسعة والثلاثين قبل الهجرة وتوفي في السنة الواحدة والعشرين للهجرة – تولى الأعنة والقبة لقريش، ثم برز قائداً من قوّاد الفتح العربي الإسلامي بل لعله أهمهم، وقبل ذلك لمع خلال حروب الردة – وفي المرحلة النبوية-.*

كان خالد متميزاً، مسبباً للنقاش حول تصرفاته، إلا أنه من المؤكد أنه كان جريئاً، حاسماً وصاحب المبادرة التي تحقق المطلوب السياسي في الوقت المناسب.

ستحاول الدراسة هنا تتبع معارك خالد خلال ثلاث مراحل: العهد النبوي – حروب الردة – الفتح العربي الإسلامي.

أ-العهد النبوي:

1-**غزوة أحد**، السنة الثالثة للهجرة: كان خلالها في الصف المعادي للمسلمين ونجح في حركة سريعة قاد خلالها فرسان قريش في إرباك صفوف المسلمين بعد أن كانوا على أبواب النصر[1]، ونريد الإشارة هنا إلى ترجيح الرأي القائل إن عملية خالد كانت بمبادرة منه بعدما رأى الثغرة المحدقة في ترتيب الجيش الإسلامي عندما ترك الرماة موقعهم – كما أنه استغل الإرباك وتابع الضغط وقام وبشجاعة ومهارة بقتل ثلاثة من المسلمين.

2-**غزوة مؤتة**[2]، السنة الثامنة للهجرة: وهي أول مشاركة لخالد بعد إسلامه كان جندياً عادياً في معركة غير متكافئة مع الروم وأحلافهم من العرب، جعله المسلمون قائداً لهم بعد

*-باحث من سورية.

(1)-السيرة الحلبية: ج 2، ص 25-37.

(2)-ابن الأثير: ج 2، ص 236.

استشهاد القادة الثلاثة الذين عينهم النبي"ص" بالتتابع – وكان أمام خيارات ثلاثة: الأول أن ينسحب وينقذ المسلمين من الدمار. والثاني: أن يتحول إلى الدفاع ويستمر في القتال، وفي هـذه الحالة، فإن التفوق في قوة العدد سيؤدي إلى إنهاء المعركة لصالح العدو. أما الثالث: فهـو أن يهاجم ويقلب توازن العدو ثم يقطع التماس به ويتملص من المعركة بعد أن يضع حراسـة فعالة قوية في المؤخرة. وهذا ما فعله فسحب قواته بعيداً، وفي المساء كان قد بدأ مرحلة العودة إلى المدينة، فاقتصرت خسائر المسلمين على اثني عشر شهيداً فقط. نستطيع أن نسـمي ذلـك مأثرة وقد قدر النبي "ص" ذلك بدعوته خالداً سيف من سيوف الله، وبأن الجـيش لم يكن جيش الفُرّار بل الكُرّار بإذن الله، ولعله من منطلق الاستراتيجية التي من أجلهـا كان تحرك النبي باتجاه القبائل العربية المنتصرة بالشام والتي خلفت إرباكاً تكتيكياً بـأن أدت إلى مقتل القائد الغساني مالك بن رافلة – وكانت المعركة فرصة لمعرفة أساليب الروم في القتال.

3- **فـتح مكة**[1]، في السنة الثامنة للهجرة: شارك خالد فيها بقيادته الميمنة التي دخلت مكة من الجـنوب، وقاوم بعض فرسان قريش –من المخزوميين – هذه الميمنة. وتمكن خالد منهم وقتل ثلاثة عشر من فرسانهم.

4- **تحطـيم العُزّى**[2] في العام نفسه كلَّف النبي "ص" خالداً بتحطيم صنم العزى فقام بذلك، على الـرغم مـن محاولة الترهيب التي قام بها سدنة الصنم محطماً بذلك الخرافة والشعوذة، إذ أقـدم علـى قتل الكاهنة التي مثلت دور الإلهة مدللاً على عمق تفكيره العقلاني والإيمان القوي بالله الواحد.

5- **الحملـة على بني جذيمة**[3]، التي أُثير جدل حول تصرف خالد هناك، وانتهى الأمر بتسوية على دفع ديات القتلى وبراءة النبي "ص" من فعل خالد.

6- **غـزوة حنيـن**[4]، العـام الثامن للهجرة، ضد هوازن وثقيف، حيث كان خالد قائداً لحرس المقدمـة التـي دفعها النبي "ص" للهجوم فجر يوم المعركة مع رجال من بني سليم، لكنه جرح فخرج من المعركة – إلا أنه بعد انتهاء الهجوم المعاكس الذي قام به النبي "ص" كان في مقدمة المقاتلين من بني سليم مرة أخرى – وكانت هي المرة الأولى التي يؤخذ بها خالد على حين غرة وهو المعروف باجتراح المفاجأة.

(1)- ابن هشام: ج2، ص 398.
(2)- ابن سعد، ص 657.
(3)- ابن هشام، مرجع سابق، ص 429.
(4)- الطبري، ج 2، ص 72.

7-غـزوة تـبوك الســنة التاسعة للهجرة 630م[1]: كلّف النبي "ص" خالداً بالمسير إلى دومة الجـندل لأسر حاكمها الأكيدر بن عبد الملك قائلاً: [ستجده يصطاد البقر] وقد داهمه خالد ليلاً خارج حصنه وأسره وأتى به إلى النبي "ص".

8-كان آخر ما قام به خالد في حياة النبي هي غزوته إلى بني الحارث بن كعب في نجران – بأربعمائــة فارس فاستجاب هؤلاء لدعوة الإسلام؛ وبقي بينهم إلى أن جاءه كتاب النبي"ﷺ" بالعودة إلى المدينة مع وفد منهم – وكان ذلك في شوال من العام العاشر للهجرة.

ب-عهد الخليفتين، أبي بكر وعمر:

1-حـروب الـردة: شغلت حروب الردة السنة الأولى من حكم أبي بكر، وكان لخالد بن الوليد الـدور المركـزي في هذه الحروب، وقد عقد له أبو بكر قيادة أحد الألوية العشرة التي جهزها لقتال المرتديـن، جـاعلاً من هذا اللواء القوة الضاربة الرئيسية بينما كلّف الألوية محاربة المرتدين الأقل شـأناً، كمـا أبقى لديه لوائين كاحتياط لتعزيز خالد بحسب وقائع الحرب –على أن يبدأ خالد الحرب ويُخرج باقي الألوية على ضوء نتائج عمليات خالد. وتركزت خطة أبي بكر بتطهير أواسط الجزيرة العربـية –ثم إخضاع مالك بن نويرة، وأخيراً التركيز على أخطر الأعداء مسيلمة الكذاب – أي أنه كـان يهـدف إلـى حشد قواته ضد الجيوش المعادية الرئيسية والقضاء على كلّ جيش على انفراد وبالتتالي.. ثم تطهير المناطق البعيدة.

أ- القضـاء علـى طلـيحة بن خويلد الأسدي[2]: جمع طليحة قواته من غطفان وبني أسد في بـزاخة ودعا طيئاً للمساندة – لكن أبا بكر أرسل من ذي القصة عدي بن حاتم زعيم طيئ الـذي حافظ على إيمانه مع خالد لإقناع طيئ بالامتناع عن المساندة ونجح عدي في مسعاه وتمكن من إبعاد طيء عن مساندة طليحة بل بالانضمام إلى المسلمين وخالد وانتهى الأمر إلـى اللقـاء فـي سهل بزاخة جنوب شرقي جبل أجأ، حيث كان النصر للمسلمين وهرب طلـيحة لاجـئاً إلـى قبيلة كلب في الشام، ما لبث أن دخل في الإسلام، وبعدها ساهم في الفتوح في العراق. ونتج عن الانتصار في بزاخة مسارعة قبائل بني عامر وبعض بطون هـوازن وبنـي سـليم إلى تقديم الولاء لخالد لكنه لم يقبل إلا قتل من قام بقتل المسلمين. وتوجـه بعد ذلك إلى "ظفر" لمواجهة سلمى[3] بنة مالك بن حذيفة من غطفان التي جمعت بعضاً من هوازن وسليم ونجح خالد في قتل سلمى وإنهاء تمرد جماعتها.

[1]-ابن هشام، مرجع سابق، ص 526.
[2]-الطبري، مرجع سابق، ص 487.
[3]- المرجع نفسه، ص 492.

ب- **نهاية مالك بن نويرة**[1]: وهو زعيم بني يربوع الذين يسكنون الشمال الشرقي من الجزيرة العربية، وكان "البطاح" مركز القبيلة وقدم مالك على النبي"ص" وقدّم الولاء للإسلام فعينه النبي "ص" لجمع الزكاة وإرسالها إلى المدينة لكن بعد وفاة النبي "ص" نكث العهد وأعاد الأموال لأصحابها.

تحرك خالد إلى البطاح بعد معركته مع سلمى وبعد محاولة مع زعماء جيشه الذين كانوا ينتظرون أوامر الخليفة بالتحرك، لكن خالداً لم يأبه لتلك المعارضة وأقدم على متابعة عمله مستفيداً من الخوف الذي أصاب مالكاً بعد انتصار المسلمين على طليحة وسلمى – ومغادرة سجاح إلى العراق والتي كان مالك قد تحالف معها ونصح مالك رجاله بالاستسلام وبدأ يعد العدة لذلك إلى أن ألقي القبض عليه مع زوجته وبعد نقاش مع خالد قتله خالد.

ج- **موقعة اليمامة**[2]: كان أبو بكر قد أمّر عكرمة على أحد الألوية الموجهة لقتال المرتدّين وكلفه مشاغلة مسيلمة في اليمامة، وهدفه من ذلك تثبيت مسيلمة في اليمامة ما دام عكرمة باقياً في الميدان، بحيث يظل يتوقع هجوم المسلمين دون أن يتمكن من ترك قواعده، وهو يتيح لخالد قتال القبائل المرتدة دون تدخل مسيلمة. وقد حقق خالد ما أراده أبو بكر وقضى على تمرد أسد بن يربوع من تميم وبني غطفان وأعاد هذه القبائل إلى الإسلام مع بني سليم وطيّئ ومن أتاه من المدينة من الأنصار والمهاجرين، واتجه إلى حيث يعسكر مسيلمة في سهل "عقرباء" عند الضفة الشمالية من وادي حنيفة وبلغ جيشه 13 ألف مقابل 40ألفاً جمعهم مسيلمة.

خلال الإعداد للاشتباك أسر أحد أكفأ قواد مسيلمة وهو مجّاعة بن مرارة وقد خطط خالد للقيام بالهجوم منذ البداية، وأن يجبر قومه على وضعية الدفاع وعدم السماح له بالانتقال إلى الهجوم المعاكس، وشكل جيشه بحيث قاد هو القلب، وكان زيد بن الخطاب على الميمنة وأبو حذيفة على الميسرة، وبدأت المعركة الأولى من شوال 11 هـ/ك1 632م بشكل تصادمي وهَدَفَ خالد فيها إلى خرق دعامات مسيلمة والوصول إليه. لكن الأخير قام بالهجوم المعاكس، وتراجع المسلمون عن سهل عقرباء ووصل المرتدون إلى معسكر المسلمين لكن حركة المسلمين من جهة الجنوب أوقفت هجوم المرتدين. وأعاد خالد ترتيب قواته وتقدم بها مرة أخرى إلى سهل عقرباء في هجوم ثان وصمد المرتدون.. هنا تبرز عبقرية خالد حينما دعا وسط الصدام إلى المبارزة وأسقط كل من تقدم إليه، مقترباً من مسيلمة، داعياً إيّاه للمحاولة ومنتظراً أن يأخذه على حين غرة. لكن مسيلمة انتبه في اللحظة الأخيرة وهرب، وكان هَربهُ بداية الشك والهزيمة. وبدأت صفوف المرتدين تتهاوى، بحيث نادى قائد ميسرة مسيلمة رجاله أن يلتجئوا إلى حديقة الحصن التي عرفت بحديقة الموت، ونجح أحد المسلمين بالقفز فوق سور الحديقة وفتح الباب فاندفع المسلمون إلى داخلها حيث نشب قتال شرس

[1]-المرجع نفسه، ص 501-502.
[2]-المرجع نفسه، ص 504-509.

شارك فيه مسيلمة وتمكن "وحشي" قاتل حمزة بن عبد المطلب من تسديد حربته إلى مسيلمة في وقت تقـدم فيه أبو دجانة أحد الأنصار وأكمل بالسيف ما بدأه وحشي وانتهى مسيلمة. وشاع الخبر وهدأت المعركة ليخلد الناس إلى الراحة.

فـي الـيوم التالي وقع خالد ضحية خداع أسيره مجّاعة بن مرارة الذي أوهمه أن بقية المقاتلين متحصـنون بالحصـن. فوافق خالد على الصلح، على أن يأخذ المسلمون الذهب والسيوف والدروع والخـيل ونصف السبي. ثم ترك السبي، بعد مراوغة من مجّاعة. وعندما تم الصلح اكتشف خالد أن لا رجـال فـي الحصـن وإنمـا هناك شيوخ ونساء وأطفال أمرهم مجّاعة عند دخوله عليهم أثناء المفاوضـات أن يلبسـوا الدروع ويلوحوا بالسلاح.. ومع ذلك نفذت المعاهدة وخسر المسلمون ألفاً ومئتي شهيد، منهم خمسمئة من القرّاء وحفظة القرآن.

الفتوح:

أ-التوجه نحو العراق:

وجـه أبـو بكـر خالداً إلى العراق بقوله[1]: "سر إلى العراق حتى تدخلها، وابدأ بمنطقة الأبله وقاتل أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم، وليكن هدفك الحيرة" وكان خالد قد توصل إلى فكرة عملـياته عامة لمواجهة الفرس، فهو يعرف أن الجيش الفارسي جيد التدريب والتنظيم والتسليح ولا تنقصـه الشجاعة لكنه بطيء الحركة، والحركة البطيئة والطويلة تجعله منهكاً.. وقد استغلّ خالد ذلك فـي مواجهـته الأولـى مع هرمز في الأبلّة.. فقد تحرك من "النباح" باتجاه العراق لكن ليس على الطـريق الـذي توقعه طريق "كاظمة"، حيث انتظره هرمز، بل إلى "الحضير" فسارع الفرس إليها عندما كان خالد قد عجل بالإمدادات إلى كاظمة، حيث وصل الفرس عائدين إليها في حالة يرثى لها مـن الإعياء. وهكذا تحقق النصر للمسلمين في هذه المعركة التي عرفت بذات السلاسل، حيث قتل هرمـز قائد الفرس. واستثمر خالد نصره في كاظمة فاتجه إلى نهر ميكيل حيث ظهر حشد فارسي جديـد بقـيادة "قارن" مستغلاً الحالة النفسية الناتجة عن المعركة السابقة وسقط قارن بعد مبارزة مع مقصل بن الأعشى وبعدها بدأ الفرس بالتراجع نحو النهر تاركين للمسلمين نصراً كبيراً ثانياً[2].

وبعـد الهزيمة الثانية حشد الإمبراطور الفارسي جيشين الأول في "الولجة" بقيادة "الأندرززغر والثاني يلحق به بقيادة "بهمن بن جاذويه".

كـان أمـام خـالد أن يواجه جيشين على وشك الاندماج، ثم من جهة ثانية عليه أن يمنع جنود العـدو الهربيـن من المعارك من العودة إلى معارك أخرى فبالنسبة للمشكلة الأولى بادر خالد إلى الهجـوم علـى جيش "الأندرززغر" قبل وصول جيش "بهمن" كما أوكل بإيكال أمر بمنع الجنود من

(1)-المرجع نفسه، ص 553-558.

(2)-المرجع نفسه، ص 561.

الالــتحاق بمعارك أخرى إلى سويد بن مقرن، حيث أوجد مُفارز لحراسة نهر دجلة من أسفل ومنع كل محاولة اجتياز يقوم بها العدو من الشمال والشرق وإنذار خالد بما تدعون. حشد خالد قلب جيشه أمــام جيش الأندروزغر واستدرجه للقتال، في حين حرك الجناحين من الخيالة يميناً ويساراً دون أن يلحــظ الفرس ذلك. وبعد أن أنهكهم أعطى إشارته فبرز الجناحان وتم تطويق الجيش الفارسي الذي وقع في الفخ وهرب قائد الأندروزغر إلى الصحراء. كان ذلك في أوائل أيار عام 633م.

توقف بهمن قائد الجيش الثاني عندما سمع بالهزيمة، لتأتيه الأوامر من الإمبراطور بدفع جيشه إلى أُلَيْس فتركه ليقاتل الإمبراطور وتقدم "جابان" بالجيش إلى نهر عرف نهر الدم فدفع خالد بالمثنى للاستطلاع ثم هاجمهم خالد عند تناولهم الطعام ودامت المعركة ساعتين تراجع الفرس بعدها هاربين فلاحقهم العرب وأعملوا السيف حتى تلون النهر بالدم[(1)] وكان ذلك في منتصف أيام 633م.

تــرك خــالد أُلــيْس إلى أمغشيا[(2)] التي كانت خالية من أهلها فكانت غنيمة باردة ثم توجه إلى الحــيرة التــي كــان يحكمها ملك عربي هو إياس بن قبيصة، والحُكم الفعلي للقائد الفارسي أزاذبه– وقرر خالد استخدام الفرات لنقل أثقال قواته، لكن النهر انخفض مستوى ماؤه نتيجة قطع المياه عند قناطر الفرات، فترك خالد النهر وسار بخيالته إلى باودقلي، حيث قضى على مخفر أمامي يقوده ابن أزاذبــه فأجهــز عليه. وعندما وصل الخبر إلى الوالد مع وصول خبر وفاة الإمبراطور ترك أزاذبه الحــيرة مع الجيش الفارسي إلى المدائن مبقياً مهمة الدفاع عن الحيرة لسكانها العرب الذين تحصنوا فــي قلاعها الأربع، فحاصرهم وفرض عليهم الصلح أخيراً وفاوض عنهم عمرو بن عبد المسيح[(3)]. وسقطت الحيرة وهكذا أنجز خالد ما كلف به في نهاية أيار سنة 633م.

نجــح خــالد بعــد ذلك في السيطرة على الأنبار بعد حصار أسبوعين وذلك في منتصف تموز 633م[(4)].

وتوجه بعدها إلى عين التمر[(5)] حين كان العرب والفرس يدافعون عنها، لكن العرب طلبوا من الفــرس تــركهم لمواجهــة خالد وجيشه حيث نجح خالد في أسر القائد العربي "عقة" وعندما وصل المسلمون إلى عين التمر وجدوا الفرس قد غادروها.

واستعدت المدينة للحصار بإغلاق أبوابها، لكنها ما لبثت أن استسلمت في نهاية تموز 633م.

طلب عياض بن غَنْم[(6)] المحاصر لدومة الجندل، التي ارتدت مع المرتدين، النجدة بعد حصار طويــل من خالد بن الوليد الذي أسرع إليها على رأس ستة آلاف مقاتل، وشدد الحصار على المدينة

(1)-المرجع نفسه، 562.
(2)-المرجع نفسه، 563.
(3)-أبو يوسف يعقوب بن آدم، الخراج ص 143.
(4)-الطبري، مرجع سابق، 575.
(5)-المرجع نفسه، 576-577.
(6)-المرجع نفسه، 578.

التي استسلمت في نهاية آب 633م ثم عاد خالد إلى العراق أثناء غياب خالد في دومة الجندل وحاول الفرس استعادة المبادرة فحشدوا جيشين الأول بقيادة روزبة وأرسل إلى الحصيد والثاني بقيادة زرمهر في الخنافس. كما تم حشد جيشين آخرين من العرب، الأول بقيادة هذيل بن عمران في المصيخ، والثاني بقيادة ربيعة بن بجير في الثني والرميل[1].

وفي المقابل حرك القعقاع بن عَمرو قواته لمشاغلة الفرس أثناء غياب خالد وعندما وصل خالد في أيلول 633م كان عليه أن يمنع تجميع الفرس في جيش واحد مع حماية الحيرة بينما يتحرك المسلمون في قطاع آخر. لذلك قام خالد بترك عياض بن غنم في حامية الحيرة وتوجه مع القعقاع وأبي ليلى إلى عين التمر، وتوجّه القعقاع إلى الحصيد وجيّش جيش روزبة وأبي ليلى إلى الخنافس، حيث زرمهر على أن يبدأا المعركة معاً ونجح القعقاع في قتل روزبه وتشتيت جيشه بينما تأخر أبو ليلى في الوصول -لكن الفرس انسحبوا من الخنافس باتجاه العاصمة "المدائن" الأمر الذي جعل خالداً أمام خيار من ثلاثة: إما المتابعة إلى المدائن، أو مواجهة الجيش الفارسي المستجمع في المصيخ، أو مقاتلة العرب في الثني والرميل. وقد اختار المصيخ. وقد تعامل مع هدفه بعد تحديد موقع الفرس بدقة بمناورة نادرة الحدوث في التاريخ، حيث قرر الهجوم وفي وقت واحد من ثلاثة اتجاهات من الحصين والخنافس وعين التمر ليلاً لتصبح القوات العربية على مسافة قريبة من المعسكر الفارسي، ومن ثم انقضت على هدفها بضربة واحدة كانت كافية لإحراز النصر.

وكان ذلك في تشرين الثاني 633م. لحق خالد بعد ذلك بالعرب النصارى في الثني والرميل، حيث كرر الهجوم الليلي بالألوية الثلاثة وفي وقت واحد شتت شمل أعدائه وكان آخر ما قام به بالإغارة على العراق القريبة من البوكمال، والتي بها حاميتان الأولى للفرس، والثاني للروم قضى عليهما.. ثم غادر خالد سراً ليؤدي فريضة الحج بينما كان جيشه يعاد تجميعه في الحيرة مع نهاية كانون الثاني 634م[2].

ب-على الجبهة الشامية:

أمر أبو بكر خالداً بترك نصف جيشه والإسراع إلى الشام[3] وكان على خالد اختيار أحد طريقين أولهما الاتجاه جنوباً حتى دومة الجندل ومن ثم الاتجاه غرباً إلى الشام، والثاني مسايرة الفرات باتجاه الشمال الشرقي من بلاد الشام.. والاثنان طويلان ويحرسهما قوات بيزنطية بمخافر نظامية.. مما يعرقل السير -فكان لا بد من إيجاد الطريق الثالث الذي يسلك الوسط ويكون الأقصر ويتجنب فيه الصراع مع البيزنطيين.. ويكون هذا الطريق من الحيرة إلى قراقر ثم منها إلى "سوى" ومن ثم إلى الأرك فتدمر والقريتين لكن الخطورة تكمن في المسير من قراقر حتى "سوى" حيث

[1]-المرجع نفسه، 580.
[2]-المرجع نفسه، 583.
[3]-المرجع نفسه، 605-609.

المسير لخمسة أيام دون وجود أثر للحياة – ونجحت المغادرة ووصل خالد إلى سوى ثم آرك[1] التي وافقت على الصلح.. ثم تابع إلى تدمر التي صالحته أيضاً.. وجرت معركة في القريتين تابع بعدها المسير إلى حوارين التي هزمت أيضاً، ومن بعدها إلى ممر بين عدرا والقطيفة، عند ثنية العقاب ثم إلى مرج راهط.. ثم إلى بصرى التي وصلها زمن اشتباكها مع قوة كان يقودها شرحبيل بن حسنة وجرى تماس مع البيزنطيين لكن هؤلاء انسحبوا متحصنين بالمدينة حيث بدأ حصارها، إلى أن استسلمت[2] في تموز 633م.

ج-معركة أجنادين: 634م-13هـ:

وصلت الأخبار إلى بصرى بأن الروم حشدوا جيوشهم في أجنادين فأمر خالد الجيوش الإسلامية -بعد أن أصبح قائدها- بالتحرك إلى فلسطين والالتقاء في أجنادين[3] وكان قرار خالد بالاشتباك هو لإنهاء حالة الاقتصار على السيطرة في المناطق الشرقية شبه الصحراوية والابتعاد عن المناطق المأهولة في الغرب، وهذا الاشتباك هنا هو للخروج من هذه الحالة التي أرادها الروم. لكن المسلمين انتصروا في هذه المعركة التي استمرت لأيام عديدة لتأتي أوامر الخليفة بالاتجاه إلى دمشق، ثم إلى حمص فإنطاكية.

د-فتح دمشق:

بعد معركة أجنادين بأسبوع سار خالد إلى دمشق سالكاً طريق جنوبي القدس حتى وصل إلى ضفة اليرموك عند الياقوصة حيث الروم على الضفة الشمالية للنهر، وتمت هزيمة الروم في آب 634م[4] وتابع خالد بن الوليد المشي إلى دمشق بلوائه الذي كان في العراق ثم تبعته الألوية الأخرى، والنساء والأطفال وأسر محاربي العراق حتى وصلت مرج الصفّر (الكسوة) فواجه جيشاً للروم هناك بقيادة كولوس وأدارير. لكن جيش المسلمين بألويته تمكن من دحر الروم الذين تراجعوا إلى دمشق وتحصنوا بها في العشرين من آب 634م وكان خالد قد ترك سرية في "فحل" لمنع تحرك جنودها لمساعدة دمشق، كما أرسل سرية إلى طريق حمص في بيت لهية لمراقبة الطريق ومنع وصول الإمدادات أيضاً فعزل بذلك دمشق من غيرها وأحكم حصارها[5].

أرسل هرقل جيشاً لتعزيز دفاع دمشق وعلم المسلمون المقيمون في المركز على طريق حمص بذلك وأخبروا خالداً الذي أرسل قوة من خمسة آلاف للاشتباك بالجيش في بيت لهية -لكنها لم تكن

(1)-الواقدي، ص15.
(2)-الواقدي، ص17.
(3)-الطبري: ج3، ص8- الواقدي، ص35.
(4)-الواقدي، ص43.
(5)-المرجع نفسه، 1921.

كافية فعززها خالد بقوة قادها ليلاً كيلا يسترعي انتباه حاميه دمشق وتمكن من إلحاق الهزيمة بالجيش القادم من طريق حمص[1]. دعا خالد إلى حصار دمشق الذي استمر حتى أيلول *634*، حيث تمكن خالد مع مجموعة من قواده من تسلق أسوار المدينة، بينما وافق أبو عبيدة على الصلح والتقى خالد وأبو عبيدة عند كنيسة مريم في وسط المدينة فكان فتح دمشق صلحاً وعنوة[2] -وغادر الروم دمشق- بعد أن حصلوا على هدنة ثلاثة أيام لكن خالداً قاد قوة تمكنت من اللحاق بالقافلة الرومية المحملة بكل شيء غلا ثمنه من دمشق قبل أن تصل إنطاكية. وبعد انقضاء مهلة الهدنة فهاجمها بمجموعاته الأربع من الاتجاهات الأربعة عند سهل يقال له سهل الديباج. وحقق النصر وعاد بغنائم كبيرة بعدة غياب عشرة أيام عن دمشق[3]، ليعلم من أبي عبيدة أن أبا بكر قد توفي وأن عمر قد عزله من قيادة الجيش وأوكل الأمر إلى أبي عبيدة.

هـ-معركة فحل:

حشد هرقل جيشاً جديداً في بيسان غربي الأردن، وهدفه قطع مواصلات المسلمين بالجزيرة العربية، وبدأ العمل بالخطة باحتلال فحل فتحرك لواء شرحبيل من دمشق يتقدمه لواء العراق بقيادة خالد، وسرعان ما انسحب الروم من فحل والتحقوا بالقوة الأساسية في بيسان، ولاحقهم المسلمون حتى النهر، حيث جرت المعركة بعد عدة أيام في مستنقع أسفل فحل وانتهت بهزيمة الروم، وتقدم المسلمون لحصار بيسان التي استسلمت[4] في أواخر شباط *635*م وكان ذلك لإكمال فتح فلسطين من قبل عمرو بن العاص وشرحبيل - الذين هزما الروم في أجنادين الثانية، وبعدها سقطت مدن فلسطين والساحل حتى بيروت وهكذا أصبحت فلسطين بيد المسلمين ما عدا القدس وقيسارية.

و-فتح حمص:

وصلت أخبار فحل وبيسان إلى هرقل وظن أن المسلمين باتجاههم إلى فلسطين غير مهتمين بالشمال، لذلك قرر استعادة دمشق فأرسل قوة بقيادة تودز من إنطاكية عبر بيروت وسهل البقاع (مرج الروم) واقتربت من دمشق في وقت تقدمت فيه قوة أخرى بقيادة شنس من حمص عبر البقاع – فواجه المسلمون الجيشين بقيادة أبي عبيدة وخالد، لكن تودز سحب قوة منهما ليلاً لتهديد دمشق فسارع خالد إلى دمشق ليضرب فيلق تودز، وانطلق أبو عبيدة للقضاء على من تبقى في وجه الروم، وقتل شنس.

---

(1)-المرجع نفسه، ص *28*.
(2)-البلاذري، ص *128*.
(3)-الواقدي، ص *50*.
(4)-الطبري: ج *3*، ص *90*.

أرسل أبو عبيدة خالداً إلى حمص فألقى الحصار عليها بينما توجه هو إلى بعلبك التي استسلمت حاميتها بلا قتال. ولم يطل حصار حمص إذ تم الاتفاق على وقف القتال لمدة عام مقابل عشرة آلاف دينـار ومائـة ثوب من البروكار. وفعلت قنسرين الشيء ذاته. لكن الروم خرقوا الهدنة مع حمص وقنسـرين ودفعـوا بتعزيزات إليهما. ومرة أخرى حُوصرت حمص لعدة أشهر إلى أن اقترح خالد مـبادرة تقضي بترك حصار المدينة والتظاهر بالانسحاب، مما جعل الروم بقيادة هربيس يخرجون لملاحقة المسلمين وعندها توقف هؤلاء والتف المسلمون من على الجانبين بقوتين من الخيالة، وأحكم الطوق حول هربيس ورجاله وألحقت الهزيمة بالروم، وعرض أهل حمص التسليم[1].

ح-معركة اليرموك[2]:

فـي آذار عام 635م وعندما كانت حمص محاصرة بدأ هرقل الإعداد لعمله الأخير في سورية باسـتنفار القوات الرومية من خارج الشام. وفي أيام 636م كان قد شكّل جيشاً من 150 ألف جندي تم حشده في إنطاكية وشمال سورية، يضم السلاف والأرمن والبلغار واليونان والجورجيين. وكانت خطـته تقضـي بمهاجمـة المسلمين في دمشق وعزلهم وبجيش آخر يتم تثبيت المسلمين في حمص وتدمـيرهم ويـتقدم الروم بعدها لتدمير جيوش المسلمين الواحد تلو الآخر. وصلت أخبار التحشدات والخطط إلى المسلمين وقد أدرك خالد استراتيجية الحشد وغرضه -فنصح قائده أبا عبيدة بالانسحاب مـن شمال سورية ووسطها وحشد جميع القوات على صعيد واحد وعلى حافة الصحراء لتكون على اتصـال بعمقها في الجزيرة، وبالفعل تم الانسحاب إلى الجانبين. وقد تم ذلك قبل وصول الروم إلى دمشـق، بعـد أن تحـرك حشد المسلمين جنوباً ليجعلوا ظهورهم لجبل العرب، ومجنبتهم لليرموك، وجبهتهم تواجه جبهة الروم الذين جعلوا ظهورهم لوادي الرقاد – وقد تسلّم خالد القيادة وحدثت فترة سـكون لمدة شهر وبعدها بدأت المعركة التي دامت ستة أيام، وفي الخمس الأولى منها أنهك الروم بـأن تلقى ضرباتهم، وفي السادس هاجمهم ودافعهم باتجاه الرقاد- حيث كانت نهاية هذا الجيش. ولم يترك خالد لما هان قائد الروم فرصة النجاة بل لحقه حتى أدركه على أبواب دمشق مع من تبقى من جـنده فقـتله، وخرج أهالي دمشق لكمين خالد وذكروه بالمعاهدة السابقة فأكدّ لهم أنهم ما زالوا في حمايتها.

كانـت موقعـة اليرموك من حيث هي عملية عسكرية تضم أشكالاً تكتيكية كثيرة مثل الهجوم الجبهـي والاختراق الجبهي، والهجوم المعاكس وصدّه، والهجوم من الجنب، والهجوم من المؤخرة، والمـبادرة حول الأجنحة، وكانت خطة خالد -في البقاء في وضعية الدفاع حتى يتم إنهاك العدو- قد نجحـت، ولـم يشـن خـالد هجومه المعاكس إلا بعد أن تأكد من أن الروم غير قادرين على القتال

(1)-المرجع نفسه، ص 96-97.

(2)-الواقدي، ص 100، البلاذري، ص 143 وما بعدها.

الطبري: ج 3، ص 75 وما بعدها.

الهجومـي، وذلـك فـي آخر يوم من أيام المعركة، وقد تمكن من زعزعة موقع الروم من الجنب، وتمكـن من فصل الخيّالة عن المشاة ثم طردهم إلى الزاوية بين الرقاد والروم – وقد هشمت مطرقة المسلمين جيش الروم على سندان وادي الرقاد تماماً.

بعد معركة اليرموك أمر عمر بن الخطاب أبا عبيدة بفتح القدس. وتم ذلك، وحضر عمر تسليم المديـنة. وفي مؤتمر الجابية برئاسة الخليفة تقرر توجيه الاهتمام إلى شمال سورية فسار أبو عبيدة مـع خـالد إلـى دمشق وحمص ثم قنسرين التي جرت عند أطرافها معركة الحضير[1]، حيث قتل "ينـباس" قائد الروم وبعدها استسلمت "الحضير" ومن بعدها قنسرين على يد خالد في حزيران 637م ولحق أبو عبيدة به ليتجها إلى حلب التي استسلمت بعد حصار 4 أشهر في تشرين الأول 637م.

وتـابع المسـلمون تحـركهم بعد ذلك وتوجهوا إلى إنطاكية[2] وهزموا جيشاً عند نهر العاصي. وحاصـروا المديـنة التي سقطت في تشرين الأول 637م ذهب خالد بعدها شرقاً حتى الفرات ليعينه أبو عبيدة قائداً على قنسرين[3].. ومهمته مراقبة تحركات الروم في الشمال.

□

مصادر البحث:

1 ــ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ط4، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1403/ 1983.

2 ــ البلاذري، فتوح البلدان، طبعة برايل، 1866.

3 ــ الحلبي، علي برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية، المكتبة الإسلامية، بيروت، د.ت.

4 ــ ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، د.ت.

5 ــ الطبري، ابن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تح، محمد أبو الفضل ابراهيم، ط2، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1969.

6 ــ ابـن هشـام، السـيرة النبوية، تح: مصطفى السقا؛ إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، المركز العربي لخدمة الكتاب، مصر، د.ت.

7 ــ الواقدي، محمد بن محمد، كتاب فتوح الشام، القاهرة، 1954.

8 ــ أبو يوسف، كتاب الخراج، ط1، المطبعة الأميرية ببولاق، 1302هـ.

□□□

[1]-الطبري: ج 3، ص 98.

[2]-المرجع نفسه، ص 99.

[3]-المرجع نفسه، ص 101.

خالد بن الوليد
ومعارك الفتوح

د.محمد ضاهر وتر*

***كان** خالد يستنصر بالله (وما النصر إلاّ من عند الله)، كما كان يستمد العزيمة والمعنويات العاليـة والوثـوق بالنصـر من بعض شعرات من شعر رسول الله ﷺ، وضعها في قلنسوته الحمراء، يقاتل بها وهي على رأسه، ومن تسميته بسيف الله؛ وهو القائل "إن معونة الله تأتـي علـى قدر النية" (الطبري -تاريخ الأمم والملوك: 2/603؛ وقد عدّه كثير من العرب والعجم بأنه من أعظم قواد العالم).*

تضمن هذا البحث البنود التالية:

1- مقومات القيادة عند خالد بن الوليد.

2- الثوابـت والمـبادئ القتالية عند خالد، وقد تطرقت فقط إلى ثلاث مسائل، كانت تطبق في الماضـي، وطبقـت فـي الزمـن المعاصـر، وستطبق في المستقبل مع مراعاة الحداثة والظروف المحيطة وهي:

أ- السرعة في الأعمال القتالية والحركية العالية.

ب- التأثير النفسي على العدو.

جـ- الإعياء وأساليب الوصول إليه.

3- الأسباب التي أدت إلى انتصار خالد في معاركه.

---

* عضو جمعية البحوث في اتحاد الكتاب العرب.

خالد بن الوليد وأهم معارك الفتوح

خالد من بين القادة الذين حباهم الله بمقومات القيادة: القابليةِ البدنيّة، والقدرة العقليّة، ثم صقلهما بالخبرة والمعرفة.

طويـل القامة يُرى من بعيد من بين أقرانه، وإذا ركب الفرسَ تكاد رجلاه تلمس الأرض، شثن الكفين والقدمين، عضلاته قوية، كشحُ البطن، عريض المنكبين، متسق الهيئة، وجهه قد لوحته شمسُ الصحراء، يُرى عليه أثر الجدري، عيناه حادتان، تلمس فيهما الوثوبَ والجديّة والصرامة والعزيمة؛ كـان مصارعاً في سوق عكاظ، وقد تصارع مع عمر بن الخطاب في فتوتهما، فصرع خالد عمرَ؛ ولقد أمسك بقائد معركة السلاسل القائد الفارسي (هرمز) فلم يستطع أن يتخلص من قبضته الفولاذية، وكـان (هرمز) يعد من أقوى قواد فارس، وفي معركة مرج الصفر أمسك خالد بياقة (كولوس) قائد حامـية دمشـق، ورفعه ثم رماه عن فرسه، ثم أمسك بـ (أدادير) القائد الثاني، بعد أن ضرب قوائم حصانه، فرفعه عن الأرض وهوى به، فكسر ساقه، وأخذه أسيراً.

وأمـا القـدرة العقلـية، فقـد أوتي ذهناً متوقداً، ومحاكمة نيّرة، وفهماً للأمور، ولمحاً للمسائل المعقدة، وسرعةً في الإجابة؛ وقد شهد له رسول الله ﷺ بهذه القدرة العقلية، فقال له: "إني أرى عقلاً رجـوت ألا يسـلمك إلاّ إلى خير" (ابن سعد –الطبقات: 4/252، 394/7) فهو في كل معاركه كما سـنرى، يـبرز مواهـبهَ، فيقاتل عدوه بطرق فيها الجِدّة والابتكار، ففي معركة (الولَجة) التف على عـدوه، وهـاجم مؤخرته، وفي معركة (المُصَيَّخ) اتخذ قتال التلاقي لألويته الثلاثة، ففي كل معركة شكل من أشكال القتال التكتيكية والاستراتيجية.

ولمـا جاء دور العلم وصقلُ الموهبتين، قام خالد ونشأ في عائلة وفي بيئة تمجد القتال، فقد كان بـنو مخـزوم مسؤولين عن التدريب، وعن تعليم القتال على أسس صحيحة كما كانوا يرونها، ولقد تعلـم خالد منذ نعومة أظفاره صنعة القتال: ركوبَ الخيل وفنونَ القتال، والضربَ بالسيف، والطعن بالـرمح، والرميَ بالقوس، أكان راكباً أم مترجلاً، حتى غدا في بني مخزوم وفي قريش يضرب به المـثل فـي هذا العلم؛ ولذا فقد حاز على هذه المقومات التي ذكرها الله بقوله: ﴿قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ (سورة البقرة- الآية 247).

لقد جاءت حروب الردة، في زمن أبي بكر الصديق، تدريباً لخالد، وصقلاً لموهبته القتالية، فقد تعلـم مـن تلـك الحروب الاستمرار في القتال دون أن يترك لأعدائه فرصة الانتظار والتحضير، والضـغط المسـتمر على خصمه، وعدمَ إتاحة أي وقت حتى مجرد التفكير أو التصدي والردَّ على العـدو بحـزم وشدة بحيث يذيقه أشدَّ الضرر، ويسومه سوءَ العذاب، والحمايةَ لمؤخرة الجيش لأن القـبائل الّتـي كان يقاتلها خالد بن الوليد اعتادت حرب العصابات، ولا تزال تمارس هذا النوع من القـتال، فكانـت مجموعـات الحمايـة من مهمتها: درءُ الأعراب المرتدين، ووقايةُ مؤخرة الجيش الإسـلامي والأنسـاق الأخيرة، والانقضاضُ العنيف نحو مركز القيادة وقتل القائد، ويقتله يضطرب العـدو ويـنهزم، كما حصل تماماً عندما حمل خالد على مسيلمة بهجوم عاصف، فأدبر هارباً حتى

قـتله، والحذرُ الشديد أثناء التقدم والاقترابُ من الأهداف، فكان لا يتقدم إلاّ باستطلاع وبثّ العيون، وإرسالِ الدوريات والطلائع؛ كل ذلك حتى يأمن من المفاجأة، ومن الكمائن المنصوبة، ومن الغارات المفاجـئة، والمطـاردة أي الـتماس المباشر المتوازي والمتلاقي حتى لم يترك للعدو فرصة لإعادة تنظـيمه، أو اسـتكمال قوتـه، كما حدث مع قوات مالك بن نويرة، وكما حدث لقوات مسيلمة حين التجأت إلى حديقة الموت، فلم يغن عن هذا الالتجاء شيئاً، ولم يشفع لها انسحابُها من ساحة القتال.

بعـد أن اكتسـب خالد خبرة قتالية في حروب الردة، وجهه أبو بكر لفتوح العراق، وكانت أهم معـارك هـذا الفتح: كاظمة (السلاسل)، المذار، الولَجَة، أُلَيْس (نهر الدم)، أمغيشيا، الحيرة، الأنبار (وقعـة ذات العـيون)، عين التمر، دومة الجندل، الحَصيد، المُصَيَّخ، الزّميل والثني، الفِراض. وقد نظمـت في هذه المعارك جدولاً بينت فيه: اسم المعركة وتاريخها، ومكانها، وحجمَ الجيوش المتقاتلة وقـياداتها، وفـنَّ القـتال وأشكاله التكتيكية والاستراتيجية، وكان هذا الحقل أهم ما في هذا الجدول، وكـان آخـر حقـل فـي هـذا الجدول هو النتائج؛ وإني سأتناول في هذا بعض المسائل التكتيكية والاستراتيجية التي كان يطبقها في فتوح العراق والشام.

أولاً: السُّرعَة في الأعْمال القِتاليَّة والحركيّة العالية

ذلـك مـبدأ مـن مبادئ القتال الذي استخدمه كبار القادة في القديم أمثال هانيبال، وفي الحديث أمـثال رومـل ومونـتوغمري، ويـبقى هذا المبدأ معمولاً به في الحاضر والمستقبل، مع التطوير والتحديث طبقاً للمسائل التالية:

1-قـرار القـائد السـريع الذي يعتمد على جميع المعطيات والمعلومات عن الصديق والعدو والأرض الصـحيحة، إذ كان خالد يتميز بسرعة إعطاء القرار ضمن المهلة المحددة، حالما تأتـيه المعلومات، ففي معركة كاظمة قرر وبسرعة القتالَ بحركية عالية، وبمناورة واسعة، فقـد دخلت المعلومات عقلة ودماغه؛ أما الآن فقد صُنعتْ أجهزة إلكترونية، تتلقى وتُصدِر بأسرع مما كان في السابق، وسيكون الغد أسرع مما هو الآن.

2-وسـائط نقـل الجـند والسلاح، إذ كانت على الإبل والدواب والسفن والقوارب البسيطة، ثم تطـورت إلـى العربات والبنادق التي تطلق قذائفها رشاً ودراكاً، ثم تطورت إلى الطائرات السـريعة التـي تسبق سرعتها سرعةَ الصوت، وازدادت المسافات، وصارت الأرض كلها مسـرحاً عملياتـياً، يمكن للقاذفات وللصواريخ أن تصل إلى أية بقعة من الأرض في زمن قصـير جـداً؛ وكان خالد في زمانه يسبق عدوه في هذا المجال وفي الوصول بسرعة قبل خصـمه، ففـي معركة الولَجة وصل قبل الجيش الفارسي، ووجه إليه ضربة سريعة أفقدته وعـيه؛ فالسابق بزمن قبل خصمه هو الذي سيربح المعركة، فإذا انطلق صاروخ، قبل أن يـنطلق الصـاروخ المعادي، أو أنهما انطلقا بوقت واحد، وكانت سرعة أحدهما أكبر من سرعة الآخر، فإن النصر لمن سبق.

3-تخفيف، مؤخـرة الجيش، أي أن يكون الجيش ذا حركية عالية، وسرعةً في التقدم، وهذا ما كـان عـند خـالد، فإن جيشه لم يكن له مؤخرة، فهو يتنقل على الإبل أثناء المسير، وعلى الخـيل أثـناء القتال، ويكفي الجيش من الطعام أن يتناول أفرادُه بضعَ تمرات؛ أما الجيش الفارسـي، فكانت مؤخرته ثقيلة، لا يستطيع أن يتقدم بسرعة، ولا يستطيع أن يتنقل إلاّ على طرق ممهدة على الأقل، بعكس الجيش العربي الإسلامي الذي كان يقوده خالد، وكانت هذه السرعة والحركة تعوض الفرس للاضطراب والفزع حتى أن بعض قياداتهم تفر، وتنسحب قـبل وصـول خـالد إليها، كما حدث في فتح الأنبار، إذ فرَّ حاكمها؛ وفي 12 أيار 1940 اندفعت القوات الألمانية بسرعة نحو فرنسا وهاجمت واستولت على عدة مدن، وبقي الهجوم متواصلاً حتى 19 أيار، وقد قطعوا (350) كم خلال مدة بسيطة؛ وكانت مؤخرة الجيش لا تحـد مـن هـذا الاندفاع السريع؛ وإذا ما قارنا بين الحركية في الحربين العالميتين، وبين الحركـية فـي فتوح خالد للعراق وبلاد الشام،لوجدنا حركية خالد أسرع وأقوى اندفاعاً من الحركية التي استخدمت في الحربين العالميتين، مع الأخذ بعين الاعتبار تطور وسائط النقل الدبابـة مقـابل الفـرس، والتقنية في مساعدة القائد مقابل المسائل العادية في اتخاذ القرار؛ واجتاح الجيش الألماني فرنسا في أيار 1940، وقطع مسافة 350كم خلال أحد عشر يوماً؛ واجـتاح الجيش الإسلامي العراق ومواقع الفرس في نيسان 633 خلال سنة تقريباً، وقطع مسـافة بين ذهاب وإياب، وبين مناورة، وبين إنقاذ جيش عياض في دومة الجندل أكثر من ألفي كيلومتر:

ثانياً: التأثير النفسي

1- هـو مجموعـة الأعمال التي كان يقوم بها خالد للوصول الانهيار المعنوي للخصم، وإلى اسـتلامه أو هـربه، وقد طُبق هذا المبدأ من قبل قادة عسكريين في الماضي أمثال نابليون عـام 1796-1797، و(هانيز غودريان) عام 1940. وللوصول إلى هذا التأثير كان خالد يقـوم بمـا يلي: 1-الهجوم الشديد والعنيف كما حدث تماماً في معركة (أُلّيس) في الأسبوع الأخـير مـن صـفر سـنة 12هـ- الأسبوع الثاني من أيار عام 633م، فلم يثبت الجيش الفارسي ومن معه من الفرس والعرب، وقتل منهم الكثير حتى جرى الدم عبيطاً؛ وكما كان في دومة الجندل.

2-قـتل قائد جيش الخصم، وبقتله تنهار معنويات جنده، فقد قتل (هرمز) قائد الجيش الفارسي فـي معركة الكاظمة، وقتل الجودي بن ربيعة قائد القبائل العربية المدافعة عن حصن دومة الجـندل، كما قتل عقّة بن أبي عقّة في معركة عين التمر، إذ انقض عليه مع مجموعة من حراسـه، فوصـل إلـيه وهـو في القلب، فانتزعه من بين جنوده، ثم قتله على مرأى من المشـاهدين، كما قتل ربيعة بن بجير في معركة الثنيّ والزميل، وهكذا كان أولَ ما يبدأ به

القتال أن يغتنم الفرصة للانقضاض على القائد؛ وهذا الأسلوب لا يزال متبعاً حتى وقتنا الحاضر، وسيطبق في الحروب القادمة، إنه من الثوابت القتالية، فالجنود متى فقدوا قائدهم، فترت همتهم، وهمد نشاطهم، وضعفت معنوياتهم.

3-تكثيف الرمايات (رشقات النبال) على الأماكن الحساسة من أجسام المقاتلين الأعداء؛ ففي معركة الأنبار، وفي حصار هذه المدينة، كان النبّالة من الجيش الإسلامي، إذ لما أمرهم خالد -وهم ألف- أن يرموا العيون، فرشقوا رشقة من ألف نبال، ثم أتبعوها برشقة أخرى سريعة، ثم ثالثة، وكانت حصيلة هذه الرشقات أن فقئت عيون ألف مقاتل من مدافعي هذه المدينة، فهربوا مذعورين، وهم يقولون "ذهبت عيون أهل الأنبار". وهرب معهم قائدهم؛ وهذا الأسلوب أيضاً لا يزال معمولاً به حتى هذه الأيام؛ وقد كتب تشرشل في مذكرته في 3 أيلول 1940 "يجب أن نزيد من وسائلنا لنقل أكبر حمولة من المتفجرات في أجواء ألمانيا لسحق صناعتها سحقاً تاماً وبنيتها العلمية التي يرتبط الجهدُ الحربي والتنظيمُ الاقتصادي للعدو". وقد شمل القصف فيما بعد ذلك القوى المدنية والعسكرية على المستويين التكتيكي والاستراتيجي، وجاءت القنبلة الذرية تتويجاً للقصف الكثيف والمدمّر.

4-السمعة القياديّة لشخصية خالد

إن شخصية خالد وهيبته القيادية، وشجاعته وجرأته، وأنه لن يهزم أمام أعدائه، كل ذلك قد أثّر نفسياً في صفوف العرب والفرس والروم، ففي معركة دومة الجندل، وقبل المعركة الثانية، كان خالد قد أرسل بتكليف من قبل الرسول ﷺ إلى دومة الجندل وذلك في منتصف شعبان سنة 9 هـ - تشرين الثاني عام 630م، فأسر أكيدر بن عبد الملك وصولح على الجزية، واليوم وبعد انقضاء ثلاث سنوات، يقف أكيدر والجودي بن ربيعة ومن معهما من القبائل العربية: كلب، غسان، وديعة، فيتصدون للجيش الإسلامي الذي كان بقيادة عياض بن غنم، فيسرع خالد لنجدته، فما أن سمع أكيدر بتحرك خالد باتجاه دومة الجندل، حتى حزم أمتعته، وخرج منها هارباً إلى بلاد الشام؛ وفرّ (آزاذبه) حاكم الحيرة، كما فر أكيدر؛ وقد سماه رسول الله ﷺ: سيف الله فقال: "فنعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد، خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سلّطه الله على الكفّار والمنافقين".

ثالثاً: الإعياء

هو استنزاف قوة العدو المادية والمعنوية للوصول به إلى درجة الإعياء، بحيث لا يمكنه الاستمرار في الحرب إلى النهاية.

كان خالد يركز على العنصر البشري المعادي، فهو في كل معاركه مع الفرس والروم، إنما يكثر من إخراج كثير من المعركة، إمّا بالقتل، أو بالهرب إذ يفسح لهم المجال للهزيمة، وهذا ما حدث في معركة أجنادين، إذ هرب معظم الجيش الرومي إلى جهات مختلفة، وفي هذه الحالة يسهل على خالد أن ينتقم منهم وأن يهزمهم. وإذا أحصينا عدد القتلى في الجيش الفارسي لتجاوزت نصف

مليون، ومن الروم أقل، ومن العرب أقل.

كــان خــالد يصــل إلى هذا الإعياء بأشكال تكتيكية واستراتيجية؛ ففي أول معركة مع الفرس، اســتخدم التضــليل والخدعــة، فقد سار بجيشه على طريق كاظمة، وظن العدو أنه سيلتقي مع هذا الجـيش بالقــرب مــن هــذه المدينة، أو على طريقها على الأقل، وحالما اتجهت قوات الفرس نحو كاظمــة، حــول خالد اتجاهه نحو الحفير، فاضطر هرمز أن يحول تركه نحو هذا الاتجاه، وما أن تحول وقطع شوطاً، تحول خالد إلى اتجاه كاظمة، فاضطر هرمز أن يعيد جيشه إلى كاظمة، فأصاب جيشــه من الإعياء ما أصابه، ولاسيما أنه كان ثقيلاً بحركته وعتاده، وبهذا الشكل التكتيكي، استطاع خــالد أن يفتح جيشه للمعركة، وينتصر على أعدائه؛ ويظهر هذا الشكل واضحاً في معركة اليرموك إذ أجـل خــالد هجومــه لقــوات الروم إلى اليوم الرابع، وكان خلال الأيام الأربعة متخذاً الوضع الدفاعــي، حتى إذا وصل العدو إلى حد الإعياء، قام بهجوم معاكس، قضى فيه على الجيش الرومي وكـبّده خســائر كبيرة؛ وهذا مبدأ طبق في الماضي في الحربين العالميتين، وطبق في حرب تشرين عام 1973، وطبّق الآن في فلسطين، وفي أمكنة من العالم على المستويين التكتيكي والاستراتيجي.

وإنــه لمما يزيد الإعياء إعياءً أن الجيش الرومي كان ثقيلاً بأفراده فأغلبهم من البدينين الذين لا يــتحركون إلا ببطء وذلك من كثرة الطعام وقلة التدريب؛ ووسائط نقلهم ثقيلة، فهم يجرون بعرباتهم المــؤن والألبســة والأعــتدة، ونظام قتالهم بطيء وثقيل، إذ يربطون بالسلاسل أثناء القتال حتى لا يستطيع الجندي أن يقاتل إلاّ مع أفراد السلسلة؛ في حين أن أفراد الجيش الإسلامي كانوا على درجة كبيرة من الرشاقة والخفة والمرونة، وذلك لأن طعامهم كان بسيطاً غير معقد، وأن الغزوات والقتال المســتمر المرافق للتدريب قد أكسبهم خفة ورشاقة في ميدان القتال، وكذلك فإن الجيش الإسلامي لا يملك عربات، ولا يقيد نفسه أثناء القتال.

لقــد كان خالد في فتح العراق مبارزاً كبيراً ماهراً، سرعان ما يقضي على خصمه، وكان يجيد الــتطويق من المجنبات والخلف والأمام، فلم يترك للجيش الفارسي مجالاً في أن يتملص أو ينسحب كما حدث في معركة الوَلَجَة، وكان من أبرز القادة في حصار الحصون، فلم يزل على الحصار حتى يستســلم قــائد الحصن ومن معه كما فعل بحصون الحيرة؛ وكان هادفاً في إعادة تنظيم جيشه كلما دعــت الحاجة إلى ذلك بشكل يتناسب مع المهمة القتالية وقوة العدو وطبيعة الأرض كما فعل عندما تقــدم إلى الأنبار، وقد أظهر خالد براعة في قتال التلاقي، فهاجم المُصَيَّخ من ثلاثة اتجاهات، وكذلك عــند دخوله العراق قسم جيشه إلى ثلاثة تشكيلات، وهذا النوع من القتال كان يعطي خالداً حرية في القــيادة، وســرعة في المناورة، والتعاونَ إذ يستطيع التشكيل الذي تقدم ونجح في مهمته أن يساعد التشكيل الآخر الذي اصطدم بمقاومات عنيفة حالت دون تقدمه، وتضليل العدو عن الاتجاه الرئيسي، وتحقــيق المفاجــأة، والتطويق؛ وطبق خالد في قتاله مع الفرس أيضاً تجزيء القوات المعادية، فكان يحــارب كل جزء وحده ويتغلب عليه؛ ومن إيجابيات هذا المبدأ أنه حقق لخالد مبدأ التفوق على هذا الجزء لاسيما وأن القوات الفارسية مجتمعة كانت أضعاف القوات الإسلامية، واستخدم هذا المبدأ في

معـركة (أُلَيس) عندما فصل نصارى العرب عن فارس وقاتلهم وحدهم؛ وفي معركة الحيرة عندما قتل ابن صاحب الحيرة مع مجموعة القتال، وأمر قادته بمحاصرة كل حصن على حدة، وفي معركة عيـن التمرحيـن فصـل تشكيل عقّة بن أبي عقة من العرب وأسره، ولما رأى الفرس ما حل بعقة انهـزموا، فطـاردهم وقـتل منهم الكثير؛ وبالمطاردة وهو نوع من أنواع القتال كان خالد لا يطارد وذلك بسبب إنساني، فإن الهارب أو الذي رمى سلاحه يتركه وشأنه، إنما كان على تماس مباشر مع العـدو لـئلا يعيد تنظيمه، أو أن يَنْضمَّ إلى تشكيل من تشكيلات الفرس، وهؤلاء هم وحدهم الذين لا ينجـيهم الفـرار من القتل، وكان رسول الله ﷺ ينهى القادة عن المطاردة، فإذا هرب وترك سلاحه، فـإن الهاربين أو الذين استسلموا، أو الذين طلبوا الأمان، فإنهم كانوا جميعاً في مأمن من القتل، ومع شدة خالد في القتال فإنه كان يترك الهارب فلا يتعقبه إلاّ إذا تأكد انحيازه.

كـان خالد يعلم أن القوة في الرمي، ولهذا فإنه كان يشدد على دقة الرمي، ويقوم بتدريب الرماة بشـكل جـيد، ففـي معركة الأنبار ظهر دور هؤلاء الرماة، فكانوا من دقتهم يسددون على العيون فيصيبونها، وتدل هذه المعركة على دقة الرمي ومستوى التدريب الرفيع.

لقـد كانـت مهـنة الجهـاد محببةً إلى خالد، فهو يؤثرها على كل الأعمال ويجعلها في مقدمة اهتماماته، وكان يقول: "لقد شغلني الجهاد عن تعليم كثير من القرآن" (ابن حجر – الإصابة: 2/99).

وقد عبر عن حبه لهذه المهنة بقوله: "ما من ليلة يهدى إلي فيها عروس أنا لها محب أحبّ إليّ مـن لـيلة شديدة البرد، كثيرة الجليد، في سرية أُصبّح فيها العدو". (الذهبي –سير أعلام النبلاء: 1/ 269؛ 27).

من حرب الفرس إلى حرب الروم، ومن أرض العراق إلى أرض الشام، معارك كثيرة خاضها خـالد قـبل أن يـتوجه إلـى الشـام حيث قاتل في الفراض الاتحاد المختلط من الجنسيات العربية والفارسية والرومية، فقضى عليها جميعاً، ومكث في الفراض عشرة أيام ثم عاد إلى الحيرة بانتظار الأوامر الجديدة من القائد الأعلى ومن مركز القيادة العامة في المدينة.

رأى أبـو بكـر أنـه لا يتم النصر على الروم إلاّ بخالد الذي خاض معارك الردة والعراق فلم يهـزم، فأرسل إليه يستحثه السير بسرعة إلى جبهة الروم، ونفذ هذه المهمة الشاقة في المسير؛ وإن خالد بن الوليد اقترن بأبي بكر الصديق الذي كان معجباً بقيادته وبخبرته القتالية، وبانضباطه العالي، وبخاصـة عـندما أتاه نبأ العزل فاستقبلهُ بكل طواعية، وبجوده وكرمه، وبشجاعته التي تعتمد على الإقـدام دون الـتهور، وبتدريبه المتواصل الذي بدأه منذ أن كان يافعاً، واستمر به حتى آخر حياته، وبمعـنوياته العالـية التي كان يتمتع بها حتى في أعقد الظروف وأصعب المهام، وبشدته في القتال، وبحسه الحربي الذي لا يخطئ، وبأناته ووثوبه، وبتحمله للنصب والسغب، وتصرفه في حدود الفكرة العامـة للقـائد، وبقراره الصحيح النابع من معطيات صحيحة، وتقدير صحيح، وبعقيدته النابعة من إيمان بالنصر من عند الله.

كـان خـالد يحب أن يترك له حرية التصرف على المستوى التكتيكي، وألا يقيده القائد الأعلى

بــأمور هــو ألصق بها، وأقرب إليها، ولما أراد أبو بكر أن يتدخل في الشؤون التكتيكية، وأن يفسد علــيه خططــه وتحركاته، قال لأبي بكر: "إما أن تَدَعني وعملي، وإلا فشأنك بعملك". (ابن حجر – الإصــابة: 99/2). حقاً إنه القائد الذي تصرف بحكمة وشجاعة ومرونة وحركية عالية على مستوى المعارك التكتيكية.

لا يغــريه مال من غنيمة، ولا يردده عن هدفه مكسب من عَرَض، ولا يسف إن جمع السلاح والأعتدة والأنعام، ولا يزهو بنفسه إن انتصر، ويصبر إن أصابته البأساء والضراء في الحرب، فغنم ما غنم من حصن العذيب، وفي معركة عين التمر، وظن العدو أنه متى ظفر خالد بهذه الغنائم، فإنه ســوف يتلهى أو يتوقف عن القتال، لكن خالداً ظل محافظاً على هدفه، وأكمل فتح المدن والحصون؛ وفــي مــنطقة البصرة بــ (كاظمة) نزل وتمركز اضطرارياً بعيداً عن الماء، فأوصى جنده بالصبر والاحــتمال؛ وفي معركة الولجة –التي تبعتها انتصارات كثيرة في المذار وفي منطقة البصرة– أمر المقاتلــين الابــتعاد عــن الغــرور، وألا تأخذهم لذة النجاح والغلبة، وأن يكونوا على يقظة وحذر، وجاهزية قتالية كاملة؛ وفي معركة أُلَيْس استنصر بالله، وجاء ربه بقلب ملؤه الثقة والتواضع.

يعــود انتصــار خالد في فتوح العراق والشام إلى المبادئ القتالية ذات الدعائم والثوابت القوية التــي تصــلح في كل زمان ومكان في عصرنا وفي العصور الخالية، وفي العصور القادمة وهي: الســرعة فــي الأعمــال القتالية والحركية العالية، والتأثير النفسي، والإعياء، وإلى الأشكال القتالية المخــتلفة علــى المســتويين التكتيكي والاستراتيجي كالهجوم الجبهي، والاختراق الجبهي (إسفين) والهجــوم الجنبــي (الخاصرة) أو (الخاصرتين)، والالتفاف القريب أو البعيد، والهجوم من المؤخرة، والهجــوم على طول الجبهة (هجوم عام)، والهجوم بالقلب وتثبيت المجنبتين، والدفاع بصورة مؤقتة مــع المحافظة على الهجوم لإعادة التوازن، أو الهجوم بالمجنبتين وتثبيت القلب، والهجوم المعاكس؛ كــل ذلــك كــان خالد يفعله، وكذلك القواد الذين من أمثاله يستطيعون أن يقوموا بكل هذه الأشكال القتالية، لكن الجديد والبراعة عند خالد كانتا تكمنان في أنه كان يطبق هذه الأشكال طبقاً لما تقتضيه ظــروف القــتال، وحالــة العدو والصديق، فيضع ويطبق كل حالة في زمانها ومكانها الصحيحين، وكأنهــا مفصــلة تفصــيلاً، ومطابقة تطبيقاً؛ وإن نسيت فلا أنسى ابتكار الأساليب والأنظمة القتالية الجديدة، لأول مرة في تاريخ الجيش الإسلامي، يبتكر خالد نظام القتال بالكتائب (الكراديس) وبالدفاع المــتحرك فــي معــركة الــيرموك، وكــان قــبلها يقاتل الجيش بنظام الصفوف يقاتل وكأنه بنيان مرصــوص، ويتحرك إلى الأمام أو إلى الخلف، وهو مقيد بهذا النظام؛ وطبقاً لتفوق العدو في العُدَد والعــدد، فقــد شكل خالد ستة وثلاثين كردوساً بعدد ألف من المقاتلين بقيادة قائد؛ ومن مميزات هذا الــنظام المبتكر بأنه يساعد على الحرية في المناورة، والتحرك السريع في ميدان المعركة، وله تأثير كبير على إحداث الخروقات الكثيرة في صفوف العدو، وعلى الالتفات على مجنبتي العدو ومؤخرته؛ كمــا ابــتكر (الســد الزّاحف) في رماياته الكثيفة في معركة الأنبار، وكان من نتيجة ذلك أن هرع الــناس، يتــبع بعضــهم بعضاً دون نظام، ودبت الفوضى في صفوف المدافعين، فلم يدر أحدهم أين يــتوجه وأين يسير؛ كما يعود انتصار خالد إلى الدعم الذي لقيه من أبي بكر الصديق، وإلى التخطيط

مـن قـبل القـيادة العليا في المدينة، وإلى متابعة القتال، وإعطاء التعليمات أولاً بأول، وإلى الإمداد المتواصـل بالـرجال والأعتدة والأسلحة، وإلى التعاون الوثيق فيما بين جيش خالد وبقية التشكيلات التـي كانـت تقـاتل في تلك الجبهة كتشكيل عياض بن غنم، وإلى انضمام بعض التشكيلات الكبيرة كتشكيل المثنى بن حارثة الشيباني، وإلى تقسيم وتوزيع قطاعات القتال على القادة بما يتناسب وحجم الوحـدات التي تهاجم تلك القطاعات (النطاقات)، ومع المهمة ومع قوة العدو، وإلى السرعة العجيبة التـي كان يتنقل بها القائد العام من اتجاه إلى آخر، أو من منطقة إلى أخرى، أفلا تعد سرعة كبيرة، عـندما تحرك خالد من حدود العراق إلى دومة الجندل لإنقاذ جيش عياض، وإلى المناورة السريعة التي كان يجريها على جبهة القتال بالقوى والوسائط المتوفرة لديه، وإلى امتهان الجهاد (التخصص) فـي الأعمـال القتالية، ورغبته الأكيدة في القتال، وإلى علمه الواسع في فن الحرب وأساليب القتال، وإلى لياقته البدنية وكفاءته القيادية.

لقد أثنى رسول الله ﷺ على خالد: "نعم فتى العشيرة" وهو سيف من سيوف الله؛ وأثنى عليه أبو بكـر الصديق فقال: "يا معشر قريش، عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله، أعجزت النساء أن ينشـئن مـثل خـالد" (الطـبري، 563/2). وقال: "فمن يجزي عن جزاء خالد؟" (ابن كثير –البداية والـنهاية: 115/7) وقال: "لأُنسِيَنّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد (الطبري 603/2)؛ وقال عمـر بن الخطاب: "كان والله سداداً لنحور العدو ميمون النقيبة". وقال: "رحم الله أبا سليمان، لقد كنا نظن به أموراً ما كانت". (ابن كثير –البداية والنهاية 117/7). وقال: "رحم الله أبا بكر لقد كان حكمُ أبـي بكـر علـى الرجال خيراً من حكمي" (الطبري: 98/3)؛ كما أثنى عليه أبو عبيدة بن الجراح وبخاصـة في مهارته ومعرفته بعلم القتال؛ كما أثنى عليه قواده الذين رافقوه في فتوحاته فقالوا عنه: "لا ينام ولا يُنيم ولا يخفى عليه شيء(.الطبري: 626/2).

وبعـد، فإن خالد بن الوليد لم ينبغ في العرب ولا في غيرهم أبرع منه في قيادة الجيوش ، ولا أشجع ولا أحذق.

□□□

خالد والبطولة
في الفكر العربي المعاصر

د.محمد جمال طحان *

البطولة *لغةً هي الغلبة على الأقران. وهي غلبة يرتفع بها البطل عمّن حوله ارتفاعاً يملأ نفوسهم إجلالاً له وإكباراً.*

وقديماً كان البطل في القبيلة شخصاً مقدساً وكأنه يحمل قوى خفية تدفع عن القبيلة الأذى.

فالبطل لا يدافع عن نفسه فقط بل يدفع عن أفراد قبيلته الموت وكأنه يهبهم الحياة، لذلك كانت بعض القبائل تعدُّ البطل من سلالة الآلهة.

وهذا ما جعل هوميروس يكتب في القرن العاشر قبل الميلاد ملحمتي "الإلياذة والأوديسا" تخليداً لصورة البطل في مخيلة اليونانيين.

غير أن البطل العربي لم يكن من سلالة الآلهة وإنما هو شخص بشري تتفجر بطولته من وجوده البشري لا من ينابيع إلهية أو قوى سحرية غيبية.

البطولةُ العربية تُستمد من الواقع لا من الخيال، وهي بطولة تستند على قوة الجسد والشجاعة التي قد يتخللها استخدام للسيف أو أي أداة مشابهة. ولم يقف العرب بالبطولة عند جانبها الحربي وحسب بل اتسع معناها حتى شمل الخصال الرفيعة كالصبر والحزم والحنكة:

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أولٌ وهي المحلُّ الثاني

وكذلك شمل معناها العفّة، وهاهو عنترة بن شدّاد العبسي يعتزّ بالتعفّف:

يُخبرك من شهد الوقائع أنني ... أغشى الوغى وأعفُّ عند المغنم

وشمل معنى البطولة الحفاظ على الحقوق والكرم والدفاع عن المستجير، وإغاثة الملهوف،

* - باحث وقاص

والأمثلة كثيرة... ومن منّا لا يعرف قصّة المرأة المستجيرة مع المعتصم؟

إنّما الذكرى تنفع المؤمنين.. فها هو المعتصم ينشغل بحرب بابك ليقضي على ثورته في أذربيجان، فيغتنم تيوفيل الفرصة ويتجه بجيش جرّار من مائة ألف مقاتل إلى أعالي الفرات ويحتل ملطية، ويرمي زبطرة بالمجانيق ويقتل أهلها ويسبي نساءها..... وتصيح امرأة مستغيثة والروم يجرّونها في الأغلال: وامعتصماه، وحين بلغته استغاثتها وهو بعيد عنها ، صاح: لبيك.... وأمر بالنفير للحرب، ثم ركب فرسه في مقدمة الجيش، وكان قد سأل أي بلاد الروم أكثر مناعة؟ فقيل له عمورية، فنقش اسمها على التروس والألوية وقصدها رغم تحذير المنجمين الذين تنبؤوا بإخفاق الحملة.

لكن المعتصم لبّى النداء ومضى مسرعاً إلى فتح عمورية. تلك الواقعة التي ترنّم بها كثير من الشعراء، حتى أثارت عمر أبو ريشة فراح يصوّرها متأسياً على ما آلت عليه حالنا، يقول:

ربَّ وامعتصماه انطلقت ملءَ أفواه الصبايا اليُتَّمِ

لامست أسماعهم لكنها لم تلامس نخوةَ المعتصمِ

وتوالى ذكر الأبطال في التراث العربي، فمنهم طارق بن زياد.. وصلاح الدين الأيوبي وأبو فراس الحمداني وغيرهم.. ومن هؤلاء الأبطال الصناديد خالد بن الوليد.

ما الذي نعرفه عن خالد بن الوليد؟

أول غزوة خاضها خالد في الإسلام هي غزوة مؤتة، وكان له دور فعال فيها وفي النصر على المشركين.

وكان على رأس فرقة من المسلمين يوم فتح مكة واشترك في غزوة حنين، وفي غزوة تبوك، وشارك في حروب الردة وأبلى بلاءً حسناً، وظل يقاتل قوم مسيلمة حتى أخضعهم وقتل مسيلمة الكذاب.

وكان صاحب القيادة الحكيمة والجرأة النادرة يوم اليرموك، وكان له الفضل في فتح دمشق وغيرها.

كما اشترك في حروب الفرس فهزمهم وقتل قائدهم هرمز.

وإذا كانت البطولة تتمثل أحياناً في البطولة الفردية المغامرة من أجل تحقيق الذات الخاصة في التمرد على التفرقة اللونية العرقية أو الخروج على تقاليد القبيلة، فإن بطولة خالد تمثل ما يمكن تسميته بالبطولة الجمعية، بطولة التضحية بالذات من أجل أن يعيش الآخرون بعدل وأمان، أو هي بمعنى آخر، بطولة إنسانية نبيلة، تهدف إلى نشر العدالة ومحاربة الجور والفساد، أو هي بالإجمال بطولة تمثل الضمير الجمعي الطموح لتطلعات الأمة.

وهنا يظهر دور البطل الفردي في تغيير مسار الأحداث، حين تضعه الأقدار في موقع

المسؤولية. وكي نضرب مثالاً على ذلك ننتقل إلى السنة الثامنة للهجرة حيث تلوح في الأفق قافلةٌ تمخر عباب الصحراء القاحلة، مؤلفة من ثلاثة آلاف مجاهد... إنها سرية مؤتة التي خرجت لملاقاة هرقل الذي جاء بمئتي ألف من الروم ومن القبائل التي انضمت إليهم. وكانت وصية الرسول ﷺ أن يتولى الجيش زيد بن حارثة ويكون نائبه جعفر بن أبي طالب فإن أصيب تؤول القيادة إلى عبد الله ابن رواحة فإن أصيب يختار المسلمون بينهم رجلاً يتولى القيادة.

قاتل زيد بن حارثة حتى استشهد، أما جعفر فقد قطعت يمينه فحمل الراية بشماله، وحين قطعت احتضن الراية حتى استشهد. فتولى القيادة عبد الله بن رواحة ثم لحق بصاحبيه، فحمل الرايةَ ثابتُ بن أقرم من بني عجلان وسأل المقاتلين عمن هو أجدر بحملها، فأجمعوا على خالد بن الوليد الذي لم يمضِ على إسلامه سوى بضعة شهور.

قبل خالد المسؤولية وبدأ في وضع خطة حربية تناسب الوضع.. وانتهز فرصة قدوم الليل فبدّل موضع الكتائب، حيث جعل الميمنة ميسرة وجعل مقدمة الجيش في آخره. ورصد من خلف الجيش طائفة يثيرون الغبار ويكثرون الجلبة، فلما طلع الصباح على الفريقين إذا بكل طائفة من الروم ترى قبالتها وجوهاً غير الوجوه، وأعلاماً غير الأعلام، وسمعوا جلبة وقعقعةً للسلاح، فتوهّم الأعداء أن مدداً جديداً أقبل على جيش المسلمين. ولما اندفع خالد للقتال يحاورهم ويداورهم ليفتح ثغرة في صفوف الروم، ويؤمّن انسحاب الجيش، لم يتبعوه خوفاً من الكمين وظنوا أنه يستدرجهم ليطبق عليهم.. وأبلى خالد فاندقّت في يده تسعة سيوف ولم تصبر معه سوى صحيفة يمانية....... وكان هذا التراجع المحمي بشجاعة، غطاءً صالحاً للجيش الذي عاد إلى المدينة بسلام حيث لم يستشهد في المعركة سوى اثني عشر رجلاً منهم القادة الثلاثة الذين ندبوا للشهادة، وهكذا تبدّلت هزيمة جيش المسلمين إلى نصر حيث صمد ثلاثة آلاف مقاتل مقابل مئتي ألف. أي أن كل مسلم كان يصمد أمام سبعين من أعدائه.

فكيف ظهرت عبقريته الحربية؟

إن أجدادنا فسحوا الطريق لخالد الذي وجدوه أهلاً لإدارة المعركة، فوقوا أنفسهم تبعات هزيمة محققة.

وهذا يخالف الأساليب المعاصرة التي تمنع خالداً الجديد من تحقيق إمكانياته، وتكتفي بتقريب أهل الثقة وتقديمهم على أهل الخبرة والاختصاص. وفي رأيي أن البطولة، كما الأفكار العظيمة، هي شيء فردي، وكل ما يشاع عن التأليف الجماعي والبطولة الجماعية ماهو إلاّ أوهام تحمل شعارات غير قابلة للتطبيق، يهدف أصحابها من إشاعتها إلى إثارة الحماسة في المجتمع لإيقاظ الروح الجماعية لديهم كي تنهض الهمم، ويهبّ الناس من رقادهم؛ ولكنّ بناء النفس البشرية لا يستجيب بشكل عملي إلى مثل هذه الدعوات، لأن الولادة حدث فردي، والخلاص في الإسلام وفي الديانات السماوية كلّها خلاص فردي ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾، كذلك عندما أتألم فإن أحداً، مهما كان يحبني، ومهما حاول أن يخفّف عنّي أو أن يفتديني بنفسه فإنّ ذلك لن ينقل ألمي إليه، إنها أشياء غير

قابلـــة للتبادل، ولأنّ الرسول الكريم يدرك هذه الحقيقة عن النفس البشرية ويعْرف منطق الخلاص، حرص على إيصال الرسالة الدقيقة.

هل يمكن أن يسلم خالد أو عمر أو سواهما إذا كان الإسلام سيجعلهم أذلاّء مستصغرين؟ بل لقد آمنوا بعد أن أيقنوا بأنهم سيكبرون بالإسلام ويفوزون بالدارين.

ومع ذلك أقول: هل كان من الممكن لخالد أو سواه أن يكون بطلاً لولا أصحابه؟

البطولة الفردية أمر قائم لاشكّ فيه، ولا يمكن إنكاره، ولكنّه أيضاً أمر غير ممكن التحقّق بغير الجماعة التي تسمح له بالظهور، وتستمر في دعمه حتى يؤتي ثماره، وهي ثمار تحقّق للبطل فرصة إثبات الذات، كما تحقّق للجماعة فرصة الشعور بالأنفة والتميّز والتمتّع بالكرامة.

خـــالد بطـــل.. نعـــم، وإن إتاحة الفرصة له كي تبرز مواهبه الحربية، كان لها رافدان مهمّان: الأوّل تقديـــم خالد بوصفه أنموذجاً للبطولة والتضحية والذود عن حياض الأمّة، والثاني قطع الطريق على المدّعين الذين يتسنّمون قيادة الأمّة ثمّ يودون بها إلى الجحيم لأنّهم، بالأصل، لا يملكون موهبة القيادة التي تؤهلّهم لأداء الرسالة التي تناط بهم.

وهـــنا أيضـــاً تظهر عبقرية عمر الذي أتاح له بعد النظر أن يمارس صلاحياته، بوصفه خليفة فيدافع عن خالد ويمارس دور الوقاية قبل أن يستفحل الأمر، فيأمر بعزل خالد قبل أن تسول له نفسه أن يذهـــب بعيداً في الزهو وينتقل إلى سدّة القيادة السياسية فيمارس الإدارة التي لا يعرف مفاتيحها، فيخســـر نفســـه علـــى الصعيدين: التخلّي عن ساحة المعركة التي يتقنها، والتورّط في الإدارة التي يجهلها، فيخسر بذلك سمعته الجهادية، ويتأذى المسلمون وهم ما يزالون يبنون دولتهم الفتيّة.

النتيجة المستخلصة من هذا الحدث، ومن خلال قراءة جديدة له، يبدو لنا، بمعنى من المعاني أنّ الخلـــيفة عمر، بحكمته المعهودة المدهشة، ساهم بتكريس صفة البطولة لخالد بن الوليد، ومن حُنكته خـــالد الحربـــية أنّه حاصر مدينة الأنبار وكانت مدينة حصينة محاطة بخندق عميق، لكنه كان قليل الصـــبر علـــى الحصار فأمر رماته أن يصوبوا سهامهم إلى عيون أعدائهم، وأن يرموهم في وقت واحد، فأصابوا نحو ألف عين منهم، فسميت تلك الواقعة (ذات العيون).

ثـــم طاف بالخندق وتخيّر أضيقَ نقطة فيه، فأمر بنحر الإبل الضعيفة، وألقاها في الخندق حتى غطـــت ذلك الجانب فصنع بذلك جسراً عبر عليه جنوده تحت غطاء من الرماة الذين أخذوا يرشقون حامية الحصن بالنبال، حتى استطاع اقتحام الحصن وفتح المدينة.

لكن خالداً يزهد في القيادة كما البطل الحق حين يجد طموحه أكبر من القيادة التي لم تكن هدفه، ويساعده على استمرار الزهد قرار عمر بعزله. وقد حدث ذلك في معركة اليرموك التي لم يجد أبو بكـــر خيراً من سيف الله المسلول خالد لقيادتها، فأمره بالمسير إلى الجيش الإسلامي فيها حيث كانت تـــنظره أربـــع كتائب من المسلمين يقودها أربعة من الأمراء، اجتمعوا فيما بعد جميعاً تحت إمرة خالد.

وهناك وقف خالد بجيش المسلمين خاطباً: (إن هذا يوم... من أيام الله... لا ينبغي فيه الفخر لا ولا البغـي، ثـم أخلصـوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم، وتعالوا نتعاور الإمارة، فيكون أحدنا اليوم والآخر غداً، والآخر بعد غد، حتى يتأمّر كلكم....). وفيما كانت المعركة دائرة توفي أبو بكر وتولى الخلافـة عمـر وجاء البريد بنبأ عزل خالد ونقل الإمارة إلى أبي عبيدة بن الجراح، ولكن خالد كتم الأمـر خوفـاً من الفتنة، وبايع الناس على الموت وأجابوه حتى انتصر جيش المسلمين وهزم الروم وأعوانهـم، حينذاك نزع خالد شعار الإمارة عن رأسه وتقدم من أبي عبيدة ووضعه على رأسه وأتى بالـراية بيـن يديه. هذا ما فعله خالد الذي كان يطلب الشهادة ولا يطلب الإمارة. لم يتمرد على أمر الخلـيفة... ولـم يسـتثمر هذا النصر لمصلحته الشخصية فيقسم الجيش إلى خصمين... ولم يعلن العـراق أو الشـام أو الحيرة أو فلسطين مملكة مستقلة لخالد، لأنه كان يقاتل في سبيل الله ومن أجل تحقيق النصر للمسلمين المستضعفين في الأرض، فعلا بهم ودخل التاريخ من باب الأبطال الفاتحين. وكذلك فعل الخليفة عمر بن الخطاب الذي لم يعزله خوفاً من منازعته أو تمرده، وإنما فعل ذلك من بـاب الحرص عليه، وقد بيّن ذلك في حوار دار بينهما حين عاد خالد إلى المدينة، وهو قلق من أن يكون قد ارتكب خطأ يوجب العزل:

ـ لِمَ عزلتني يا أمير المؤمنين؟

أجابه عمر:

ـ والله إني أحبك يا أبا سليمان؛ وما عزلتك يا بنْ الوليد إلا مخافة أن يفتتن الناس بك لكثرة ما أبليـت فـي سبيل الله. فالنصر لم يصنعه خالد وحده، وإنما هو فرد استطاع أن يكون أنموذجاً جيداً للمجاهديـن الذين يقاتلون تحت قيادته فسار بهم إلى النصر الذي هو من عند الله.... هو نصر يحققه للذيـن يتـبعون قولـه: ﴿وأعـدوا لهـم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدّو الله وعدوكم﴾، وقد ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾.

واللافـت لدى الشعوب هو التمسك بصورة البطل المنقذ المخلص و ما ذاك إلا لأنهم يلاحظون واقعاً فاسداً تتلاحق فيه هزائمهم سنة بعد أخرى فيعمدون إلى استدعاء البطل التاريخي:

رفـيقَ صـلاحَ الديـن.. هل لك عودةٌ   فـإنَّ جـيوشَ الـروم تـنهى وتأمـرُ

رفـاقُكَ فـي الأغـوارِ شدّوا سُروجَهمْ   وجُـندُكَ فـي حطّيـن، صـلّوا وكبّروا

تُغنّـي بـك الدنـيا كـأنك طـارقٌ   علـى بـركاتِ اللهِ، يرسُـو، ويُـبحِرِ

تـناديك مـن شـوق مـآذن مكّـة   وتبكـيك بـدرٌ، يـا حبيبـي، وخيـبرُ

تعـال إليـنا... فالمـروءات أطرقـت   وموطـن آبائـي... زجـاجٌ مكسَّـرٌ

وربما يُثار هنا تساؤل مسوَّغ: لماذا العودة إلى التاريخ والبحث في ثنايا الماضي؟... وقد يكمن

الجـواب فـي انهيار البطولات في العصر الحاضر، وسقوط الشعارات والإيديولوجيات وكثير من الأنظمـة السياسـية. هذه كلها جعلت الإنسان المعاصر يلوذ بالتاريخ، ويبحث في ثناياه عن الرموز المشـرقة والـبطولات الحقيقـية الغائـبة والمغيبة لهذه الأمة، تعويضاً لها عن خساراتها وهزائمها وراياتهـا المنكسرة في شتّى معاركها، الوهمية والحقيقية. من هنا بدأت حاجة العربي إلى استحضار شخصيات الماضي، متخذاً منها رموزاً إيحائية أو مباشرة، يعيد من خلالها لهذه الأمة حقّها المشروع في أن تحلم مرة أخرى بعودة أمجادها، وبزوغ فجر مستقبلها المنتَظر.

ومـن هنا جاءت الحاجة إلى استلهام شخصية خالد الذي نذر نفسه لنصرة الإسلام والدفاع عن المسلمين

إنّـه حنيـن إلـى الماضي ماض غير محدد، لكنه محبب وأليف، رغم اندثاره وانطفاء وهجه ويظهر ذلك في مشهد استحضار زمن خالد، مقارناً بينه وبين الحاضر المتأزم.

خـالد هذا الذي كان يحرص في كل معركة أن ينال الشهادة، لكنّه، رغم المعارك الكثيرة التي خاضها... مات على فراشه. يقول الواقدي إن خالداً لمّا حضرته الوفاة بكى وهو يقول:

((لقـد حضـرت كذا وكذا زحفاً، ومافي جسدي شبر إلاّ وفيه ضربة سيف أو طعنة رمحٍ، أو رمية سهمٍ، وها أنا ذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء)).

غادرنا تاركاً لنا هذا التساؤل الكبير (فلا نامت أعين الجبناء) فهل نعي ما أراد؟..

□□□

سيف الله خالد بن الوليد

تأليف: الجنرال أ. أكرم

ترجمه عن الإنكليزية: العميد الركن صبحي الجابي

دمشق 1976

جمانة طه*

ليس في تاريخ الحروب معارك فاقت في تألقها ونتائجها معارك المسلمين، بفضل قادة موهوبين تمكنوا من توظيف شجاعتهم القتالية بدقة وتصميم. وفي مقدمة هؤلاء القادة سيف الله المسلول خالد بن الوليد، الذي بهرت إنجازاته العسكرية الضابط الباكستاني أ. أكرم، فسعى جاهداً وراء المعلومة الصحيحة، سواء في بطون الكتب والمراجع أم في المدن التي شهدت حملات خالد وبطولاته، رغبة في تقديم رؤية موضوعية عن التاريخ العسكري الإسلامي الذي لم يُوَفَّ حقه من البحث والدراسة.

يبحث الكتاب في "سيرة وفي حملات رجل من أشهر الجنود الذين عرفهم العالم، إنه خالد بن الوليد البطل دائماً والذي لم يعرف أبداً معنى الهزيمة العسكرية." ص 14 .

يقسم الكتاب إلى أربعة أجزاء، وهي:

1 ــ في زمن النبي. 2 ــ حروب الردة. 3 ــ فتح العراق. 4 ــ فتح بلاد الشام.

•••

في الجزء الأول يذكر المؤلف أن خالداً ولد في مكة، وعلى عادة أهل قريش، أرسل إلى مرضعة في الصحراء لتقوم بتربيته والاعتناء به. وفي سن الخامسة عاد إلى أهله في مكة، بعد أن اكتسب من الصحراء صحة جيدة وقوة هائلة تمتع بهما طوال حياته.

* - باحثة وقاصة.

تعلم خـالد منذ طفولته المبكرة ركوب الخيل حتى أصبح واحداً من خيرة فرسان بني مخزوم الذيـن كـانوا مـن أمهر الفرسان في الجزيرة العربية. وأيضاً تعلم مهارات القتال، واستخدام جميع الأسلحة: المزراقٍ، والرمح، والقوس والنشاب، والسيف. وما إن أصبح في سن النضج، حتى أخذت الحرب والقتال جُلّ اهتمامه وسيطرا على أفكاره وطموحاته.

***

جـاء الإسـلام وكان خالد في الرابعة والعشرين من عمره. وقد وقف ضد الدين الجديد مع من وقـف، وحـارب أتباعه في أكثر من وقعة وغزوة. وكانت وقعة أحد أولى معاركه ضد المسلمين، وفـيها هزم المسلمون بسبب الرماة الذين عصوا أوامر النبي وتركوا أماكنهم، وبسبب الهجوم الذي شنه خالد على حين غرة على مؤخرة جيشهم.

وبعد صلح الحديبية، آمن خالد بالإسلام وله من العمر ثلاثة وأربعون عاماً. وكانت موقعة مؤته أولى معاركه الإسلامية، ونتيجة لها سماه الرسول (ص) سيف الله المسلول.

وتوالـت بطولات خالد في زمن الرسول أثناء فتح مكة وغزوة حنين وحصار الطائف، وأخيراً دومة الجندل.

***

يضـم الجـزء الثاني من الكتاب حرب الردة التي حصلت في عهد الخليفة أبي بكر الصديق وقد أشار المؤلف إلى أن الردة عن الدين الإسلامي بدأت في حياة النبي. "لكن الخطر الحقيقي للارتداد عن الدين ظهر بعد وفاته، عندما اجتاحت الجزيرة العربية موجة عاتية من الكفر بعد الإيمان." ص 144

وقد شارك خالد في الحرب بتكليف من الخليفة، وتوجه بمن معه إلى محاربة المرتدين: طليحة ابـن خويلـد زعيم قبيلة بني أسد في سهل البزاخة، ومالك بن نويرة زعيم بني يربوع في البطاح، وانتصر عليهما.

***

وفي الجزء الثالث من الكتاب يعرض المؤلف الأحداث التي رافقت فتح العراق، من تصادم مع الفـرس، ومـا جرى من معارك، كمعركة السلاسل والنهر. وبعد ذلك وصوله إلى الحيرة وفتحها، وبذلـك أصـبح الجزء الأوسط من العراق الواقع بين الفرات ودجلة تحت سيطرة العرب المسلمين. وتـابع خـالد تحقـيق طموحاته فقرر أن يستولي على مدينتي الأنبار وعين التمر، "وكان يدافع عن كلـيهما حامـية لا بـأس بهـا من الفرس ومن العرب الذين يقاومون زحف المسلمين، وكان يحكم المدينتين أمراء من الفرس." ص 303

وبعـد قتال شديد مع الفرس تمكن خالد من دخول الأنبار، واستخلف عليها الزبرقان بن بدر، ثم توجه إلى عين التمر واحتلها.

***

أمــا الجــزء الــرابع فقــد ضم تفاصيل توغل خالد في بلاد الشام ومحاربة الروم في أجْنادين وانتصاره عليهم. ومن ثم توجهه إلى دمشق لفتحها وتحريرها من الحكم الرّومي.

وكانــت دمشــق "تضم حامية من الروم يتراوح عددها بين خمسة عشر ألفاً وستة عشر ألفاً، بالإضـــافة إلـــى عـــدد كبير من السكان المدنيين الذين هم من السكان الأصليين ومن سكان المناطق المجـــاورة. أما عدد قوات المسلمين فلم يسجلها المؤرخون." ص 389 لكن عددهم كان أقل مما كان علـــيه في أجنادين والياقوصة ومرج الصُفّر، بسبب ما خسروه من قتلى وجرحى، ومع ذلك تمكنوا من دخول دمشق فاتحين منتصرين.

إلا أن القـــائد خـــالد بـــن الوليد لم يتمتع بهذا النصر العظيم، فقد توفي أبو بكر وخلفه عمر بن الخطاب الذي عزل خالداً عن قيادة الجيش وولى مكانه أبا عبيدة بن الجراح.

وبـــرغم الجرح الكبير الذي أحس به خالد، لم يتوقف عن مشاركة جنود المسلمين في فتح بلاد الشـــام تحت إمرة القائد الجديد. فشارك في فتح حمص، وفي معركة اليرموك، والخطة التي وضعها بالبقاء في وضعية الدفاع حتى يتم إنهاك الروم نجحت نجاحاً قلّ نظيره.

بعد معركة اليرموك، توجه المسلمون إلى القدس لفتحها، وكان خالد في مقدمة الجيش.

•••

عاش خالد بعد عزله عن قيادة الجيش "أقل من أربع سنوات ولم تكن هذه السنون سارة. كما أن حالـــته الماديـــة لم تكن حسنة." والمبلغ الذي خصصه له عمر بن الخطاب لم يكن كافياً له ولأسرته وهـــو الـــذي ولد "أرستقراطياً، واعتاد أن يصرف آلاف الدراهم. فأخذ أسرته إلى حمص، واشترى منزلاً واستقر فيها بقية حياته." ص 523

وقيل أن يختم الجنرال أ. أكرم مؤلفه الثمين عن سيف الله المسلول، يقول: "كان خالد من أعظم القادة متعددي الصفات الذين عرفهم التاريخ، ومن ألمع العباقرة العسكريين، وكانت استراتيجيته مثار الإعجـــاب. وكان جندياً بطبيعته، وكانت خططه ومناوراته تنم عن إدراك عسكري كبير. وكان قدره أن يخـــوض معـــارك كبـــيرة، وأن يقهر أعداء أقوياء، وأن يهاجم ويقتل ويفتح. وقد ظهر قدره هذا بظهور الإسلام على شكل حرب مقدسة نشبت في بلاد العرب." ص 527

•••

فـــي عـــام 21 هجـــري مرض خالد، ومات على فراشه وليس في ساحة القتال كما كان يتمنى ويرغـــب. "وعـــندما وصـــل خبر وفاته إلى المدينة، خرجت النساء من بيوتهن وهن يبكين، وعلى رأســـهن نســـاء بنـــي مخزوم. فسمع عمر النبأ الحزين وصوت البكاء والنحيب، فحمل السوط وهم بمغـــادرة منزله ليوقف البكاء، لكنه ما لبث أن عاد وعلق سوطه ثم قال: دع نساء بني مخزوم يبكين على أبي سليمان، فإنهن لا يكذبن. فعلى مثل أبي سليمان تبكي البواكي." ص 529.

□□□

خالد بن الوليد

كشّاف بما أُلِّف عنه وبمواطن ترجمته في الموسوعات وكتب التراجم والإشارة إلى الكتب التي عنيت بذكر أحاديثه

محمود الأرناؤوط*

مقدمة

حين *طلب مني الكتابة في هذا العدد الخاص من مجلة التراث العربي عن سيف الله خالد ابن الوليد المخزومي القرشي الصحابي الجليل والفاتح الكبير وأحد الأبطال الصّناديد الذين عرفهم تاريخنا الغابر وفاخر بهم أبناء الأمّة كابراً بعد كابر، وقع اختياري على كتابة هذا البحث الذي يسهم بتعريف الباحثين والقراء بالمؤلفات التي عقدت للكلام على سيرته العطرة الأمثولة، وبالدلالة على مواطن ترجمته في الموسوعات العربية وكتب التراجم، رغبة في أن أذكر عند الله عزّ وجل فيمن أسهم ولو بقدر يسير في لفت الأنظار إلى قيمة هذه الشخصية الفَذّة من أعلام الصحابة الأبطال رضوان الله تعالى عليهم، والله تعالى من وراء القصد.*

(أ)

في بيان ما أُلِّف عنه من المؤلَّفات والدراسات [2]

1 ــ أعظم قواد التاريخ ابن الوليد، تأليف محمد نبهان الخبّاز، السلسلة الجامعة المختارة، مكتبة الغزالي، حماة 1987 م.

2 ــ تاريخ خالد بن الوليد البطل الفاتح، تأليف أبو زيد شلبي، المطبعة المصرية، القاهرة 1933 م، وصدرت طبعته الثانية عن دار الكتاب العربي بالقاهرة سنة 1953 م وأعيد إصداره مصوراً

---

*عضو جمعية البحوث والدراسات في اتحاد الكتاب العرب، عضو الجمعية السورية لتاريخ العلوم، محاضر في قسم التخصص بمعهد الفتح الإسلامي بدمشق.

(2) وقد حرصت على ترتيبها على نسق حروف المعجم.

في دار الفرجاني بالقاهرة سنة 1983 م في طبعة ثالثة.

3 ــ خالد بن الوليد، تأليف أحمد شوحان، سلسلة الأبطال، دار التراث، دير الزور، 1980 م [1].

4 ــ خالد بن الوليد، تأليف بسام العسلي، سلسلة مشاهير قادة الإسلام، دار النفائس، بيروت 1978 م.

5 ــ خالد بن الوليد، تأليف عمر أبو نصر، بيروت 1934م.

6 ــ خالد بن الوليد، إعداد حلمي علي شعبان، سلسلة أعمدة الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت 1991 م.

7 ــ خالد بن الوليد، تأليف خالد الأنصاري، سلسلة عبر وعظات من حياة الصحابة، دار البشير، طنطا 1990 م.

8 ــ خالد بن الوليد، تأليف صادق إبراهيم عرجون، دار القومية العربية، القاهرة 1953 م.

9 ــ خالد بن الوليد، تأليف عامر محمد بحيري، مكتبة مصر، القاهرة 1945 م.

10 ــ خالد بن الوليد، تحرير علي رضا وجماعة، تنقيح وإضافة صالح الأشتر [2]، سلسلة أعلام خالدون، دار الشرق العربي، بيروت دون تاريخ.

11 ــ خالد بن الوليد، تأليف علي شلق، سلسلة كواكب الإسلام، دار المسيرة، بيروت 1980 م.

12 ــ خالد بن الوليد، تأليف محمد كامل حسن المحامي، سلسلة عظماء الإسلام، المكتب العالمي، بيروت ط 1 و ط 2 1984 م.

13 ــ خالد بن الوليد، تأليف محمد كمال، بدر الدين حاضري، سلسلة شمس الهدى والإيمان قادة الفتح الإسلامي، دار ربيع حلب 1993 م [3].

14 ــ خالد بن الوليد، بطل ومسجد، دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية موثقة، تأليف محمد فيصل شيخاني، حمص 2001 م.

15 ــ خالد بن الوليد سيف الله، تأليف محمد العروسي المطوي، وعبد الكريم المراق، مؤسسة الوحدة بالكويت، الدار التونسية بتونس، سنة 1976 م.

16 ــ خالد بن الوليد، رضي الله عنه، سيف الله، تأليف محمد علي قطب، سلسلة كواكب الإسلام، دار المسيرة، بيروت 1988 م.

وطبعة أخرى مصورة عنها صدرت عن دار الدعوة بالإسكندرية سنة 1933 م.

---

(1) وهو مؤلف للأطفال ويمكن أن يستفيد منه الكبار أيضاً.

(2) انظر ترجمته ومصادرها في كتابنا "أعلام التراث في العصر الحديث" ص (188 ــ 190) طبع مكتبة دار العروبة بالكويت، ودار ابن العماد ببيروت سنة 1422 هـ ــ 2001 م.

(3) وهو كتاب للأطفال يمكن أن ينتفع به الكبار أيضاً.

17 ـ خالد بن الوليد، السيف والساعد والراية، تحرير عزّ الدّين إسماعيل وجماعة، سلسلة أبطال العرب، دار العودة، بيروت 1985 م.

18 ـ خالد بن الوليد، قاهر المرتدين والفرس والروم، تأليف حلمي محمدعبد الهادي، سلسلة أعلام من تاريخنا، دار الفكر، عَمَّان 1987 م [1].

19 ـ خالد بن الوليد، المثل الأعلى للقيادة الظافرة، تأليف بكر موسى، سلسلة البحوث الإسلامية، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة 1972 م. ولـه طبعة أخرى في صيدا– لبنان، دون تاريخ.

20 ـ خالد بن الوليد، نعم عبد الله وأخو العشيرة، تأليف عبد الرحمن عثمان الزومة، سلسلة رجال صدقوا، دار المطبوعات الحديثة، جُدَّة 1984 م.

21 ـ خالد بن الوليد المخزومي، تأليف اللواء الركن محمود شيت خطاب، سلسلة قادة الفتح الإسلامي، دار الفكر، بيروت 1978 م.

22 ـ خالد بن الوليد المخزومي، تأليف سيف الدين الكاتب، سلسلة مشاهير الفاتحين، دار اقرأ، بيروت 1981 م.

23 ـ سفر خالد بن الوليد من العراق إلى الشام، تأليف طه الهاشمي، المجمع العلمي العربي، دمشق 1953 م.

24 ـ سيف الله خالد بن الوليد، تأليف الجنرال أ. أكرم، ترجمة صبحي الجابي، مؤسسة الرسالة، بيروت 1976 م.

25 ـ سيف الله خالد بن الوليد، جاهليته وإسلامه، تأليف عمر رضا كحّالة [2]، سلسلة مشاهد في الغزوات، المكتبة العربية، دمشق 1934 م.

26 ـ سيف الله خالد بن الوليد، تأليف عبد التواب يوسف، عالم الكتب، بيروت 1986 م.

27 ـ سيف الله خالد بن الوليد، تأليف عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة 1986 [3]م.

28 ـ سيف الله المسلول خالد بن الوليد، إعداد عبد الرحيم لطفي، سلسلة عظماء الإسلام، دار الإيمان، بيروت 1985 م [4]

29 ـ سيرة الصحابي خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله رضي الله عنه، تأليف عبده غالب عيسى، دار الجيل، بيروت 1993 م.

30– عبقرية خالد: عباس محمود العقاد– القاهرة 1952 م. ثم طبع مراراً.

(1) وهو كتاب للأطفال ويمكن أن يستفيد منه الكاتب والباحث.

(2) انظر ترجمته ومصادرها في كتابنا "أعلام التراث في العصر الحديث" ص (167 ـ 168) طبع مكتبة دار العروبة بالكويت، ودار ابن العماد ببيروت سنة 1422 هـ ـ 2001 م.

(3) وهو كتاب للأطفال ويمكن أن يستفيد منه الكبار أيضاً.

(4) وهو كتاب للأطفال ويمكن أن يستفيد منه الكبار أيضاً.

31 ــ عبقرية خالد بن الوليد الاستراتيجية خلال الفتوحات الإسلامية، تأليف محمود عبد الحميد الكفري، دار حوران، دمشق 2003 م.

32 ــ عبقرية خالد بن الوليد العسكرية، تأليف أحمد اللحام، دار المنارة، جُدَّة 1986 م.

33 ــ عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد، تأليف بلال الحاج عُبيد، بيروت، دون تاريخ.

34 ــ فارس الإسلام أبو سليمان خالد بن الوليد، جمع وتقديم وتعليق محمد مال الله، مكتبة ابن تيمية، القاهرة 1989 م.

35 ــ معارك خالد بن الوليد،، ياسين سويد، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت 1981 م.

36 ــ موجز سيرة خالد بن الوليد، تأليف محمد سعيد العرفي، مطبعة ابن زيدون، دمشق 1935 م.

37 ــ مواويل دمشقية إلى قمر بغداد، مرسوم بإقالة خالد بن الوليد، تأليف نزار قباني، بيروت 1979 م.

38 ــ اليرموك بقيادة خالد بن الوليد، تأليف شوقي أبو خليل، سلسلة المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام، دار الفكر دمشق 1983 م.

(ب)

في مواطن ترجمته فيما وقفت عليه من الموسوعات العربية وما هو في حكمها من دوائر المعارف [1]

1 ــ دائرة المعارف الإسلامية (8 / 202) اشترك في تحريرها عدد كبير من علماء المستشرقين والعرب والمسلمين، ونقلها إلى العربية محمد ثابت الفندي، أحمد الشنتناوي، إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، القاهرة 1933 م.

2 ــ دائرة المعارف، للمعلم بطرس البستاني (7 / 329) مصورة دار المعرفة، بيروت.

3 ــ القاموس الإسلامي، تأليف أحمد عطية الله (2 / 204) مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1966 م.

4 ــ المعجم العربي الأساسي ص (413) تأليف جماعة من اللغويين العرب، تنسيق د. علي القاسمي، تحرير د. أحمد مختار عمر، مراجعة د. تمَّام حسَّان عمرو، د. حسين نصَّار، أ. نديم مرعشلي، تقديم د. محيي الدِّين صابر، إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، توزيع لاروس، 1988 م.

5 ــ الموسوعة الإسلامية الميسرة (5 / 980 ــ 982) بإشراف د. محمود عكام، دار صحارى، حلب، دون تاريخ.

[1] وقد رتبت أسماءها على نسق حروف المعجم.

6 ــ الموســوعة الثقافــية ص (420) بإشراف د. حسين سعيد، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، القاهرة ــ نيويورك 1972 م.

7 ــ الموســوعة العربــية العالمية (10 / 11 ــ 12) إعداد وترجمة مجموعة من العلماء، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض 1419 هــ ــ 1999 م.

8 ــ الموسوعة الموجزة (2 / 193) تأليف حسّان بدر الدين الكاتب.

(ج)

في مواطن ترجمته فيما وقفت عليه من كتب التراجم العربية [1].

1 ــ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البرّ النمري القرطبي.

أ ــ تحقيق علي محمد البجاوي (2 / 427)، مكتبة نهضة مصر 1960 م.

ب ــ بعناية عادل مرشد ص (197 ــ 199) دار الأعلام، عمان 2002 م.

2 ــ أُســد الغابة في معرفة الصحابة، لعزّ الدّين بن الأثير (2 / 93) تحقيق محمد فايد، محمد أحمد عاشور، محمد إبراهيم البنا، كتاب الشعب، القاهرة 1964 م.

3 ــ الإشــارة إلى وفيات الأعيان، للذهبي ص (18) تحقيق إبراهيم صالح، دار ابن الأثير، بيروت 1991 م.

4 ــ الإصــابة فــي تميــيز الصحابة، لابن حجر العسقلاني (1 / 412) و(4 / 385) دار صادر، بيروت [2].

5 ــ الأعلام، تأليف خير الدّين الزركلي [3] (2 / 300)، الطبعة الرابعة – بيروت 1979م.

6 ــ الإعلام بوفيات الأعلام، للذهبي ص (28) تحقيق رياض عبد الحميد مراد وعبد الجبار زكّار، دار الفكر المعاصر ببيروت، دار الفكر بدمشق 1412 هــ 1991 م [4].

7 ــ أمالــي المرتضــى (واســمه غرر الفوائد ودرر القلائد) (1 / 260) بتحقيق محمد بدر الدّين النعساني. منشورات جمال وخانجي 1352 هــ 1907 م.

8 ــ أنساب الأشراف، للبلاذري (318 و381 و382 و384 و447) بتحقيق د. محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة 1959 م.

---

[1] وقد رتبت أسماءها على نسق حروف المعجم.

[2] وله طبعات أخرى انظر الكلام عليها في "ذخائر التراث الإسلامي، تأليف عبد الجبار عبد الرحمن، بغداد 1981 م.

[3] انظر ترجمته ومصادرها في كتابنا "أعلام التراث في العصر الحديث" ص (139 ــ 141) طبع مكتبة دار العروبة بالكويت، ودار ابن العماد ببيروت سنة 1422 هــ 2001 م.

[4] وقد قمنا بقراءته قراءة تدقيق قبل دفعه للطبع في حينه ولنا عليه تعليقات كثيرة مختومة بحرف (م).

9 ــ أيـام العرب في الإسلام، تأليف محمد أبو الفضل إبراهيم [1] وعلي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة 1968 م ص (78 و91 وانظر فهارسه).

10 ــ البداية والنهاية، لابن كثير الدمشقي.

أ ــ طبعة مكتبة المعارف ببيروت، دون تحقيق، 1990 م (7 / 113).

ب ــ طـبعة مكتبة هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، بإشراف د. عبد الله عبد المحسن التركي، القاهرة 1998 م (10 / 128).

11 ــ تاريخ ثغر عدن وتراجم علمائها، لأبي عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد أبي مخرمة، ص (100) رقم (94) اعتنى به علي حسن علي عبد الحميد الحلبي، دار الجيل ببيروت، دار عمّار بعمّان، 1987 م.

12 ــ تاريخ خليفة بن خيّاط، ص (150) تحقيق د. أكرم ضياء العمري، دار طيبة، المدينة المنورة 1985 م. وكانــت طبعــته الأولــى في النجف الأشرف 1967م. وحققه أيضاً د.سهيل زكار، دمشق 1967م.

13 ــ تــاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، للقاضي حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري، (2 / 247) مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، بيروت 1970 م.

14 ــ تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر الدمشقي، (16 / 216) طبع دار الفكر، بيروت.

15 ــ الـتاريخ الصغير، للبخاري (1 / 46 ــ 49) تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب 1977 م.

16 ــ تـاريخ الطـبري [2] (3 / 65) تحقـيق محمـد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة 1960 م.

17 ــ الـتاريخ الكبـير، للبخاري (2 / 1 / 136) دائرة المعارف، القاهرة الدكن، الهند، 1959 ــ 1978 م.

18 ــ تجـريد أسـماء الصحابة، لعزّ الدّين بن الأثير (1 / 154) تحقيق صالحة عبد الحكيم شرف الدّين، بومباي ــ الهند 1969.

19 ــ تحريـر تقريـب التهذيب، لابن حجر العسقلاني (1 / 354) تصنيف شعيب الأرناؤوط ود. بشار عوّاد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت 1996 م.

20 ــ تقريـب التهذيـب، لابــن العسـقلاني ص (191) تحقـيق محمد عوّامة، دار الرشيد، حلب 1986 م.

[1] انظر ترجمته ومصادرها في كتابنا أعلام التراث في العصر الحديث ص (155 ــ 157).

[2] ذكرته باسم الشهرة الذي عرف به، واسمه على ما دوّنه صاحبه "تاريخ الرسل والملوك".

21 ـ تهذيب الأسماء واللغات، للنووي (1 / 1 / 172 ـ 174) إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة 1927 م.

22 ـ تهذيب تاريخ دمشق (5 / 95) تأليف عبد القادر بدران [1] دار المسيرة، بيروت.

23 ـ تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، دائرة المعارف الإسلامية، حيدر أباد الدكن ـ الهند 1907 ـ 1909 م.

24 ـ تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزّي (8 / 187) تحقيق د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت 1981 م.

25 ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول، لمجد الدّين بن الأثير (قسم التراجم وملحقاته) 13 (417) تحقيق محمود الأرناؤوط، بإشراف عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن الأثير، بيروت 1991 م.

26 ـ الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (3 / 356) دائرة المعارف الإسلامية، حيدر أباد الدكن ـ الهند، 1952 ـ 1953 م.

27 ـ الجمع بين رجال الصحيحين، لابن القيسراني (1 / 118) دائرة المعارف الإسلامية، حيدر أباد الدكن ـ الهند، 1905 م.

28 ـ جمهرة أنساب العرب، لابن حزم الأندلسي ص (147) تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة 1962 م.

29 ـ خلاصة تذهيب تهذيب الكمال، للخزرجي (1 / 285) بعناية محمود عبد الوهاب فايد، القاهرة 1927 م.

30 ـ دول الإسلام، للذهبي (1 / 12) حقّقه حسن إسماعيل مَرْوَة، قرأه وقدّم له محمود الأرناؤوط، دار صادر، بيروت 2000 م.

31 ـ ذيول تاريخ الطبري، ص (559) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة 1964 م.

32 ـ سُلَّم الوصول إلى طبقات الفحول، لكاتب جلبي [2] (2 / 84) تحقيق د. أكمل الدين إحسان أوغلي، محمود أرناؤوط، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إستانبول.

33 ـ سير أعلام النبلاء، للذهبي (1 / 366) تحقيق حسين الأسد، بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت 1981 م.

[1] انظر ترجمته ومصادرها في كتابنا "أعلام التراث في العصر الحديث ص (40 ـ 42) طبع مكتبة دار العروبة بالكويت، ودار ابن العماد ببيروت سنة 1422 هـ ـ 2001 م.

[2] ويعرف أيضاً بـ (حاجي خليفة) واسمه مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي. انظر ترجمته في "الأعلام" للزركلي (7 / 236) طبع دار العلم للملايين، بيروت.

34 ــ شـذرات الذهـب، فـي أخـبار مـن ذهب، لابن العماد الحنبلي، (1 / 74) تحقيق محمود الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق ــ بيروت 1986 م.

35 ــ صفة الصفوة، لابن الجوزي، (1 / 650) حققه محمود فاخوري وخرّج أحاديثه محمد رواس قلعجي، دار الوعي، حلب 1969 م.

36 ــ طبقات خليفة بن خيّاط (1 / 42) تحقيق د. أكرم ضياء العمري، دار طيبة، المدينة المنورة.

37 ــ الطبقات الكبرى، لابن سعد (7 / 2 / 118) و(4 / 2 / 1) دار صادر، بيروت [1].

38 ــ العـبر في خبر من غبر، للذهبي (1 / 25) تحقيق د. صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد، وزارة الإعلام، الكويت 1984 م.

39 ــ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، لتقي الدين الفاسي (4 / 289 ــ 297) تحقيق محمد حامد الفقي، فؤاد سيد، د. محمود محمد الطناحي [2]، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت.

40 ــ فتوح الشام، للواقدي ص (13 و46 و54 و65 و114) مطبعة محمد مصطفى محمد، القاهرة 1935 م [3].

41 ــ الكاشـف في معرفة من له رواية في كتب الستة، للذهبي (1 / 275) تحقيق عزت علي عيد عطية وموسى محمد علي الموسى، دار الكتب الحديثة، القاهرة 1972 م [4].

42 ــ الكامل في التاريخ، لعزّ الدّين بن الأثير (2 / 142 ــ 224) و(3 / 25 ــ 26) و(4 / 78) دار صادر، بيروت.

43 ــ مختصـر تـاريخ دمشـق، لابن منظور (8 / 5) تحقيق مجموعة من المحققين، دار الفكر، دمشق.

44 ــ مداخـل المؤلفيـن والأعلام العرب ص (159) تأليف ناصر محمد السويدان ومحسن السيد العريني، جامعة الرياض 1980 م.

45 ــ مشـاهير علماء الأمصار، لابن حبّان البستي ص (31) بتحقيق د. ما نفريد فلا يشهمر، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1959 م [5].

46 ــ المعارف، لابن قتيبة ص (267) تحقيق د. ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة 1960 م.

47 ــ المنجد في الأعلام، لمجموعة من العلماء والباحثين ص (265) دار المشرق، بيروت.

[1] وله طبعة جيدة محققة متقنة صدرت حديثاً عن مكتبة الخانجي بالقاهرة بتحقيق د. علي محمد عمر، جديرة بالاعتماد.

[2] انظر ترجمته ومصادرها في كتابنا "أعلام التراث في العصر الحديث" ص (225 ــ 227).

[3] وله طبعات أخرى صادرة في أوربة وبيروت.

[4] وله طبعة جيدة محققة متقنة صدرت عن شركة دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن بيروت بتحقيق محمد عوّامة وأحمد محمد نمر الخطيب، جديرة بالاعتماد.

[5] انظر كتابنا "عناقيد ثقافية" ص (151 ــ 154).

48 ــ النجوم الزاهرة، لابن تغري بردي (1 / 76) وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة.

49 ــ نسب قريش، للزبيري ص (320 ــ 322) تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة.

50 ــ الوافي بالوفيات، للصفدي (13 / 264) تحقيق مجموعة من العلماء والباحثين، المعهد الألماني، بيروت.

(د)

في الإشارة إلى المصادر التي عنيت بذكر أحاديثه [1]

1 ــ جامع الأصول في أحاديث الرسول، لمجد الدين بن الأثير، قسم الحديث النبوي (9 / 102 ــ 103) بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان، دمشق 1969 م.

2 ــ مجمع الزوائد، للهيثمي (9 / 348 ــ 350) بعناية حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة 1932 ــ 1934 م [2].

3 ــ المستدرك على الصحيحين، للحكم النيسابوري، دار المعرفة، بيروت.

4 ــ المسند، للإمام أحمد بن حنبل (4 / 88 ــ 90) طبع المكتب الإسلامي ودار صادر، بيروت 1966 م

5 ــ المسند، للإمام حنبل (9 / 9 ــ 27) بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت 1993 ــ 2000 م.

6 ــ مخطوط فيه حديث خالد بن الوليد، للمستغفري [3] في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق رقم (14693).

(خاتمة)

هذا ما تيسر لي الوقوف عليه من المصنفات التي أفردت للكلام على سيرة هذا الصحابي الجليل الذي أسهم بقسط وافر في الفتوحات الإسلامية رضي الله عنه، ومن ذكره من أصحاب المصادر التي عنيت بالترجمة لأعلام الأمة، والمصادر التي عنيت بذكر ما رواه من الأحاديث النبوية المطهرة، والله تعالى من وراء القصد، والحمد لله ربّ العالمين.

□□□

(1) وقد حرصت على ترتيبها على نسق حروف المعجم.

(2) وله طبعة أجود منها اعتنى بها وعلّق عليها عبد الله درويش، ونشرتها دار الفكر ببيروت، وهي جديرة بالاعتماد.

(3) انظر ترجمته في "سير أعلام النبلاء" (17 / 564) و"شذرات الذهب" (5 / 157) بتحقيقنا.

أخبار التراث

اصدارات كتب

أمينة التحرير

•عن دار الفكر في دمشق صدرت الطبعة الثانية عام 2002 من كتاب (الدعاء المأثور وآدابه) للإمام أبي بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي الأندلسي، وقد حققها وقدم لها الدكتور محمد رضوان الداية.

يضم الكتاب خمسة عشر باباً، يندرج تحتها موضوعات عديدة تتعلق بالدعاء وفضله وآدابه وفوائده، منها:

ما جاء في ذكر الله، في معرفة اسم الله الأعظم، في قوله تعالى ﴿وإذا سألك عبادي عني﴾ في اختيار الألفاظ في الدعاء، وفي سياق الأدعية المأثورة عن النبي (ﷺ).

كما احتوى الكتاب على مقدمة المؤلف، وقائمة المصادر والمراجع عن أبي بكر الطرطوشي وفهارس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

•••

•صدر مؤخراً عن دار الفكر الإسلامي في القاهرة كتاب (الحجاب) للأستاذ جمال البنا، وفيه يعالج الكاتب موضوع الحجاب بموضوعية وروح جديدة. كما عالج فيه مسألة المساواة بين الرجل والمرأة في فصل بعنوان (مساواة مع إيقاف التنفيذ)، ويعرض لمسألة الزواج الذي برأيه تحول في هذا العصر من سكينة ورحمة إلى مُلْك واحتباس.

•••

•أصدرت المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار في الجزائر الطبعة الخامسة عام 2001 من كتاب (الشيخ عبد الحميد بن باديس: رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر). جاء الكتاب في اثني عشر فصلاً، تتناول حياة هذا العلم الكبير ومنجزاته العلمية والتربوية والتعليمية والثقافية والوطنية.

•وفي القاهرة صدر عام 2002 عن دار الكتب والوثائق القومية والمركز القومي لتوثيق التراث الحضاري والطبيعي، كتاب من مقتنيات مخطوطات دار الكتب المصرية عنوانه (إسهامات الحضارة العربية والإسلامية في العلوم الطبية). وذلك بتمهيد: فتحي صالح، وتقديم: صلاح فضل، وإشراف: محمد جلال سيد غندور.

يجدر بالذكر أن هذا الكتاب هو باكورة التعاون بين منظمة اليونسكو (مكتب القاهرة)، والمركز القومي لتوثيق التراث الحضاري والطبيعي، من أجل توثيق تراث المخطوطات العلمية والإسلامية ونشره.

•••

•وفي مجال الشعر، صدر عن مؤسسة الرسالة في بيروت كتاب عن حياة وشعر (محمد بن حمير الهمداني: شاعر الدولة الرسولية في القرن السابع الهجري).

عاصر الشاعر المذكور الملك المنصور عمر بن علي الرسولي مؤسس الدولة الرسولية في اليمن (626-647)، وتقرب منه حتى أصبح شاعر البلاط الأول.

•••

•أصدرت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الدوحة، كتاب الأمة العدد 89 تحت عنوان (البعد الحضاري لهجرة الكفاءات). يحتوي الكتاب على ثلاثة موضوعات مهمة، هي: (البعد الرسالي في هجرة العقول المسلمة إلى الغرب) للدكتور عبد المجيد النجار، و(الكفاءات المهاجرة طلائع لحضارة الإسلام) للدكتور محمد الغمقي، و(الخطاب المستقبلي للهجرة الإسلامية) للدكتور محمد المستيري.

•••

دوريات:

•صدر في شهر حزيران 2002 عدد من مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، وهي مجلة متخصصة محكمة. ضم العدد مجموعة متنوعة من البحوث تناولت اللغة العربية والتراث الإسلامي، منها: (حركة الترجمة والتعريب في ديوان الإنشاء المملوكي: البواعث واللغات والترجمات)، للدكتور سمير الدروبي. و(دراسة في أصل مصطلح التصوف ودلالته)، للدكتور أمين يوسف عودة.

•صدر العدد الثامن من الملف الثقافي (أفنان)، عن النادي الأدبي بمنطقة تبوك في المملكة العربية السعودية، وجاء فيه بحثان تناولا موضوعات تراثية، الأول: (لماذا اختلف الفقهاء) للكاتب عبد الرحمن العبيدان. يعرف الباحث علم الخلاف، ويذكر وسائل الخلاف، ويعدد بعضاً من أسباب الخلاف المذموم بين الفقهاء، وبعضاً من أسباب الخلاف المشروع بينهم.

أمـــا البحـــث الثاني: فهو للكاتب عبد الرحمن إسماعيل الشعبان. والبحث على درجة من الجدة والأهمية وعنوانه (الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: الكفان والقدمان).

يـــتحدث الكاتـــب عن معجزة القدرة الإلهية في خلق الكفين والقدمين، هذه المعجزة التي شغلت العلماء درساً وبحثاً حتى توصلوا إلى أن الأطراف هي مفاتيح الأعضاء والأجهزة الداخلية في جسم الإنســـان دونمـــا اســـتثناء، كالقلـــب والجهاز التنفسي والدماغ والجهاز البولي والتناسلي والعصبي والدموي.

***

نداء لإنقاذ التراث الفلسطيني:

وجه (جان إيف مارين) رئيس أمناء التراث المعماري في مدينة كان الفرنسية، نداء عاجلاً من أجل إنقاذ التراث الفلسطيني لأنه يشكل جزءاً من التراث العالمي. وطالب بإرسال بعثة عالمية علمية للـــتحقق مـــن الخسائر التي لحقت بالآثار في الضفة الغربية وقطاع غزة نتيجة القصف الإسرائيلي، وإطلاع الرأي العام العالمي عليها بالتفصيل.